

د. عرب دعكور

الدولة الفاطمية

تاريخها السياسي والحضاري

دار المواهب
للطباعة والنشر والتوزيع

الدولة الفاطمية

التاريخ السياسي والحضاري

الدكتور عرب دعكور

الدولــة الفـاطميــة

التاريخ السياسي والحضاري

دار المواسم
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ ـ ٢٠٠٤م

دار المواسم للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٢٣٦ ٨٩٠ (٣ ٩٦١٠٠) ـ تلفاكس: ٩٣٣ ٧٢٤ (٧ ٩٦١٠٠)
ص.ب: ٥٨٦٦/١٣ بيروت ـ لبنان
بريد الكتروني: mawassem@hotmail.com

مقدمة

يتناول هذا الكتاب تاريخ الدولة الفاطمية منذ عهد مؤسسها عبيد الله المهدي في شمال أفريقيا ببلاد المغرب سنة ٢٩٧هـ ـ ٩١٠م إلى آخر خلفائها وهو العاضد لدين الله ٥٦٧هـ ١١٧٤م. امتد نفوذ الدولة الفاطمية فشمل بلاد المغرب وصقلية ومصر والشام والحجاز. وأصبحت تهدد كيان الخلافة العباسية. إذ أصبحت مصر تحتل مكاناً مرموقاً بين الدول المجاورة لها؛ فقد أصبحت على أيدي الفاطميين مقر دولة تنافس الخلفاء العباسيين الذين كانوا لا يزالون يسيطرون على كثير من أقطار العالم الإسلامي.

كذلك حرص الفاطميون على الاحتفاظ بنفوذهم في بلاد اليمن ولم يأل دعاتهم جهداً في سبيل تحقيق هذه الغاية.

وكانت بلاد العراق محط أنظار الفاطميين. على اعتبار أنها مقر الخلافة العباسية، لذلك عهدوا إلى دعاتهم بالرحيل إليها لنشر دعوتهم، ولقي هؤلاء الدعاة كثيراً من النجاح في هذا السبيل، إذ وجدت دعوتهم تأييداً كبيراً في بلاد الفرس والعراق، وتحقق أن توج إعلان الخلافة الفاطمية من منابر بغداد في منتصف القرن الخامس الهجري، غير أنه لم يتح لها البقاء طويلاً، إذ دخل السلاجقة بغداد وأعادوا الخطة للخليفة العباسي.

تنقسم هذه الدراسة إلى بابين:

الباب الأول: «قيام الدولة الفاطمية» يتضمن أربعة فصول:

الفصل الأول: قيام الدولة الفاطمية في بلاد المغرب، ويتناول الدعوة الإسماعيلية إلى قيام الدولة الفاطمية، وعوامل نجاح الدعوة الشيعية في المغرب، ليطرح السؤال عن نسب الفاطميين وآراء المشككين في صحة النسب، وأقوال المثبتين لصحة النسب، كما يتحدث عن كيفية توطيد الفاطميين سلطانهم بالمغرب وما هي السياسة التي اتبعها المهدي، عبيد الله أبو محمد بعد أن قتل أبا عبد الله الشيعي وأخاه العباس سنة ٢٩٨هـ ـ ٩١٤م خشية أن يفتك به الناس على اعتبار أن الدولة الفاطمية تدين بوجودها له وما هو الدور الذي قام به ولي عهده الملقب بالقائم بأمر الله، وكيف أصبح شمال أفريقيا في حالة اقتصادية يرثى لها نتيجة الثورات إذ تعطلت موارد الدولة واستنفدت أموالها، ثم ما هو الدور الذي قام به المعز لدين الله بعد وفاة أبيه المنصور وكيف اتبع سياسة رشيدة وعمل على توطيد الخلافة الفاطمية بإخضاع الأمراء الثائرين على الحكم الفاطمي وكيف كانت الدولة الفاطمية ترمي إلى إنشاء امبراطورية عظيمة في البحر المتوسط، لذا حرص الفاطميون على الاحتفاظ بنفوذهم في صقلية.

الفصل الثاني: يتضمن الفتح الفاطمي لمصر، ويتحدث عن الأحوال الداخلية في مصر قبل الفاطميين، وكيف خضعت مصر للعرب وكيف أصبح أحمد بن طولون والياً على مصر، وما هو الدور الذي لعبه ابن طولون إثر خلاف الموفق مع أخيه الخليفة المعتمد، مما أدى إلى عداء شديد بينه وبين الموفق، وكيف استطاع ابنه ولي عهده خمارويه حكم مصر وبلاد الشام وثغورها، والموصل والجزيرة. وكيف استولى الأخشيد على بلاد الشام ومصر والحجاز واليمن، وكيف آلت الوصاية بعد وفاة الأخشيد الى كافور على ابن الأخشيد أنوجور.

وكيف أصبح كافور صاحب السلطة المطلقة، فانتصر على سيف الدولة الحمداني في حلب، وكيف كان عهد كافور عهداً أسود، توالت فيه المصائب

على مصر حتى إذا توفي لم يستطع أبو الفوارس أن يحكم البلاد ولم يستطع وزيره ابن الفرات أن يدفع رواتب الجند أو يخفف عن الأهالي، فاستغل المعز الخليفة الفاطمي حالة الفوضى والاضطراب وأنفد قائده جوهراً الصقلي لغزو مصر سنة ٣٥٨هـ ـ ٩٦٩م.

وما هو الدور الذي لعبه الفاطميون، وكيف عنوا عناية خاصة بامتلاك مصر إذ إن كثيراً من المصريين مالوا إلى الدعوة الفاطمية. وكيف أطلق جوهر للمصريين على اختلاف أديانهم ومذاهبهم حرية العقيدة، وأن يقوم بما تتطلبه البلاد من وجوه الإصلاح والعمل على استتباب الأمن وتوفير الأقوات وإصلاح العملة، وكيف شرع جوهر بتأسيس مدينة القاهرة سنة ٣٥٨هـ ـ ٩٧١م. وكيف سعى إلى بناء مسجد لإقامة شعائر المذهب الفاطمي هو الجامع الأزهر في شهر رمضان سنة ٣٥٩هـ ـ ٩٧٢م.

وكيف أمر جوهر بحذف الدعوة للخلفاء العباسيين التي كانت تقام بمساجد القاهرة، وأقامها للخليفة المعز، وأضاف في خطبة المساجد العبارة التالية «اللهم صل على محمد النبي المصطفى، وعلى علي المرتضى، وعلى فاطمة البتول، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول، الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيراً!!!».

وكيف أصبحت مصر دار خلافة الفاطميين بعد قدوم المعز إليها في منتصف القرن الخامس الهجري، ٩٧٣م غير أنه لم يتح لها البقاء طويلاً إذ دخل السلاجقة بغداد وأعادوا الخطبة للخليفة العباسي.

وكان السلاجقة يدركون الخطر الذي يتهددهم من جراء ازدياد النفوذ الفاطمي في بلاد الشرق الإسلامي، ومن ثم شرعوا في مناهضة هذا النفوذ بعد أن استقر سلطانهم في بغداد، كما عملوا على إقصاء الفاطميين عن بلاد الشام مما أدى إلى عدم استقرار الأمور في هذه البلاد وضعف الجبهة الإسلامية بها أمام الغزو الصليبي.

ولم تكن الخلافة الفاطمية إذ ذاك في حالة تساعدها على استعادة مجدها،

فقد اضمحل سلطانها في مختلف الأقاليم التابعة لها منذ أواخر القرن الخامس الهجري، كما عم الاضطراب أركان الحياة السياسية في مصر. وانصرف بعض رجال الدولة الفاطمية عن الإحتفاظ بالمذهب الإسماعيلي، بل حاول البعض إحياء المذهب السني، فكان كل ذلك مما مهد السبيل لسقوط الفاطميين الذين انصرفوا إلى حياة الترف والدعة تاركين أمور الدولة وشؤون الناس إلى خدامهم، فاغتنم الوزراء الفرصة واستأثروا بالمناصب شيئاً فشيئاً...

مما أضعف شأن الخلافة وعجل بزوالها.

أما الفصل الثالث فيدور حول سياسة الفاطميين الداخلية وسياستهم الخارجية.

أما سياستهم الداخلية فتتحدث عن موقف الفاطميين من المصريين السنيين، فعندما أسس جوهر الصقلي مدينة القاهرة رأى ألا يفاجىء السنيين في مساجدهم بإقامة شعائر المذهب الفاطمي خشية إثارة حفيظة المصريين، كذلك التزم جوهر إطلاق الحرية للمصريين في المعتقدات الدينية أولاً، ولكن الخليفة المعز، بعد أن انتقل إلى القاهرة، تركز الاهتمام في تحويل المصريين إلى المذهب الشيعي.

ومن المعروف أن الفاطميين يعتقدون بأن الخلافة من بعد النبي ﷺ هي إلى الإمام علي بن أبي طالب «ع» بلا فضل استناداً إلى حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة حيث نزل النبي ﷺ بغدير خم في طريقه إلى المدينة، وأخذ بيد علي بن أبي طالب وقال: أليستم تعلمون أني أولى بكل مؤمن من نفسه؟ قالوا: بلى. فقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره واخذل من خذله»[1].

---

(١) يروي الشيعيون هذا الحديث عن النبي، ويقولون إنه قاله في الثامن عشر من ذي الجة سنة عشرة للهجرة، وهو العام المعروف بحجة الوداع، وأي العام الذي ودع به النبي مكة وحج فيه لآخر مرة فنزل بغدير خم (بين مكة والمدينة) وآخى علي بن أبي طالب. ومن ذلك الوقت أصبح يوم غدير خم عيداً يعتني به الشيعيون عناية عظيمة ويحتفلون به. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٢=

ويعلق الشيعة أهمية كبرى على هذا الحديث إذ يعتبرونه بمثابة مبايعة علنية من الرسول لعلي بن أبي طالب. هذا الأمر هو أهم وجه من وجوه الخلاف بين المذهب الشيعي وأهل السنة.. وطبيعي أن تقوم بعض الخلافات لاختلاف الآراء والمواقف فالمؤذن عند الفاطميين يقول في الآذان بعد الشهادة لمحمد ﷺ بالرسالة والمبادرة إلى الصلاة «حي على خير العمل» والمؤذن عند أهل السنة يقول «الصلاة خير من النوم» (في أذان الفجر).

أما في الوراثة مثلاً، فقد كان للتشريعات التي أدخلها الفاطميون في مصر أكبر الأثر في احتفاظ أهل السنة... بمذاهبهم إذ رأوا في التشريعات ما يتنافى مع ما نص عليه القرآن؛ فيجيز قانون الشيعة للبنت أن ترث كل ما تركه أبواها إن لم يكن لها أخ أو أخت مع وجود ذوي العصبة، وهذا يخالف مذهب السنة الذي يقضي بألا ترث البنت أكثر من نصف الثروة.

على أن أهم ما اتصف به العصر الفاطمي في مصر هو النهضة التي ظهرت آثارها في جميع نواحي الحياة المصرية، إذ رأى الفاطميون أن تعزيز دولتهم ونجاح سياستها الخارجية لا يتم تحقيقها إلا بتنمية موارد الثروة، ومن ثم بذلوا قصارى جهدهم في هذا السبيل فعم الرخاء البلاد، وعمرت خزائنهم بالمال، كما عنوا عناية كبيرة بقواتهم البرية والبحرية حتى صاروا أصحاب شأن بين دول البحر الأبيض المتوسط.

أما سياسة الفاطميين مع أهل الذمة من النصارى واليهود، فقد قربوا إليهم أهل الذمة وأظهروا لهم كثيراً من التسامح، واستخدموهم في أهم شؤون الدولة، على أن هذه السياسة لم يتمسك بها الفاطميون، فكثيراً ما اضطروا إلى العدول عنها..

= ص ١٣٦. ويقول المقريزي: أن معز الدولة بن بويه احتفل لأول مرة بهذا العيد سنة ٣٥٢هـ ـ ٩٦٥م فاتخذه الشيعة عيداً يحتفلون به كل عام. خطط: ج ١ ص ٣٨٨.

وكان من أثر سياسة التسامح التي اتبعها العزيز نحو الذميين أن ازداد نفوذهم في عصره، وأصبح بدواوين الدولة الكثير من كتابهم وخاصة بعد أن عين هذا الخليفة منشا بن ابراهيم الفرار اليهودي والياً على بلاد الشام وولى عيسى بن نسطورس كتابته. فاستاء المصريون من استئثار الذميين بمناصب الدولة، فقدموا للعزيز بالله الفاطمي الاحتجاجات على محاباته المسيحيين واليهود، وتبين للخليفة حقيقة استئثار الذميين بمعظم السلطات، فأمر بالقبض على عيسى بن نسطورس وزملائه من الكتاب، كما قبض على منشا وغيره من الموظفين اليهود، وأعاد الكتاب المسلمين إلى أعمالهم بالدواوين.

أما الخليفة الحاكم بأمر الله فقد بدأ ينهج نهج سياسة الشدة مع غير المسلمين من رعاياه سنة ٣٩٣هـ ـ ١٠٠٦م، فأمر بهدم بعض الكنائس في القاهرة. وفي الوقت الذي اشتد فيه اضطهاد الذميين، تقلد الوزارة منصور بن عبدون النصراني. ومن الأمور الهامة التي حدثت في عهد هذا الوزير إشارته على الخليفة الفاطمي الحاكم بوجوب هدم كنيسة القيامة أو القبر المقدس فأصدر مرسوماً بهدمها.

وكان لهدم هذه الكنيسة أثر كبير في إذكاء الدعوة الصليبية التي أعلنتها البابوية للإستيلاء على بيت المقدس.

ولما توفي الحاكم بأمر الله خلفه ابنه الظاهر الذي استطاع بحسن سياسته أن يكتسب عطف أهل الذمة ومحبتهم له إذ تمتع النصارى واليهود بحريتهم الدينية من جديد، فاستطاع أبو سعد التستري اليهودي أن يرتفع الى منصب الوزارة إلى درجة أن شاعراً من الشعراء المعاصرين يسمى الرضى أنشد قائلاً:

يا أهل مصر قد نصحت لكم   تهودوا قد تهدد الفلك

أما الفصل الرابع فموضوعه: الفاطميون والصليبيون. وبما أن ضعف الخلفاء وازدياد نفوذ الوزراء واستئثارهم بالسلطة من أهم الأحداث السياسية في

العصر الفاطمي الثاني لذلك، لا بد من العناية بتوضيح هذا الموضوع، وبيان ما كان لتنافس الوزراء على منصب الوزارة، واستعانة بعض الطامعين في هذا المنصب بملوك الدول المجاورة من أثر في تطلع هؤلاء الملوك إلى السيطرة على مصر.

ثم كانت الحروب الصليبية... فما هي الأسباب الحقيقية لهذه الحروب؟

لا شك أن أسباباً دينية وسياسية واقتصادية تكمن وراء هذا العدوان...

ولكن ما هو الدور الذي لعبه الفاطميون في هذه الحروب الصليبية.

كيف وقفوا في وجه الصليبيين بعد أن انهزموا في مدينة الرملة؟ وكيف كان موقف الوزير الأفضل الذي هاجمهم بجيش مؤلف من عشرين ألف مقاتل بقيادة ابنه شرف المعالي، وكيف استخف الصليبيون بقيادة بلدوين ملك بيت المقدس بأمر الفاطميين الذين انقضوا عليه بغتة، فانهزم الفرنج وقتل منهم قتلة عظيمة.

أما بلدوين فقد نجا بأعجوبة... واستعاد الفاطميون الرملة، فأسروا وقتلوا من فيها من الصليبيين.

كما يتناول هذا الفصل كيف سقطت مدينة عكا، وما هو دور الحملة الفاطمية الثالثة؟ وكيف دعم الأسطول الفاطمي الثغور الشامية.

ولا مجال للشك أن هذه الصراعات بين حكام دمشق وحكام مصر حينئذٍ بسبب الخلاف المذهبي هي التي كشفت للصليبيين عن حقيقة الدولة الفاطمي ومدى ضعفها الأمر الذي حفزهم للاستيلاء على طرابلس وصيدا ثم بيروت وصور وبقية الموانىء الفلسطينية والسورية.

ولا بد من السؤال: ما هي نتيجة سياسة الخلافة الفاطمية المسالمة للصليبيين؟

ارتفعت الأصوات تتهم الخليفة الآمر بأحكام الله بتخاذله في تقديم المساعدة لمدينة صور، وتطالب الخلافة الفاطمية بإتخاذ سياسة إيجابية في محاربة الصليبيين. . . وأخذت الجيوش الفاطمية في عسقلان بالإغارة على الصليبيين في إقليم يافا حتى وصلوا إلى مشارف أرسوف.

وفي آخر كانون الثاني شرع بلدوين في حصار عسقلان. . . وقد استمر الحصار بضعة أشهر، ولكن أمام طول مدة الحصار وازدياد الهجمات الصليبية، لم تجد حامية عسقلان بداً من الاستسلام فسقطت المدينة ودخلها الصليبيون. ولم تعد الدولة الفاطمية مصدر خطر على الصليبيين إذ لم يتبق لها بعد خسارة عسقلان ممتلكات ذات أهمية في فلسطين.

أما الباب الثاني: النظم والحضارة في العصر الفاطمي بمصر فيتضمن خمسة فصول:

الفصل الأول: النظم السياسية والإدارية في العصر الفاطمي، فقد حرص الفاطميون على اتباع نظام الوراثة أن تنتقل الإمامة من الأب إلى الإبن عن طريق التعيين، لكن الحاكم بأمر الله حاول أن يحرم ابنه أبا الحسن الظاهر، ويعهد بها لابن عمه عبد الرحيم بن الياس غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل، وخلفه ابنه الظاهر لاعزاز دين الله.

وكان الخليفة الفاطمي يعين ولي عهده قبل وفاته، وأحاط الخلفاء الفاطميون أنفسهم بهالة من التقديس وهذا ما تحدثنا عنه سابقاً عند الخيلفة الحاكم بأمر الله.

أما عن الوزارة في عهد الفاطميين فقد حرص جوهر الصقلي على أن يشترك مع كل موظف مصري موظف مغربي حتى إذا ما تدرب أنصار الفاطميين على الإدارة إنفردوا بالوظائف.

كذلك عمل جوهر على إضعاف سلطة الوزير جعفر بن الفرات بأن عين له خادماً يلازمه في داره ويسير في ركابه فيكون عيناً عليه.

وكانت الوزارة في العصر الفاطمي الأول (٣٥٨هـ ـ ٤٦٥هـ) (٩٧١م ـ ١٠٧٥م) وزارة تنفيذ، لأن الخلفاء كانوا على جانب كبير من القوة بحيث استأثروا بإدارة شؤون الدولة.

أما في العصر الفاطمي الثاني، فقد ضعف نفوذ الخلفاء الفاطميين. بينما زادت سلطة الوزراء الذين استفحلت قوتهم وتضخمت ثروتهم، وأصبح في أيديهم أمر تعيين الخلفاء وعزلهم[١].

وكانت مصرفي العصر الفاطمي تنقسم إلى أربع ولايات، وقد منحت الحكومة الفاطمية كل والٍ من ولاة هذه الأقاليم الأربعة الحرية في تعيين العمال على المدن والنواحي والقرى الداخلية في نطاق ولايته.

وحرص الفاطميون على أن يكون موظفوا الإدارة من بين ذوي الخبرة إذ كانوا يتقاضون الرواتب الكبيرة ويمنحون الملابس والهدايا الثمينة في الأعياد والمواسم.

واهتم الفاطميون بالبريد اهتماماً كبيراً إذ بواسطته لم يعد يخفى على رجال الحكم شيء من أمور دولتهم.

وكانت الشرطة تختص بحفظ النظام واستتباب الأمن ويتولى رئيسها تنفيذ أحكام القضاة.

أما النظام المالي فكان له دواوين في الإدارة المالية تقوم بجباية الأموال وانفاقها.

---

(١) عندما أراد المستنصر بالله قبيل وفاته سنة ٤٨٧هـ ـ ١٠٩٧م أخذ البيعة لإبنه نزار عرض الأمر على رجال الدولة فتقاعس الوزير الأفضل عن ذلك وماطله حتى مات. . . وكان المستنصر قد بايع أخاه الصغير المستعلي بالله في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة سنة ٤٨٧هـ ـ ١٠٩٧م بتدبير الأفضل على اعتبار أنه ابن اخته وكان يعتقد أنه إذا ولي الخلافة نزار حال بينه وبين مناصب الدولة، على حين أن المستعلي كان صغير السن، وبذلك يصبح الأفضل مطلق التصرف في شؤون الدولة.

ـ ابن ميسر: تاريخ مصر. . ص٣٥.

كذلك كان للتنظيم الحزبي نصيب موفور من عناية الفاطميين فقد رأوا أنهم بحاجة إلى جيش كبير يحمي دولتهم ويساعدهم على امتداد نفوذهم في أراضي الدولة الإسلامية.

ويتألف الجيش من الأمراء وهم القادة، وطوائف الجند...

فالقادة يحملون في أعناقهم أطواق الذهب ويقود كل منهم ألف جندي. أما فيما يتعلق بالقوات البحرية، فقد بذلت الحكومة الفاطمية جهدها للحصول على الخشب الذي يصلح لبناء السفن الحربية.

وتنوعت السفن البحرية التي يتكون منها الأسطور في العصر الفاطمي، ويشرف على الأسطول عشرة قواد بحريين يختار من بينهم رئيس يعرف بأمير الأسطول.

أما النظام القضائي فقد لعب دوراً كبيراً في الدولة الإسلامية لأن القاضي غير قابل للعزل وهو يتميز عن غيره من موظفي الدولة. وقد رفع الفاطميون رواتب القضاة على غرار ما كان يفعل العباسيون حتى يحولوا بينهم وبين أخذ الأموال بغير حق.

ويتضمن الفصل الثاني: الحالة الاقتصادية: كيف اهتم الفاطميون بالثروة الزراعية ومظاهر تقدم الصناعة، ونشاط حركة التجارة الداخلية والخارجية. فقد كان القمح في الأراضي الخصبة، وكان الكتان يزرع في الأراضي المنخفضة، وكانت مصر تشتهر بإنتاج الكروم، وكان شجر النخيل مغروساً على شاطىء النيل، وأسوان والصعيد.

كذلك اهتم الفاطميون بغرس أشجار الغابات حتى يتسنى لهم الحصول على الأخشاب اللازمة لبناء اسطولهم الحربي ومراكبهم التجارية.

وعلى الرغم من اهتمام الفاطميين بالري والزراعة، فكثيراً ما نقص فيضان النيل وحل بالبلاد المصرية الشدة العظمى التي استمرت سبع سنوات. وقد

اقترنت هذه الشدة بقيام الفتن والحروب. فلما ولي بدر الجمال الوزارة سنة ٤٦٦هـ ـ ١٠٧٦م وقضى على المفسدين، وجه اهتمامه إلى إصلاح حال البلاد، فسادت الطمأنينة وعاد الفلاحون إلى الأرض يزرعونها. من أجل ذلك عني الفاطميون بالترع والجسور.

أما الأراضي التي تمتلكها الدولة فأخذوا في توزيع أجزاء منها على بعض أعوانهم والمختصين بهم. وقد أدخل تعديل كبير على الإقطاعات في عهد وزارة الأفضل، ذلك أنه لما شكا صغار المقطعين من قلة دخل إقطاعهم، أمر الوزير الأفضل بحل جميع الاقطاعات، وإعادة توزيعها، ولم يتعرض للأرض المملوكة بل أبقاها في أيدي أملاكها.

أما الصناعة فقد ازدهرت في العصر الفاطمي نتيجة لاستقرار الأمور في البلاد، فاشتهرت الصناعة الكتانية بسبب وفرة الكتان كما امتازت بصناعة الثياب الصوفية الرفيعة.

وكانت القاهرة مركزاً هاماً لصناعة المنسوجات الحريرية. كذلك تقدمت صناعة الزجاج والخزف لدرجة أن البقالين وغيرهم من التجار كان يضعون ما يبيعونه في أوان من الخزف بدلاً من الورق.

وازداد النشاط التجاري في الفسطاط والقاهرة.

ومن مراكز التجارة الداخلية مدينة دمياط. كذلك أقيمت في مصر الوكالات وهي كالفنادق، وينزل بها التجار القادمون من بلاد الشرق الإسلامي.

أما عن نظم المعاملات التجارية فلم تكن موحدة في الدولة الإسلامية ففي مصر والشام شاع استعمال الدنانير الذهبية والدراهم الفضية.

ويتناول الفصل الثالث: الحالة الاجتماعية في العصر الفاطمي: يدور هذا الفصل حول طبقات المجتمع ومظاهر البذخ والترف لدى الخلفاء وكبار رجال الدولة والإحتفال بالأعياد والمواسم والاهتمام بالغناء والموسيقى والمجالس

الاجتماعية بالإضافة إلى دور المرأة. كان المجتمع في العصر الفاطمي ينقسم إلى عدة طبقات أهمها طبقة أهل السنة ويشكلون السواد الأعظم في مصر والمغاربة والشيعة من المصريين والأتراك والسودانيين.

ومما يدل على ترف الخلفاء الفاطميين ما بنوه من قصور، ومن أشهرها القصر الشرقي الكبير. وقد أسس العزيز بهذا القصر قاعة الذهب التي يجتمع فيها مجلس الملك وكانت مؤثثة بأفخم الأثاث ومزينة بالستور والطنافس الحريرية.

وكان للأفضل مجلس شراب به ثمانية تماثيل لثمان جوار متقابلات وكان الأفضل إذا دخل من باب هذا المجلس نكسن رؤوسهن إجلالاً له، فإذا ما أخذ مكانه في صدر المجلس استوين قائمات وأهتم الفاطميون بالإحتفال بالأعياد الدينية في شيء كثير من الأبهة والعظمة؛ فمنها عيد الفطر وعيد الأضحى، ورأس السنة الهجرية ومولد النبي ﷺ ومولد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «ع» ومولد ولدي الحسن والحسين «ع» ومولد السيدة فاطمة الزهراء «ع» ويوم عاشوراء هذا بالإضافة إلى مواسم أخرى وهي ليلة أول رجب وليلة نصفه، وليلة أول شعبان، وليلة نصفه.

وكان الشعب المصري يستقبل هذه المواسم بمظاهر الفرح والسرور إلا يوم عاشوراء (يوم العاشر من محرم) فقد كان يعتبر يوم حزن عام، تعطل فيه الأسواق، ويخرج المنشدون إلى الجامع الأزهر ليلقوا الأناشيد في رثاء الحسين «ع» وفي نفس اليوم يقام سماط، يسمى سماط الحزن، في بهو بسيط. وكان يقدم عليه خبز الشعير والعدس والجبن، ويحضره الخليفة ملثماً ومرتدياً الثياب القاتمة.

وكانت تقدم الحلل إلى الوزراء وبعض الأمراء والأشراف وغيرهم في عيد الفطر كذلك كانت توزع النقود الذهبية والفضية والملابس والأطعمة على الأضياف والموظفين على اختلاف درجاتهم.

أما الشعراء والكتاب الذين يحضرون إلى القاهرة في تلك المواسم، فكانوا يمنحون حللاً من الحرير الخالص، بعضها مزركش بالذهب، كذلك كثر الاهتمام بالغناء والموسيقى في العصر الفاطمي بمصر، فأقبل وجوه القوم في مجالسهم الخاصة ومآدبهم على سماع المغنيين والمغنيات، وكان معظم المغنيات من الجواري.

وكانت مجالس الطرب والغناء واللهو تقام على شواطىء الخليج بالقاهرة في أوائل عهد الحاكم بأمر الله الذي لم يلبث أن أصدر ـ فيما بعد ـ قوانين تمنع سماع الموسيقى وتحرم الغناء والملاهي لأنها تشكل خطراً على الأخلاق العامة.

وكانت المجالس الإجتماعية تعقد في قصور الخلفاء والوزراء، والأعيان حيث يجتمع العلماء والأدباء للمناظرة والمناقشة، كما كانت المجالس الخاصة تعقد في داخل المنازل لسماع النوادر والأحاديث التي تتجلى فيها اللباقة العقلية، ولقضاء أوقات فراغهم في لعب الشطرنج والنرد اللذين نقلا إليهم عن الفرس.

أما عن المرأة. فلم يكن لها نشاط يذكر في العصر الفاطمي. وكان نشاط المرأة وقفاً على نساء الخلفاء والأمراء وغيرهن من نساء الطبقة الحاكمة.

ومما يذكر أن زوجة الخليفة المعز كانت تملك ثروة ضخمة أنفقت قسماً كبيراً منها على بناء مسجد القرافة.

والجدير بالملاحظة أن الحاكم بأمر الله عامل النساء بالقسوة والعنف، وأصدر في سنة ٣٩٥هـ ـ ١٠٠٨م قانوناً منع فيه ظهور النساء سافرات وألا يتبعن الجنائز أو يظهرن للناس في حالة منافية للآداب والحشمة.

أما الفصل الرابع فيتناول الحياة الثقافية في العصر الفاطمي وكيف اهتم الخلفاء الفاطميون بإنشاء المراكز الثقافية بمصر، وكيف اهتموا بنشر الثقافة العلمية والأدبية، فضلاً عن الثقافة المذهبية التي تتصل بالمذهب الإسماعيلي.

كما شجعوا العلماء والكتاب وغيرهم من رجال الأدب حتى أصبحت مصر مناراً للعلم والأدب يقصد معاهدها العديد من أعلام المشرق.

إن أهم المراكز الثقافية في العصر الفاطمي الجامع الأزهر الذي بناه جوهر الصقلي في القاهرة سنة ٣٥٩هـ ـ ٩٧٢م كما سبق أن أشرنا ـ لإقامة شعائر المذهب الفاطمي، فقد كان للجامع الأزهر أثر كبير في النهوض بالحياة الثقافية إذ ما لبث أن فاقت شهرته على جميع المساجد الجامعة.

وظل الأزهر مركز الفقه الفاطمي حتى إذا بني جامع الحاكم بأمر الله انتقل إليه الفقهاء لإلقاء دروسهم.

كذلك اتخذ الفاطميون من قصورهم مراكز لنشر الثقافة حتى تميزت مكتبة القصر على غيرها لما في خزائنها من كتب قيمة.

وفي المراكز الثقافية أيضاً بمصر دار الحكمة التي أسسها الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥هـ ـ ١٠٠٨م وقد زود الحاكم هذه الدار بمكتبة عرفت باسم دار العلم، حوت الكثير من الكتب في سائر العلوم والآداب، من فقه ونحو ولغة وكيميا، وطب إذا كان الطلاب يتلقون فيها، إلى جانب علوم آل البيت وفقه الشيعة الكثير من علوم اللغة والفلك والطب والرياضة والفلسفة والمنطق والتنجيم. وقد استطاعت دار الحكمة أن تجتذب إليها كثيراً من أعلام المشرق من أمثال الرحالة الفارسي ناصر خاسرو.

وكان للبيئة العلمية التي شب فيها المعز أثرها في تنمية مداركه وسعة إطلاعه وتضلعه في العلوم الدينية حتى إنه كان يحاضر العلماء ويحاورهم وكان لأبي حنيفة النعمان المغربي وأبنائه وهم جميعاً من كبار رجال القضاء والأدب، الفضل الأكبر في النهضة الأدبية للدعوة الفاطمية بمصر.

واشتهر من المؤرخين في العصر الفاطمي أبو الحسن علي البشاشتي المتوفي سنة ٣٨٨هـ ـ ١٠٠١م. كما نبع من المؤرخين عز الملك المعروف بالمسبَّحي، وكان من جلساء الخليفة الحاكم بأمر الله وخاصته. وقد ألف عدة

كتب منها تاريخه الكبير المعروف بـ «تاريخ مصر» وقد نقل عن هذا الكتاب كل من المقريزي وأبي المحاسن.

وكان ابن الهيثم مصدر حركة فلسفية كبيرة، وخاصة في الطبيعيات والرياضيات. وقد ألف نحو مائتي كتاب في الرياضة والطبيعة والفلسفة واشتهر من الأطباء والفلاسفة أبو الحسن علي بن رضوان وهو مصري المولد من الجيزة، وقد نشأ فقيراً معدماً، وأصبح بفضل جده واجتهاده رئيس الأطباء في البلاط الفاطمي.

والجدير بالملاحظة أن الخلفاء الفاطميين، بتشجيعهم للحركة العلمية والأدبية أوجدوا زخماً من الإنتاج الثقافي الواسع لا يزال موضع تقدير وإجلال.

أما الفضل الخامس فكان ظهور الدرزية في العصر الفاطمي:

لقد كان أنصار الخلفاء الفاطميين يؤيدون دعوى هؤلاء الخلفاء بأن لهم قوة إلهية، ويرجع ذلك إلى أيام عبيد الله المهدي حيث يقول الذهبي: «كانت طائفة تزعم أنه الخالق الرزاق، وطائفة تزعم أنه نبي، وطائفة تزعم أنه النبي حقيقة»[1].

وإذا كان الخلفاء الفاطميون لم يجرؤا على إعلان هذه الاعتقادات وأمثالها إلا أن الحاكم بأمر الله وعلى الرغم من حالة العداء التي كانت تملأ الناس من سياسته الخرقاء، استطاع أن يدعي الألوهية. فابتدأت الدعوة التي تقول بأن الله تجسم فيه. وهذا ما يتبين لنا جلياً وواضحاً في مخطوط القاهرة الذي عنوانه «رسائل الحاكم بأمر الله»، نرى أن الحاكم إدعى أن له طبيعة إلهية، بعد أن كان بشراً كسائر الناس[2].

---

(١) الذهبي، الحافظ شمس الدين: تاريخ الإسلام، مخطوط في دار الكتب المصرية بالقاهرة، رقم ٤٢ ورقة ٤٤.

(٢) رسائل الحاكم بأمر الله، كتبها كثير من دعاة الفاطميين في سنة ٤٠٨هـ ـ ١٠١٨م. وهي مخطوطة بالمكتبة الملكية بالقاهرة تحت رقم ٢٠ ورقة ٦١.

ومن المحتمل كثيراً أن يكون ما ظهر به الحاكم أخيراً هو نتيجة تعاليم الدرزي للعقائد الفاطمية في أشد درجاتها غلواً وكان لما فعله الحاكم اسوء الأثر، حتى لقد أرغم من لم يصدع بقوله على دفع الجزية.

على أن سياسة الحاكم هذه وإن كانت قد أثارت سخط المصريين إلا أنها ساهمت في ظهور الطائفة الدرزية التي لعبت ولم تزل دوراً هاماً في تاريخ الشرق العربي.

والله ولي التوفيق

الدكتور عرب حسين دعكور

الباب الأول

الفصل الأول

قيام الدولة الفاطمية

أولاً ـ الدعوة الإسماعيلية إلى قيام الدولة الفاطمية:

مات النبي محمد عليه السلام تاركاً مسألة الخلافة دون أن يبت في أمرها ليكون الأمر شورى للمسلمين ويختاروا من أحبوا، فكان من جراء ذلك أن حل الانقسام بدل الوئام بعد امتناع الكثير من علية القوم عن مبايعة أبي بكر، كطلحة والزبير، وهم من السابقين إلى الإسلام[1] الذين اتحدوا مع علي بن أبي طالب. ثم ما كان من عدم الاستجابة لطلب فاطمة باستيلائها على ميراث أبيها[2].

كل هذه الأمور آذنت ببروز طائفة يطلق عليها اسم الشيعة، أو العلويين، أو أهل البيت، اعتقدت أنها وحدها أحق بالخلافة، وأن أبا بكر وعمر وعثمان وخلفاء بني أمية وبني العباس انتزعوا الإمامة من علي.

ولم يكن أحفاد الحسن والحسين بن علي بن أبي طالب على وفاق تام فقد أخذ كل فريق يعمل في الخفاء ليمهد السبيل لأبنائه من بعده للوصول إلى الخلافة، واستطاع جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين ابن

(١) ابن هشام: سيرة ابن هشام، طبعة وستنفلد، ج ٢ ص ١٠١٣.

(٢) الخوارزمي: رسائل الخوارزمي القسطنطينية سنة ١٢٩٧هـ ص ٣٠.

الحسين بحسن سياسته أن يقنع بعض العلويين من أحفاد الحسن بن علي الذين التفوا حوله بعد أن بدد العباسيون شملهم أنه الوارث الحقيقي لعلي وفاطمة.

وهكذا انحصرت زعامة العلويين في جعفر الصادق وهو الإمام السادس عند طائفة الإمامية التي كانت تعتقد أن الأمامة يجب أن تكون في سلالة علي عن طريق ابنه الحسين، وأنها لا تنتقل من أخ إلى أخ بعد أن انتقلت من الحسن إلى الحسين، وإنما إلى أكبر الأبناء[1].

بيد أن خروج بعض الإمامية على هذه التعاليم بعد موت جعفر الصادق سنة ١٤٨هـ ـ ٧٦٩م أدى إلى انقسام هذه الطائفة إلى قسمين:

أولاً ـ الإمامة الإسماعيلية: قالوا بإمامة إسماعيل بن جعفر، وكان أكبر أولاد أبيه. ولما توفي إسماعيل في حياة أبيه سنة ١٤٥هـ ـ ٧٦٤م رأى أتباعه أن الإمامة يجب أن تنتقل بعد وفاة جعفر الصادق إلى حفيده محمد بن إسماعيل، وهو عندهم الإمام السابع ومن ثم أطلق عليهم السبعية لتمييزهم عن الاثنا عشرية.

ثانياً ـ الإمامية الموسوية: وقالوا بإمامة موسى الكاظم الابن الأصغر لجعفر الصادق، وهو عندهم الإمام السابع، وبعده تنتقل إلى ابنه علي الرضا، ثم إلى أعقابه من بعده حتى الثاني عشر من أئمتهم وهو محمد المنتظر بن الحسن العسكري بن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا. وعرفت هذه الطائفةُ باسم الإمامية الاثنا عشرية لانتظارهم إمامهم الثاني عشر، ويقال إن محمداً دخل سرداباً في مدينة سامرا سنة ٢٦٥هـ ـ ٨٨١م وأمه تنظر إليه، ولكنه لم يعد، ولم يقف له أتباعه على أثر من ذلك الحين، ولا يزال أنصاره ينتظرونه إلى اليوم، ويعتقدون أنه سيظهر ويملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، ومن ثم

---

(١) النوبختي، أبو محمد الحسن: كتاب فرق الشيعة. استنابول ١٦٤ ـ ١٦٦ ـ ١٩٣٢ ص ١٩ ـ ٤٩ ـ ٥٠ ـ ٥١.

سمي الإمام المنتظر، وصاحب الزمان ـ والقائم بأمر اللّه والحجة[١].

كان من أثر تضييق الخلفاء العباسيين الخناق على الشيعة أن عمد أئمة الإسماعيلية إلى نشر دعوتهم في الخفاء، وفي بلاد بعيدة عن مركز الدولة العباسية، ليدرأوا عن أنفسهم الأخطار المحدقة بهم، فرحل محمد بن إسماعيل إلى الري، ومنها إلى جبل دماوند [*] حيث استقر في قرية سملا التي سميت فيما بعد محمد أباد نسبة إليه. وسار أبناؤه على منواله، فاختفوا في خراسان، وفي إقليم قندهار، وفي السند، وأخذ دعاتهم يجوبون البلاد لجذب الأشياع إليهم[٢].

ثم اتخذوا من مدينة سلمية من أعمال حمص ببلاد الشام مركزاً لنشر هذه الدعوة حيث كانوا يعهدون في تنظيمها إلى أشخاص كبار يطلق عليهم اسم نواب الأئمة أو الحجج[٣]. وهؤلاء بدورهم يرسلون الدعاة إلى كافة الأقطار الإسلامية.

ومن أشهر نواب الأئمة الذين تصدوا لنشر هذا المذهب هو ميمون القداح الذي وضع دعامة المذهب الإسماعيلي، حتى اعتقد بعض المؤرخين أنه هو محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق نفسه[٤]. ويقول البعض الآخر أنه كان شعوبياً يسعى إلى مقاومة الإسلام وإعادة النفوذ إلى الفرس. وقد اتخذ من تطبيب العيون وسيلة لإخفاء أغراضه الأصلية، وهي نشر المذهب الإسماعيلي. ولما توفي محمد بن إسماعيل خلفه في الإمامة عبد الله الرضى الذي اتخذ عبد الله بن ميمون القداح داعية له. فسار هذا الأخير على سياسة والده.

---

(١) حسن ابراهيم حسن: الدولة الفاطمية ـ القاهرة، طبعة التأليف الترجمة ١٩٦٤ ص ٣٥.

(*) أعلى قمة في جبال البرز (ايران) نحو ٦٣٠٠م.

(٢) رشيد الدين: جامع التواريخ. . ١٩٨٠ ص ٥٢٢.

(٣) Jou Yar: fragments relatifs a la doctrine des tsmaelie, paris, 1874, PP-188-189

(٤) المقريزي: خطط. . ج ٢ ص ٣٤٨.

وقد وصف المقريزي عبد الله فقال: «إنه كان عالماً بجميع الشرائع والسنن والمذاهب، وأنه اعتنق مذهب الشيعة، لا للدعوة إلى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق أو ابنه محمد، بل كان ذلك وسيلة اتخذها لتنفيذ أغراضه، وهي تكوين دولة فارسية. ويعتبر عبد الله المؤسس الحقيقي للمذهب الإسماعيلي الذي انتشر بين القرامطة وغيرهم.

اتخذ عبد الله الأهواز مركزاً لنشر دعوته، ولكنه ما لبث أن غادرها مع ابنه أحمد ولي عهده بعد مطاردة واليها له. وقد عزا المقريزي هرب عبد الله إلى ما ظهر منه من التعطيل والإباحية والمكر والخديعة، فثارت به الشيعة والمعتزلة، فكبسوا داره، ففر إلى البصرة»[1]. وأقام في أسرة عقيل بن أبي طالب، مدعياً انتماءه إليهم، فحامت حوله الشبهات، فرحل إلى السلمية التي لم تلبث أن أصبحت دار هجرة للأئمة الإسماعيلية.

ومن هناك بدأ تثبيت دعائم الإسماعيلية وتنظيمها، فعين ابنه الحسين لرئاسة الدعوة بها، كما عين ابنه أحمد أبا الشلعلع لرئاسة الدعوة في بعض مدن العراق، وخاصة الكوفة وبغداد، وعين أحد أولاده لرئاسة الدعوة في فارس. ولكن الحسين ما لبث أن مات، فعهد عبد الله إلى ابنه أحمد أبي الشلعلع برئاسة الدعوة في سلمية والعراق. ومن ثم انتقلت إليه رئاسة الدعوة بعد موت أبيه ٢٧٤هـ ـ ٨٩٠م، وأصبح وصياً على سعيد أول الخلفاء الفاطميين[2].

سعى الإمام أحمد بن عبد الله إلى توسيع رقعة انتشار الدعوة الإسماعيلية في كثير من أرجاء العالم الإسلامي فبعث علي بن فضل اليمني وأبي القاسم رستم بن الحسين بن فرج بن حوشب الكوفي إلى بلاد اليمن لنشر الدعوة فيها، فنجحا في ذلك نجاحاً كبيراً، وبنى ابن حوشب حصناً بجبل لاعة (جنوب

---

(١) المقريزي: إتعاظ الحنفاء.. ص ١٢.

(٢) المقريزي: خطط.. ج ١ ص ٣٤٨، النويري: نهاية الأدب، مخطوط ج ٢٦ ص ٢٤.

صنعاء)، وأعد جيشاً زحف به إلى صنعاء وأخرج منها بني يعفر، وتمكن بمعاونة دعاته من التغلب على كثير من أرجاء اليمن[١]. ثم بعث ابن حوشب الدعاة إلى اليمامة وعمان والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب[٢]. وكان مبعوثاه إلى المغرب أبا سفيان والحلواني، وقد نصحهما بأن يبتعد كل منهما عن الآخر، يمهدا بعملهما لظهور المهدي ودولته.

وكان الإمام أحمد يحرص على نشر دعوته في بلاد المغرب، فأرسل أبا عبد الله الشيعي إلى اليمن لتلقي أصول الدعوة عن ابن حوشب قبل رحيله إلى بلاد المغرب، فقدم أبو عبد الله على بن حوشب وصار من كبار أصحابه، وأقام باليمن عاماً واحداً[٣].

ولما اتصل بابن حوشب نبأ موت أبي سفيان والحلواني بالمغرب، عهد إلى أبي عبد الله الشيعي[*] القيام بالدعوة إلى المذهب الإسماعيلي في المغرب وقال له: «أن أرض كتامة [*] من بلاد المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان، وقد ماتا وليس لها غيرك، فبادر فإنها موطأة ممهدة لك»[٤].

غادر أبو عبد الله اليمن قاصداً مكة، بعد أن زوده ابن حوشب بما احتاج إليه من المال، فوصلها في موسم الحج سنة ٢٧٩هـ، وسأل عن حجاج كتامة واجتمع بهم، فسمعهم يتحدثون عن فضائل آل البيت، ولما رأوا من رجاحة

---

(١) جمال الدين سرور، محمد: النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ص ٦٢ ـ ٦٣.

(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر. ج ٤ ص ٣١.

(٣) حسن إبراهيم: كتاب عبيد الله المهدي. ص ٧٦.

(*) هو الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا، من أهل صنعاء باليمن، ولذلك لقب الصنعاني. وكان أبو عبد الله يعتنق أول الأمر.

(*) بنو كتامة هي قبائل من البربر كانت تسكن في المغرب (الجزائر اليوم) ناصروا الفاطميين في القضاء على دولة الأغالبة في المغرب في القرن العاشر الميلادي. اعتنقوا مذهب الشيعة الذي نشره بينهم الداعي أبو عبد الله ـ المنجد ص ٤٣٣.

(٤) المقريزي: اتعاظ الحنفاء ص ٧٤ ـ ٧٥.

عقله ورحابة صدره، سألوه أن يأذن لهم في زيارته، فأجابهم إلى ذلك. فأخذوا يترددون عليه وسألوه أين يقصد بعد الحج، فقال إنه يريد مصر، فسروا بصحبته ورحلوا جميعاً من مكة وهو يخفي عنهم أغراضه، وما لبثوا أن تعلقوا به لما شهدوه من ورعه وزهده.

وقد استطاع أبو عبد الله بما جُبل عليه من مكر وضروب الحيل أن يقف على جميع أحوال حجاج كتامة، فلما وصلوا إلى مصر أخذ يودعهم، فشق عليهم فراقه وسألوه عن حاجته بمصر، فقال إنه يريد طلب العلم، فقالوا له: «فأما إذا كنت تقصد هذا، فإن بلادنا أنفع لك وأطوع لأمرك، ونحن أعرف بحقك»[1] وما زالوا به حتى أجابهم إلى المسير بصحبتهم. ولما أصبحوا على مقربة من بلادهم كتامة، خرج إلى لقائهم أصحابهم الذين انتشرت بينهم تعاليم الشيعة على يد دعاة الإسماعيلية من قبل. حيث كان الإمام إدريس بن عبد الله الذي فر من أيدي العباسيين بعد موقعة فخ [*] في عهد الخليفة الهادي سنة ١٦٩هـ ـ ٧٨٨م، قد أسس في المغرب الأقصى دولة علوية سنة (١٧٢هـ ـ ٧٩١م)، عرفت بدولة الأدارسة التف حولها البربر فأعطوها من الزخم والقوة ما جعل الدولة العباسية تخشاها وتعمل على استئصالها. وكان من أثر ذلك أن أقطع هارون الرشيد إبراهيم ابن الأغلب بلاد إفريقية (تونس) سنة ١٨٤هـ ليقف في وجه الأدارسة الذين جعلوا بلاد المغرب أرضاً صالحة للدعوة الإسماعيلية، وكان ذلك مما سهل على كل من الداعين أبي سفيان والحلواني نشر الدعوة للمهدي من آل البيت.

أكرم أهالي كتامة وفادة عبد الله الشيعي وأحلوه من أنفسهم محل الإجلال

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفاء ص ٧٥.

(*) الفخ: واديا بالقرب من مكة قتل فيه العباسيون الحسين بن علي بن الحسن مع الكثير من العلويين في ذو الحجة ١٦٩ وكانوا يحتفلون أهل البيت بذكرى يوم الفخ كما كانوا يحيون ذكرى كربلاء ـ المنجد ص ٣٨٢.

والإكرام وسعى كل واحد منهم على إنزاله في بيته إلا أنه رفض بلياقة وسألهم عن فج[1] الأخيار فدلوه عليه. فقصده وسار إلى جبل إيكجان فنزل فيه. وهنا قال لهم: «هذا فج[2] الأخيار وما سمي إلا بكم، ولقد جاء في الآثار للمهدي هجرة ينبو عن الأوطان، ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان قوم اسمهم مشتق من الكتمان ولخروجكم في هذا الفج، سمي فج الأخيار»[3].

ولم يلبث أبو عبد الله أن كشف عن نواياه لرجال كتامة، فقال لهم: «أنا صاحب البذر الذي أخبر به أبو سفيان والحلواني»[4]. فازدادت محبتهم له، وعظم أمره فيهم، وأتته البربر من كل مكان[5]. وعلى الرغم من مساعدة الكتاميين وغيرهم من القبائل المجاورة، كان مركز أبي عبد الله محفوفاً بكثير من المصاعب. فقد أثارت مساعدة هؤلاء لدعوته غيره الكثيرين من زعماء المغاربة وفقهائهم الذين عجزوا أن ينالوا منه لما أوتيه من الفصاحة والعلم والذكاء، كما تمكن من القضاء على المؤامرات التي حاكها البربر لإعاقة نشر دعوته، فتكاثر الداخلون في طاعته رغبة أو رهبة، وتوافرت جموعه، وقوى أمره[6]. «واستقام له أمر البربر وعامة كتامة»[7]. لم يكتف أبو عبد الله الشيعي بنشر الدعوة للفاطميين في بلاد المغرب، بل أخذ يعمل منذ سنة ٢٨٩هـ ـ ٩٠٥م على بسط

(١) (٢) إن فج الأخيار يقع في جبل ايكجان من أرض كتامة على مقربة من مدينة قسطنطينة، تعرف بمناعتها، يسكنها قبائل من كتامة، وكانت بها أسواق عظيمة، وكانت كبيرة آهلة وفيه أقام أبو عبد الله الشيعي وسماه دار الهجرة.

(٣) إن فج الأخيار يقع في جبل ايكجان من أرض كتامة على مقربة من مدينة قسطنطينة، تعرف بمناعتها، يسكنها قبائل من كتامة، وكانت بها أسواق عظيمة، وكانت كبيرة آهلة وفيه أقام أبو عبد الله الشيعي وسماه دار الهجرة.

(٤) ذكر ابن الثير والمقريزي أن عبد الله جعفر الصادق بعث الداعيين (الحلواني وأبا سفيان سنة ١٤٥هـ، وقال لهما: «إن المغرب أرض بور فاذهبا فاحرثا حتى يجيء صاحب البذر». ـ ابن الأثير ـ الكامل ج ٨ ص ١١ ـ والمقريزي: اتعاظ الحنفاء ص ٢١.

(٥) المقريزي: اتعاظ الحنفاء ص ٧٦ ـ ٧٧.

(٦) يحي بن سعيد: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ٢٠٨.

(٧) المنصوري، ركن الدين: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة. مخطوط ج ٥ ورقة ١٥٥.

نفوذهم في شمال إفريقية، فوقعت في يده عدة مدن. وكان مما ساعد على تقدمه في الفتوح موت إبراهيم بن الأغلب سنة ٢٩١هـ ـ ٩٠٧م، ولحاق ابنه أبي العباس به، وتولية ولده زيادة الله الذي انصرف إلى اللهو والترف بينما كان وزراؤه يعملون على نجاح المذهب الشيعي الذي اعتنقه معظم أهالي البلاد. ولم تنقطع الحرب بين قوات كل من أبي عبد الله الشيعي وزيادة الله الثالث حتى سنة ٢٩٦هـ ـ ٩١٢م حيث دارت معركة الأربس [*] التي أدت إلى زوال دولة الأغالبة بأفريقية، وامتد نفوذ الفاطميين في ذلك الوقت إلى أكثر أجزاء بلاد المغرب حتى أصبحوا أصحاب السلطان المطلق في جميع الجهات الواقعة إلى الغرب من مدينة القيروان[١].

بعد هذه الانتصارات اتبع أبو عبد الله الشيعي سياسة تنطوي على الحكمة وبعد النظر وإقرار العدل بين الناس[٢]. وليس أدل على ذلك من الحديث الذي دار بينه وبين أخيه أبي العباس عندما أراد هذا الأخير أن ينشر المذهب الإسماعيلي بين الناس عن طريق العنف والإكراه، فمنعه أبو عبد الله. يقول النويري: «ولما وصل أبو العباس، أراد أن ينفي عن القيران من يخالف مذهبه. فقال أبو عبد الله، أن دولتنا حجة بيان، وليست دولة قوة واستطالة، فاترك الناس على مذهبهم»[٣].

كان دعاة الإسماعيلية في المغرب يرجون قدوم المهدي إليهم لإقامة دولتهم المنشودة، ولذا أنفذ زعيمهم أبو عبد الله الشيعي إلى عبيد الله المهدي ـ

(*) سميت فيما بعد باب المهدية.

(١) حسن ابراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٠ ـ ٥١.

(٢) أورد ابن عذارى في كتابه المغرب في أخبار المغب الجزء الأول أن أبا عبد الله عندما استولى على مدينة طنبة في سنة ٢٩٣هـ أتاه والي المدينة مع بعض الجباة وأعطوه الأموال التي جمعوها من الأهالي عن ضرينة العشور فقال لهم أبو عبد الله العشور تجمع جنوب وهذا عين. فليرد إلى كل رجل ما أخذ منه. البيان المغرب في أخيار المغرب ج ١ ص ١٣٦ ـ ١٣٧.

(٣) النويري: نهاية الأدب. . . مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٦ ورقة ٢١.

الموجود في سلمية من أعمال حمص ـ وفداً من رجال كتامة يدعوه للقدوم إلى بلاد المغرب[١].

رحب عبيد الله بهذه الدعوة التي انتشرت بين الخاص والعام، حتى وصلت إلى الخليفة العباسي المكتفي، فأصدر أمره إلى ولاة مصر وشمال إفريقية بتعقب حركاته والقبض عليه[٢]. ولكن جميع الجهود العباسية ذهبت سدى فقد استطاع أبو عبيد الله الخروج من سلمية والوصول إلى سجلماسة [*].

والسؤال: كيف أتيح لعبيد الله المهدي أن يتجنب القبض عليه رغم التدابير العباسية المشددة؟. وعلى هذا أورد ابن الأثير بياناً في هذه المسألة، فقال: «إن عبيد الله لما رحل عن سلمية حمل معه مالاً عظيماً استطاع أن يرشو به الولاة في طريقه إلى سجلماسة ويأمن الوقوع في أيديهم»[٣].

ويقول عريب بن سعد أن والي مصر محمد بن سليمان قبض على عبيد الله المهدي وأخذ منه مالاً فأطلقه[٤].

إذا ما أخذنا بصحة ما أورده غريب بن سعد وابن الأثير اتضح لنا كيف استطاع عبيد الله المهدي أن يأمن القبض عليه في مصر، وفي طرابلس.

---

(١) كانت بلاد المغرب وقتذاك تشمل عدة دول وإمارات وهي دولة الأغالبة في إفريقية (تونس) ودولة الأدارسة في المغرب الأقصى، وإمارة بني مدرار في سلجماسة. وإمارة بني رستم في تاهرت بالمغرب الأوسط. زامبارو: معجم الأنسات والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ج ١ ص ١٠٠ ـ ١٠٢.

(٢) القرطبي، غريب بن سعد: صلة تاريخ الطبري ـ القاهرة ١٣٠٢هـ، ص ٥١ ـ ٥٢.

(*) مدينة في المغرب الأقصى، على حدود الصحراء ـ كانت محطة للنخاسة ولتجارة الذهب والعاج ولتجارة الذهب والعاج والأبنوس والجلود. تبعد عن القيروان بستة وأربعين فرسخاً ـ وكان بناؤها سنة ١٤٠هـ، وفي سنة ١٦٠هـ اتخذها بنو مدرار حاضرة لملكهم. المنجد في اللغة والأدب والعلوم... ص ٢٤٩، وانظر البكري: أبو عبيد: كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية.. ص ١٤٨ ـ ١٤٩.

(٣) إبن الأثير: الكامل في التاريخ.. ج ٨ ص ١٣ ـ ١٤.

(٤) عريب بن سعد: المصدر السابق.. ص ٥٢.

أما في سجلماسة وهي مدينة في المغرب الأقصى فقد استطاع عبيد الله في بداية الأمر أن يبقى طليقاً بسبب إغداقه الأموال على واليها اليسع بن مدرار، إلا أن معاملة هذا الأخير لعبيد الله ما لبثت أن تغيرت فقبض عليه وزجه هو وأتباعه في السجن. ويمكننا أن نرجع موقف الوالي اليسع إلى عدة أسباب منها:

أولاً ـ أن الرشوة لا تجدي مع هذا الوالي بحكم مركزه وما لصفة الإمارة في نفسه من هيبة وحرمه.

ثانياً ـ أن والي سجلماسة كان سنياً يكره الشيعة.

ثالثاً ـ أن انتصار بني عبد الله الشيعي على الأغالبة سنة ٢٩٦هـ ـ ٩١٢م أزعج والي سجلماسة مما سوف يتطور إليه الحال بعد ذلك.

ظل عبيد الله بسجلماسة، وأبو عبد الله الشيعي يمد نفوذه على معظم أرجاء المغرب عن طريق الحرب والفتح، فدخل رقاده مقر إمارة الأغالبة، وحذف اسم الخليفة العباسي من الخطبة. ثم سار في قوة كبيرة إلى سجلماسة لإطلاق عبيد الله من سجنه، ولما علم اليسع بن مدرار بوصول أبي عبد الله الشيعي ترك المدينة وهرب ليلاً فأطلق داعي الفاطميين سراح عبيد الله وابنه أبي القاسم(١).

بعد إطلاق عبيد الله المهدي من سجنه بسجلماسة في ٧ رجب سنة ٢٩٦هـ ـ ٩١٢م أخذت له البيعة، وتلا ذلك بتقليد أبي عبد الله الشيعي سيفاً ومنحه خلعة خاصة للدلالة على مكانته، وأخذ أبو عبد الله يقدم إلى عبيد الله أتباعه وأنصاره، ثم رحل عبيد الله عن سجلماسة قاصداً إفريقية في حفل كبير من العساكر يرافقه أبو عبد الله الشيعي ورؤساء كتامة. ولما اقترب من رقادة تلقاه أهلها وأهل القيروان بالترحاب، ثم نزل بقصر من قصور رقادة واتخذها حاضرة له في شهر ربيع الآخر سنة ٢٩٧هـ ـ ٩١٣م وأمر بذكر اسمه في الخطبة

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفاء.. ص ٧٨ ـ ٩٠.

من منابر البلاد وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين[١]. وبذلك قامت الدولة الفاطمية في شمال إفريقيا الذي خرج عن سلطان العباسيين.

بعد هذا العرض السريع لقيام الدولة الفاطمية في المغرب. لا بد من السؤال عن العوامل التي ساعدت على نجاح الدعوة الشيعية في شمال إفريقية.

عوامل نجاح الدعوة الشيعية في المغرب:

كان التشيع في بلاد المغرب قد انتشر على يد الإمام إدريس بن عبد الله ابن الحسن بن علي بن أبي طالب الذي أسس أول سلطانٍ من العلويين. بعد إثارة شعور شمالي إفريقية على حكم العباسيين، وأقام دولة الأدارسة في الطرف الشمالي الغربي ـ المغرب الأقصى ـ سنة ١٧٢هـ ـ ٧٩١م. التف حولها البربر ـ كما ذكرنا سابقاً ـ وحذا حذوهم ذوو قرباهم من الزيدية في بلاد اليمن.

أضف إلى ذلك أن شمالي إفريقية (تونس) التي أقطعها هارون الرشيد إبراهيم بن الأغلب ليقف في وجه الأدارسة، قد استقلت استقلالاً فعلياً ولم تكن خاضعة للعباسيين إلا في الإسم فقط، بحيث لم يعد الخليفة قادراً على التدخل في أمور الولاية، مكتفياً بذكر اسمه في الخطبة ونقشه على السكة. هذان المظهران يؤكدان ما وصلت إليه الدولة العباسية من ضعف وانحلال وفقدان هيبة نتيجة لاستئثار الموالي من الأتراك بالسلطة دون الخليفة، وأصبح في يدهم تولية هذا الأخير وعزله وقتله، وبدأت المؤامرات تحاك من كل حدب وصوب، وأضرم الزنج نار الثورة التي دامت زهاء أربع عشرة سنة ٢٥٥هـ ـ ٢٧٠هـ ٨٧١ ـ ٨٨٢م عرضوا فيها كيان الدولة للخطر، كما أصبحت دلتا الفرات تحت رحمة العصابات من قطاع الطرق الذين أدخلوا الفزع والهلع في قلوب الأهلين، وتعدى بلاؤهم إلى محاصرة المدن الكبرى كالبصرة،

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا. . . ص ٩٢.

والأهواز، وواسط. هذه الحالة تكشف لنا عن الضعف الذي وصلت إليه السلطة المركزية في بغداد ثم في سامرا (٨٣٧هـ ـ ٨٩٥م)، هذه السلطة التي عجزت حتى عن الدفاع عن الولايات المتاخمة لحاضرة الدولة من هذا يتضح لنا السهولة التي أقام بها الفاطميون دولتهم في إحدى ولايات الدولة البعيدة عن بغداد.

يضاف إلى ذلك هناك عوامل محلية اتسمت بها بلاد المغرب منها طبيعة البلاد التي يعيش فيها البربر فهي تتكون من مناطق جرداء مجدبة تفتقد إلى أدنى متطلبات الحياة البدوية وهذا ما جعلها تعيش في عالم خاص بها بعيدة عن أي تقدم ورقي. اللهم إلا إذا استثنينا هذا السهل الضيق الذي يتاخم البحر الأبيض المتوسط ومعظم سكانه من بقايا أصول مختلفة: من فينيقيين وقرطاجيين وإغريق ورومان، إلى وندال وعرب. فقد ساعد قرب هذا الجزء من الساحل الأوروبي سكانه على اقتباس شيء من رقي الأمم المجاورة.

أما من الناحية الاجتماعية فقد اشتهر البربر بحبهم للقتال، وتحملهم لشظف العيش، وعدم إخلادهم للنظام. هذه الصفات كانت كافية في إثارة شعورهم ودفعهم للمخاطرة بأرواحهم إذا ما عرض لهم باعث يحرك في نفوسهم ما جبلوا عليه من أقدام على المخاطر وركوب متن الأهوال. كل ذلك ساعد أبا عبد الله الشيعي من الوصول إلى أغراضه من إثارة حميتهم وإعجابهم بآل علي والمهدي(١).

يضاف إلى ذلك أن الصراع بين العرب والبربر كان على أشده، فلم تتوطد أركان السلام بينهم. ولا ريب في أن البربر كانوا دون العرب حضارة وثقافة، وقد نظروا إلى العرب نظرهم إلى الغاصب، وزاد اشتعال نار العصبية هذا العداء، فرفضوا الأخذ بأهداف الحضارة الإسلامية التي أوجدها العرب في صدر الإسلام معتبرين أن التأثر بالحضارة العربية يعني قبولاً لحضارة الفاتحين.

ولا شك في أن أكبر العوامل التي وقفت في سبيل استتباب الأمن في

---

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية.. ص ٤٤.

المغرب إنما ترجع إلى العاطفة الوطنية التي هي من أخص صفات البربر منذ بدء ظهورهم في عالم التاريخ. والتي أخذت تتجلى شيئاً فشيئاً في الأحقاب المتابعة.

وليست فداحة الضرائب التي فرضها العرب والتي أثقلت كاهل الأهلين بأقل أهمية مما تقدم. ولم يكن قيام الخوارج من البربر في وجه الولاة خروجاً على الدين، بل كان خروجاً على السلطة الحاكمة لاستبدادها واستغلالها، فهي لم تحفظ لهم أي جميل ثمناً لما قاموا به من تضحيات في حربهم إلى جانب العرب، ولم يجدوا في ولاتهم ما يحببهم إليهم. فقد كانوا يعاملونهم معاملة السيد للمسود، لا معاملة الند للند، ولم تنفع شكواهم التي رفعوها إلى الدولة العباسية في بغداد، لأن الخليفة لم يعرهم آذاناً صاغية، لما حل به وبدولته من ضعف ووهن.

كل ذلك أعد البربر لقبول المذهب الشيعي وانضمامهم للداعية أبا عبد الله. وفي هذا الصدد يقول المؤرخ نيكلسون: «كان من السهل تحريض البربر على محاربة السلطة الحاكمة التي كانت بنظرهم دولة مغتصبة لوطنهم»[١].

وهكذا فأن بعد بلاد المغرب عن حاضر السلطة العسكرية العباسية في بغداد، وتدهور الحالة السياسية في شمالي إفريقية بشكل عام والتي تمثلت بكراهية البربر للحاكمين ومنازعتهم تارة بالاحتجاج وتارة بالسيف. وما أبداه دعاة الشيعة من أمثال الحلواني وأبي سفيان[٢]. كل هذه العوامل مجتمعة كانت فرصة سانحة انتهزها الفاطميون لتأسيس دولتهم في بلاد المغرب.

---

(١) Nicholeon (z): The Estaflishment of the fatimite - synatry in Africa, p 26.

(٢) في سنة ١٤٥هـ على وجه التحديد وفي فجأة الاضطراب والصراع بين الخوارج وولاة بني العباس أرسل أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الداعيين (الحلواني وأبا سفيان) إلى المغرب وقال لهما: «إن المغرب أرض بور، فاذهبا فاحرثا حتى يجيء صاحب البذر».
- ابن الأثير ـ الكامل.. ج ٨ ص ١١.
- المقريزي: اتعاظ الحنفا.. ص ٢١.

وقد استطاع هذان الداعيان أن ينجحا على أكمل وجه وهذا ما عبر عنه ابن حوشب عندما عهد إلى أبي عبد الله الشيعي القيام بالدعوة إلى هذا المذهب بعدما علم بموت أبي سفيان: =

إن لفظ الفاطميين الذي عرف بها أولاد عبيد الله المهدي، تعني أنهم من نسل فاطمة بنت النبي محمد ﷺ. على أن صحة هذا النسب طعن فيه الكثير من المؤرخين، مما جعل هذه المسألة من أعقد مسائل تاريخ الشرق وأكثرها غموضاً وإبهاماً، وإن جميع الباحثين المحدثين لم يهتدوا إلى رأي قاطع في هذه المسألة ولعل تبرير ذلك يعود إلى سببين:

السبب الأول: أن جميع أئمة الفاطميين كانوا ـ لأسباب ذكرناها سابقاً ـ يحتجبون حتى عن حاشيتهم وأشد المتصلين بهم وربما لبس الإمام ثوب داعية أو الداعي ثوب إمامه. وربما احتجب إمام مستقر بإمام مستودع كما حصل ذلك للمهدي وسعيد الخير.

السبب الثاني: أن بعد الزمن، وما ساد العقول من أوهام توافق الترهات السياسية والميول الدينية، وما أدلى به المؤرخون من أدلة متناقضة متضاربة محبة لهذا الصديق أو كرهاً لذلك الخصم جعلت جميع الأقوال متباينة بعيدة عن الحقيقة.

ولهذين السببين جاءت جميع الدراسات ـ حتى المعمقة ـ في هذا الموضوع ناقصة ومبتورة ولم تسفر عن نتيجة حاسمة.

آراء المشككين في صحة النسب:

يقول الشريف أخو محسن(*) أن عبيد الله المهدي ينتسب إلى ميمون

= «أن أرض كتامة من بلاد المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان، وقد ماتا، وليس لها غيرك، فبادرها فإنها موطأة ممهدة لك».

ـ المقريزي: اتعاظ الحنفا. ص ٧٤ ـ ٧٥.

(*) هو محمد بن علي بن الحسين بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق.

القداح بن ديصان الثنوي الأهوزي، اليهودي المجوسي الأصل يؤمن بوجود إلهين: إله الخير وإله الظلمة.

وقد خلف القداح ابنه عبد الله، الذي قال عنه المقريزي: «أنه كان عالماً بجميع الشرائع والسنن والمذاهب. اعتنق مذاهب الشيعة، لا للدعوة إلى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق، أو إلى ابنه محمد، بل لحيلة اتخذها ليجمع حوله أتباعاً بمعنى أنه اتخذ من هذه الدعوة وسيلة لتنفيذ أغراضه وهي تكوين دولة فارسية[1].

أما دي غويه De Goeje فاعتبر أن ابن ميمون هو مؤسس مذهب القرامطة وجد الخلفاء الفاطميين حيث قال: «كانت لهذه الجرثومة الصغيرة القوية قوة هائلة، هي أن حزباً (. . . . . . .) الذكر عند ظهوره يصبح بعد قليل أسرة حاكمة، وينتهي بفتح كافة أرجاء بلاد الخلافة العباسية في الغرب. . . وفي منتصف القرن الثالث للهجرة قام عبد الله ابن ميمون القداح بنشر تعاليم هذا المذهب. . .»[2].

ويقول نيكلسون: «أن تأسيس الدولة الفاطمية كان أقصى ما وصلت إليه هذه المؤامرة القوية الدعائم، التي تم تنظيمها بمهارة فائقة، والتي شرع عبد الله بن ميمون القداح الأهوازي المجوسي الفارسي الأصل يروج لها قبل ذلك بنصف قرن، وقد تملكت نفسه الكراهية في أبشع صورها للعرب، والاحتقار للإسلام والمسلمين، مدفوعاً إلى ذلك بما يدعيه من حرية الفكر والعقيدة. وقد عمل على إيجاد جمعية سرية كبيرة تلقن الناس جميعها مبادئها كل واحد على قدر عقله واستعداده، وتعبث بأشد الميول وأقوالها وتقرر بكافة عوامل الضعف الكامنة في الطبيعة البشرية، للجمع بين الساخطين في صورة مؤامرة ترمي إلى قلب النظام الحاضر[3].

---

(١) المقريزي: خطط. . ج ١ ص ٣٤٨.

(٢) De Goeje: Memoires sur Les Carmathes du Bahilaim et les Fatimides, leyden, 1886 pp 2 - 3.

(٣) Nicholson, titerary, History of the Arabs, pp 271 - 272.

أن الباحث في آراء المؤرخين الذين ذكرناهم يجد أن جميعهم استقوا معلوماتهم عن كتاب الشذرات الهامة التي كتبها الشريف أخو محسن. وأن ما أضافوه من نقد أو تعليل لم يتعد زيادة عبارات نقلوها عمَّن تقدمهم من الكتاب الذين تصدوا لبحث هذا الموضوع. ولم تختلف الروايات التي كتبها كل من أبي بكر الباقلاني، وابن خلكان، وابن واصل والذهبي عمن سبقهم في الطعن في صحة النسب[١].

وإذا كان ما أورده أخو محسن مصدراً مهماً لهؤلاء المشككين. فإن الثعالبي روى لنا حكاية أخرى عول عليها الكثير من المؤرخين الرافضين للنسب، إذ يقول: أن عبد الرحمن الثالث الأموي الأندلسي تلقى من العزيز الفاطمي كتاباً يسبه فيه ويهجوه، ليس لسبب نعرفه، فكتب إليه عبد الرحمن: «أما بعد، فقد عرفتنا، فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك»[٢].

ومما يؤخذ على الطاعنين في صحة النسب عدم الدقة في كتاباتهم. ففي وفيات الأعيان يقول ابن خلكان: إن الخليفة المعز لما وصل إلى مصر سنة ٣٦٢هـ ـ ٩٧٥م اجتمع به بعض الأشراف وسأله أحدهم، وهو ابن طباطبا: «إلى من ينتسب مولانا؟» فأجابه المعز بأنه سيعقد اجتماعاً يضم كبار القوم ويسرد عليهم نسبه. حتى إذا ما انعقد المجلس في القصر، سل المعز سيفه إلى النصف وقال: «هذا نسبي»، ثم غمرهم بالذهب الكثير وقال لهم: «وهذا حسبي». ومن هنا نشأ القول المأثور «سيف المعز وذهبه». ثم لم يلبث ابن خلكان أن يذكر أن ابن طباطبا قد مات سنة ٣٤٨هـ ـ ٩٦١م أي قبل مجيء الخليفة المعز بأربع عشرة سنة[٣].

---

(١) أورد المقريزي في كتابه المقفى الكبير: مخطوط في المكتبة الأهلية في باريس رقم٢١٤٤، ورقة ١٦٦ ب. بعض ما كتبه القاضي أبو بكر الباقلاني في كتابه أسرار الفاطمية وإنكار صحة نسبهم إلى علي.

(٢) الثعالبي: أبو منصور (. . . .) الدهر أربعة أجزاء طبعة دمشق ١٣٠٤هـ، ج ١ ص ٢٢٤.

(٣) ابن خلكان، تسمي الدين: وفيات الأعيان، جزءان ـ بولاق ١٢٨٣هـ ج ١ ص ٣٢٦.
حسن ابراهيم حسن: الفاطميون في مصر. . بولاق ١٩٣٢ ص ٧٠ ـ ٧١.

وهكذا استناداً لما أوردنا نجد أن الموضوعية عند بعض المؤرخين الطاعنين في صحة النسب بعيدة عن الدقة والتمحيص. وأن التحيز يظهر جلياً واضحاً في ثنايا أقوالهم لدرجة يصعب علينا التمييز بين القبول أو الرفض للآراء التي أوردوها.

أقوال المثبتين لصحة النسب:

تصدى كثير من المؤرخين والشعراء والكتاب المعاصرين للفاطميين لحملة المشككين رافضين ما ذكروه جملة وتفصيلاً معتبرين أن عبيد الله المهدي هو ابن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق(١).

أورد هؤلاء المؤرخون المؤكدون لصحة النسب العديد من الحقائق التاريخية ما يؤيد قبول القائل بأصل الفاطميين من سلالة النبي محمد ﷺ.

أولاً ـ أن نجاح الفاطميين في نشر سلطتهم الروحية والزمنية في كثير من البلاد الإسلامية واعتراف الناس بهذه السلطة في العديد من مناطق الدولة العباسية، دون أن يجدوا معارضة من الرأي العام في ذلك الوقت هو أكبر دليل على صحة نسب الفاطميين إلى النبي.

ثانياً ـ أن ما ذكره مسكويه والمقريزي من أن نصر بن أحمد الساماني أمير خرسان بعث إلى المهدي بكتاب يعترف به بسلطته الروحية ويعد بإمداده بالرجال، كما يتبين من هذه العبارة: «أنا في خمسين ألف مملوك يطيعونني، وليس على المهدي لهم كلفة ولا مؤنة فإن أمرني بالمسير سرت إليه، ووقفت بسيفي ومنطقتي بين يديه وامتثلت أمره...»(٢).

ثالثاً ـ يقول دي ساسي المؤيد لصحة نسب الفاطميين: «إذا كان عبيد الله

---

(١) أقوال كثيرة مختلفة وردت عن نسبة الفاطميين إلى إسماعيل بن جعفر لا حاجة لاستقصائها وذكرها.

(٢) المقريزي: كتاب المقفى الكبير ـ المكتبة الأهلية بباريس مخطوط رقم ٢١٤٤ ورقة ٢٢٣ (أ و ب).

داعياً حقاً ولم يكن من سلالة علي، فإن أبناء علي الحقيقيين الذين لم يتطرق اليأس إلى نفوسهم لم يفقدوا الأمل قط في أنه سيأتي اليوم الذي يستطيعون فيه أن يؤكدوا حقوقهم، وأن يهتموا بكشف القناع عن هؤلاء الأدعياء»(١).

رابعاً ـ يقول ابن الأثير: «أنه ناقش مسألة نسب الفاطميين مع جماعة من العلويين العالمين بالأنساب، فلم يترددوا في أن الفاطميين من أولاد علي»(٢).

خامساً ـ يقول ابن خلدون وهو من المتعصبين لمذهب الشيعة: «ومن الأخبار الواهية ما يذهب إليه الكثيرون من المؤرخين والأثبات في العبيدين خلفاء الشيعة بالقيروان والقاهرة، من نفيهم عن أهل البيت صلوات الله عليهم، والطعن في نسبهم إلى إسماعيل ابن جعفر الصادق، يعتمدون في ذلك على أحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بني العباس، تزلفاً إليهم بالقدح فيمن نصبهم، وتفنناً في الشماتة بعدوهم. . . ويغفلون عن التفطن لشواهد الواقعات وأدلة الأحوال التي اقتضت خلاف ذلك، من تكذيب دعواهم والرد عليهم، فإنهم متفقون في حديثهم عن مبدأ دولة الشيعة أن أبا عبد الله المحتسب لما دعا بكتامة للرضى من آل محمد، واشتهر خبره وعلم تحويمه على عبيد الله المهدي وابنه أبي القاسم، خشيا على أنفسهما، فهربا من المشرق محل الخلافة واجتازا مصر، وأنهما خرجا من الإسكندرية في زي التجار. . .»(٣).

سادساً ـ بالرغم من أن بعض الإسماعيلية ينكرون نسب الفاطميين إلى علي وفاطمة ويقولون أن عبيد الله من الأبناء الروحيين للأئمة المستورين، وإنه وإن كان إماماً فإن إمامته إنما قامت لأنه استودع لينقلها إلى سواه، فلم يكن والحالة هذه من الأبناء الحقيقيين للأئمة المستورين، وإنما انتقلت الإمامة عن طريقه من إمام مستقر إلى إمام مستقر آخر. فإننا نجد الغالبية العظمى من الإسماعيلية

---

(١) De Sacry: Ex pose de la Religion di Dmuses, Introduction, 251

(٢) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ. . . ج ٨ ص ٨ ـ ٩.

(٣) ابن خلدون: المقدمة. . . ص ١٢١.

يؤكدون صحة النسب من أمثال القاضي النعمان المغربي والداعي جعفر بن منصور اليمني وغيرهم الكثير يرجعون نسب عبيد الله إلى أنه ابن الإمام المستور الحسين بن أحمد ابن عبيد الله بن إسماعيل بن جعفر الصادق»[1].

أما حول أسطورة تنصر المعز لدين الله يقول الدكتور حسن إبراهيم حسن أستاذ التاريخ بالجامعة المصرية: «إذا كان المعز نصرانياً ولو في الباطن فلا ينتظر منه أن يعمر المساجد، وينشىء الجامع الأزهر العظيم، وأن تضرب السكة باسمه، ويشيد فيها بالإسلام وبالنبي وعلي بن أبي طالب وأولاده من بعده، فينقش عليها «لا إله إلا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون على أفضل الوصيين وزير خير المرسلين...»[2].

استناداً لما ذكرنا يجب أن لا يغيب عن بالنا أن الخلفاء الفاطميين لم يقصروا عن أجزال العطاء للشعراء الذين أشادوا بذكرهم وأطنبوا في أحقيتهم بالإمامة فليس من عجب إذا «أمر المهدي للشاعر بصلة جزيلة كانت تجري عليه كل عام، ووصله أبو عبد الله أيضاً»[3].

وبالرغم من سردنا لمجموعة من الحقائق التي تؤيد صحة النسب إلا أننا لا نستطيع الجزم بأن الفاطميين يرجعون إلى علي وفاطمة ولعل الميول الشخصية عند المشككين قابلتها ميول أخرى عند المثبتين ولما كان معظم المؤرخين كتبوا متأثرين بخلفيات معينة فإنه من الصعب علينا أن نهتدي إلى رأي قاطع في هذه المسألة. آملين أن تسهل الآراء التي أوردناها مادة الاستقصاء لمن يرغب في دراسة هذا الموضوع.

---

(١) حسن ابراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية. ص ٧٦.

(٢) حسن ابراهيم حسن: جريدة البلاغ المصرية يوم ٢٩ آب سنة ١٩٣١.

(٣) البكري (ابو عبيد الله): المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، طبعة دي سلان باريس ١٩١١ ص١٧٧ ـ ١٨٢.

سياسة الفاطميين في توطيد سلطانهم بالمغرب

سعى عبيد المهدي منذ وصوله إلى القيروان سنة ٢٩٧هـ ـ ٩١٣م أن يكون الملك المطلق على الدولة الناشئة وعلى الدعوة ذاتها، ينظر للجميع على أنهم رعية وحسب[١]. فقد اعتمد في الإدارة على بعض موظفي الأغالبة وقربهم إليه، وأنشأ ديواناً للجند، ثبت فيه الموالي والعبيد من السودان. وفي مجال التنظيم الإداري، أبقى على ديوان الخراج الأغلبي، وأنشأ ديواناً للكشف وديواناً لأموال الهاربين واستصغى أموالهم.

بعد هذا التنظيم الإداري أرسل العمال إلى الولايات المختلفة، واختارهم من زعماء كتامة وممن يثق بهم من المغاربة، وعهد إلى أبي عبد الله الشيعي بإخضاع بلاد المغرب الأوسط والأقصى لأن أهلها لم يدينوا له بالطاعة، فخرج أبو عبد الله مع بعض قادة كتامة ودعاتهم إلى تلك البلاد. فافتتح مدنها، ثم سار على رأس جيش سنة ٢٩٨هـ ـ ٩١٤م لإخضاع قبائل زناتة في جنوب البلاد فدخلوا في طاعته وصار يجبي منهم الأموال[٢].

وعلى الرغم من أن الدولة الفاطمية تدين بظهورها ووجودها لأبي عبد الله الشيعي. فإن عبيد الله المهدي لم يلبث أن تخلص منه. ويعزو المؤرخون قتل أبي عبد الله الشيعي إلى المكانة التي احتلها هذا الأخير بين أهالي بلاد المغرب مما أثار حنق عبيد الله المهدي عليه، وخشي أن يفتن به الناس فيضعف بذلك نفوذه، لذلك أمر بقتل كل من أبي عبد الله وأخيه العباس في ١٥ جمادى الثانية سنة ٢٩٨هـ ـ ٩١٤م[٣]. وقد دلت الحوادث على أن من أسس دولة لا يستمتع بها في أغلب الأحيان. وقال ابن طباطبا: «وكأن المخترع للدولة يكون عنده من

(١) ابن عذارى: البيان المغرب. . . ج١ ص ١٥٦.

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٦٢.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا. . ص ٩٣ ـ ٩٥.

الدالة والتبسط ما تألف من احتماله نفوس الملوك، كلما زاد تبسطه زادت الأنفة عندهم حتى يوقعوا به»[1].

بعد مقتل أبي عبد الله الشيعي أصبح موقف عبيد الله دقيقاً فثارت أهل زنانة وتاهرت، واشتبك الكتاميون مع أهل القيروان، وثار أهل طرابلس في سنة ٣٠٠هـ ـ ٩١٦م، وثار أهل صقلية، وكاتبوا الخليفة العباس المقتدر ودانوا له بالطاعة. غير أن عبيد الله ما لبث أن استطاع إخماد تلك الثورات بفضل دهائه وجهود ولي عهده أبي القاسم وإخلاص ولاته من أمثال حباسة بن يوسف الذي ولاه على المغرب الأدنى، وعروبة بن يوسف الذي عينه على المغرب الأوسط والأقصى.

كان لقيام المعارضة ضد عبيد الله المهدي أثره البالغ في توجهه إلى بناء عاصمة في مكان يتوسط أجزاء دولته ليتخذها حصناً يعتصم به هو وأنصاره ويوجه منه هجماته إلى الخارجين عليه، بعد أن رأى أن رقادة لا توفر له الأمن والحماية لوقوعها في سهل منبسط فوقع اختياره على مكان يقع على بعد ستين ميلاً جنوبي القيروان، كانت ميناءً رومانياً. وبنى مدينة جديدة سماها المهدية[2].

وقد ذكر أبو عبيد البكري أن البحر يحيط بها من ثلاث جهات، وأن المهدي اتخذ لهذه المدينة بابين من الحديد زنة كل باب منهما ألف قنطار وطوله ثلاثين شبراً، ونقش على هذين البابين صور بعض الحيوانات، وأقيم بها ثلاثة وستون صهريجاً عدا ما كان يجري فيها من القنوات، وبنى المهدي بمدينة المهدية داراً للطباعة تسع أكثر من مائتي مركب. ولما فرغ من إحكام بناء حاضرة خلافته الجديدة سنة ٣٠٥هـ ـ ٩١٨م، قال: «اليوم آمنت على الفاطميات». يعني

---

(١) ابن طباطبا، محمد بن علي: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية القاهرة ١٣٤٥هـ، ١٩٢٧م. ص ١٥٤.

(٢) أحمد بدر: تاريخ المغرب والأندلس. . . ص ٢٧.

بناته، ثم انتقل إليها في أواخر سنة ٣٠٨هـ ـ ٩٢١م، وأنشأ فيها الدكاكين، كما رتب أرباب المهن، فجعل كل طائفة في سوق. وبعد أن تم للمهدي تأسيس هذه المدينة أمر ببناء مدينة أخرى بجوارها وجعل بين المدينتين ميداناً فسيحاً وأحاطها بسور وأبواب وسماها زويلة نسب إلى إحدى قبائل بلاد المغرب وأصدر أوامره إلى أصحاب الدكاكين بأن يقيموا فيها بحُرمهم وأهاليهم(١).

لم تقتصر مجهودات عبيد الله المهدي على إخماد الفتن والثورات بل سعى إلى توطيد سلطان خلافته بالتوسع نحو الغرب. فوجه عنايته إلى إخضاع قبائل صنهاجة بالمغرب الأقصى والقضاء على نفوذ الأدارسة في فاس، وعهد بذلك إلى قائده مصالة بن حبوس المكناسي حاكم تاهرت الذي نجح في الاستيلاء على ناكور(*) عاصمة الدولة الصنهاجية سنة ٢٠٨هـ ـ ٨٢٤م، وأجلى أسرتها المالكة عن الحكم، ثم اتجه نحو الأدارسة في فاس والتقى بيحيى بن إدريس بالقرب من مكناسة، فأوقع به الهزيمة واضطر يحيى إلى طلب الصلح على أن يؤدي إليه بعض الأموال ويعلن بيعته للفاطميين، فولاه مصالة على فاس، كما ولى موسى بن أبي العافية على سائر بلاد المغرب الأقصى. وما لبث موسى أن عاد إلى فاس وأقصى الإدريسية عن حكمها ليضعها في يد كتامي. ثم تقدم باتجاه سجلماسة واستخلصها من أئمة المدراريين. إلا أنه عاد ووضع مدرارياً أخر في الحكم مكتفياً فقط بتبعية حكمهم للفاطميين. ويمكن تعليل وضع سجلماسة هذا ببعدها أو بأهميتها التجارية، ومن شأن الإبقاء على المدراريين في حكمها ما يحول دون الشغب وتعكير صفو الأمن، وبالتالي سلامة القوافل التجارية.

استقرت الأمور لموسى بن أبي العافية في بلاد المغرب الأوسط والأقصى، وأخذ نفوذه في الازدياد بعد وفاة مصالة بن حبوس القائد الفاطمي

---

(١) أبو عبيد البكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب. . . ص ٢٩ ـ ٣١.

(*) نقع ناكور على بعد خمسة أميال من ميناء الخيمة الذي ما زال قائماً حتى الآن.

سنة ٣١٢هـ ـ ٨٢٨م حتى أصبح يهدد كيان الفاطميين في بلاد المغرب الأقصى، فخلع طاعة خليفتهم ودخل في طاعة عبد الرحمن الأندلسي[١]، الذي طمع إذ ذاك في امتلاك المغرب الأقصى واستولى على مدينة سبته وأرغم موسى على إقامة الخطبة له على منابر بلاده. ولما علم عبيد الله المهدي بذلك عهد لولي عهده أبي القاسم سنة ٣١٥هـ ـ ٩٢٨م بالعمل على توطيد سلطته في هذه البلاد، فسار إليها واستطاع أن يعيد للفاطميين كثيراً من نفوذهم[٢].

توفي عبيد الله المهدي سنة ٣٢٢هـ ـ ٩٣٥م فخلفه ابنه أبو القاسم محمد الذي لقب القائم بأمر الله، وكان في الثالثة والأربعين من عمره. وجد الناقمون على الحكم الفاطمي الفرصة سانحة للإنتقاض على الخليفة الجديد، فأعلن موسى بن أبي العافية الثورة في بلاد المغرب في مستهل سنة ٣٢٣هـ ـ ٩٣٥م، وثار ابن طالوت القريشي بطرابلس زاعماً أنه ابن المهدي. ولما ظهر للبربر كذبه قتلوه. كما اشتد خطر الخوارج الذين أعلنوا الثورة بقيادة أبو يزيد مخلد ابن كيداد من قبيلة زناتة الناقمة على الفاطميين لإيثارهم الكتاميين بالمناصب[٣]، ولد أبو يزيد في مدينة توزر[٤]. وكانت أمه جارية تنتسب إلى قبيلة هوارة، من السودان، تعلم القرآن وخالط جماعة من الخوارج الصفرية[٥]. فمال إلى مذهبهم واعتنقه[٦]، وكان الخوارج قد التمسوا الأمان في بلاد المغرب بعد أن اشتد اضطهاد الأمويين لهم.

---

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر... ج١ ص ٣٩ ـ ٤٠.

(٢) حسن ابراهيم حسن وطه شرف: عبيد الله المهدي إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب. القاهرة ١٩٤٧ ص ١٩٨.

(٣) المراكشي: كتاب المعجم في تلخيص أخبار المغرب... ص ٢٥٨.

(٤) أكبر مدائن الجرير في إمارة تونس.

(٥) اتباع زياد بن الأصغر وموطنهم الإقليم الشرقي من الجزيرة.

(٦) المقريزي: اتعاظ الحنفا... ص ١٠٩.

اتخذ أبو يزيد مدينة تاهرت محلاً لإقامته وصار يعلم الصبيان القرآن ومذاهب الخوارج، ويدعو الناس للخروج على الخليفة الفاطمي. وفي سنة ٣١٦هـ - ٩٢٩م ابتدأ نفوذه في الازدياد، وذاعت دعوته لدى قبائل البربر في نفوس والزاب والمغرب الأقصى. كما قويت شوكته في عهد القائم وكثر أتباعه، فاستولى على بجاية ومرمجنة وأوقع الهزيمة بقبيلة كتامة، ودخل سبيبة واستولى على الأربس ونهبها وقتل كثيراً من أهلها، وبدأ بشن هجماته على المهدية مما اضطر أهلها إلى النزوح عنها إلى طرابلس وصقلية ومصر وبلاد الدولة البيزنطية(١).

رأى دي ليسى أن ثورة أبي يزيد كانت ذات طابع وطني الغرض، منها إنشاء حكومة من البربر لا يشترك فيها العرب، فالبربر هم الذين فتحوا بلاد الأندلس. وهم الذين رسخوا دعائم الدولة الفاطمية، دون أن ينالوا شيئاً من أعمالهم. فجاءت ثورة أبي يزيد لاستعادة سلطانهم(٢).

انتشرت جيوش أبي يزيد في سنة ٢٣٣هـ - ٨٤٩م في جميع أرجاء الولايات الفاطمية، وأصبح في مركز يستطيع معه أن يهدد مدينة المهدية نفسها. وكتب الخليفة القائم يستحث زيري بن مناد زعيم قبيلة صنهاجة على معونته. فلحق به هذا الأخير في المهدية(٣). بيد أن حسن الحظ ساعد الفاطميين في ذلك الحين، بانضمام عدد كبير من جند أبي يزيد إلى جيوشهم في القيروان. مما اضطر أبا يزيد إلى الارتداد عن المهدية بقوة صغيرة من قبيلتي هوارة وبني كملان تاركاً خلفه ما كان معه من مؤن وعتاد باتجاه القيروان فلم يلبثوا أن هلكوا من الجوع والعطش(٤). وفي سنة ٣٣٤هـ - ٩٤٧م توفي القائم فخلفه ابنه

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ. .ج٨ ص١٥٠ - ١٥٨.

(٢) Oleary, De laey A short History of the Fatimid... P 91

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا... ص٥٤ - ٥٥ وابن الأثير - الكامل... ج٨ ص١٥٠ - ١٥٨

(٤) ابن ابي دينار (محمد بن أبي القاسم): كتاب المونس في اخيار افريقية وتونس. (١٢٨٦هـ/ ١٨٧٢م) ص٥٥ - ٥٩.
وأنظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ.. ج ٨ ص ١٥٠ - ١٥٨. والمقريزي: اتعاظ الحنفا... ص ٥٤ - ٥٥.

اسماعيل الذي تلقب بالمنصور وهو في الثانية والعشرين من عمره، فكتم خبر موت أبيه خوفاً من أن يطمع فيه أبو يزيد.

اشتهر المنصور بالشجاعة ورباطة الجأش، وتأثيره في نفوس سامعيه بفصاحته وبلاغته وقدرته على ارتجال الخطب(١). مما ساعده على انضمام العديد من المناوئين للحكم الفاطمي إليه وكان أولها قبيلة صنهاجة، فقويت جيوشه وزاد عددها، فأوقع بجيش الخارجي. وقطع أوصاله، وأخذ في مطاردة أبي يزيد الذي هرب إلى الصحراء بعد أن عجز عن المقاومة حيث تم القبض عليه وأرسل إلى المهدية، وهناك مات متأثراً بجراحه سنة ٣٣٦هـ ـ ٩٤٧م(٢).

كشفت ثورة أبي يزيد عن مدى استعداد البربر لتأييد كل خارجي يثور على الدولة الفاطمية، وأخذ النفوذ الفاطمي في بلاد المغرب يتضاءل وبدأت الحكومات المستقلة في الظهور في المناطق الغربية من الدولة الفاطمية(٣).

كان نتيجة هذه الثورات أن أصبح شمال أفريقية في حالة يرثى لها فقد تعطلت موارد الدولة واستنفذت أموالها. ولولا ما أظهره المنصور من نشاط وشجاعة نادرة ودراية بأساليب الحرب، لزالت معالم الخلافة الفاطمية من كافة أرجاء البلاد. فأعاد تنظيم البلاد. وأنشأ أسطولاً كبيراً، وأسس مدينة المنصورية سنة ٣٢٧هـ ـ ٩٤٣م على مقربة من القيروان في المكان الذي دارت فيه المعركة بينه وبين أبي يزيد. واتخذها حاضرة لدولته، وكان لهذه المدينة خمسة أبواب: الباب الشرقي، الباب القبلي، باب زاوية، وباب كتامة، وباب الفتوح، وكان هذا الأخير باب الخروج والدخول للجيوش الفاطمية(٤).

ازدهرت مدينة المنصورية وأصبحت على جانب عظيم من التقدم والرقي،

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان. . . ج ١ ص ٧٧.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا. . . ص ٥٤ وابن أبي دينار. . ص ٥٩.

(٣) O leary A short History... P 91

(٤) البكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب. . ص ٢٥.

حتى باتت تزاحم أسواق القيروان في الصناعة والتجارة. وغدت منذ ذلك الحين حاضرة الدولة الفاطمية[١].

توفي المنصور سنة ٣٤١هـ ـ ٩٥٢م فآلت الخلافة إلى ابنه المعز الذي اشتهر بثقافته الواسعة، فكان يجيد عدة لغات منها الطليانية والصقلية والسودانية. وكان ذا ولع بالعلوم ودراية بالأدب فضلاً عما عرف به من حسن التدبير وأحكام الأمور. وقد استهل حكمه بخطبة ألقاها على رؤساء كتامة بمدينة المنصورية، أوضح فيها سياسته فقال لهم: «إنه شغل بكتب ترد عليه من المشرق والمغرب. يجيب عنها بنفسه، كما بين أنه سيوجه عنايته إلى صيانة أرواح رعاياه، وتعمير بلاده وقمع الفتن والثورات حتى يسود الأمن والطمأنينة بين ربوع دولته. وختم خطبته بقوله: إنكم إذا لزمتم ما أمركم به، رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب بكم»[٢].

وبهذه السياسة الرشيدة التي سار عليها المعز دانت له جميع قبائل البربر بما في ذلك قبيلتا بني كملان وبني مليلة من قبائل هوارة، وقد أبتا أن تذعنا للخلفاء الفاطميين من قبله[٣].

عني المعز بالعمل على توطيد الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب، فعهد إلى جوهر الصقلي بإخضاع الأمراء الثائرين على الحكم الفاطمي. فسار في أوائل سنة ٢٤٧هـ ـ ٨٦٠م على رأس جيش كبير يضم كثيراً من رجالات المغاربة، مثل زيزي بن منادي الصنهاجي، أمير «أشير»، وجعفر بن علي الأندلسي، أمير «المسيلة» وغيرهما، قاصداً تاهرت فاستولى عليها وقضى على واليها يعلى بن محمد الزناتي الذي عرف بانحرافه عن الفاطميين. وولائه لعبد الرحمن الناصر الأموي[٤]. ثم استأنف جوهر السير إلى فاس لإخضاع واليها

(١) االبكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب.. ص٢٥.
(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا... ص ١٣٧ ـ ١٣٨.
(٣) المصدر نفسه ص.١٣٨
(٤) السلاوي: الاستقصاء لأخيار المغرب الأقصى... ج ١ ص ٨٦.

ابن أبي بكر بن سهل الجذامي، الذي خلع طاعة الفاطميين. ولما امتنعت عليه اتجه إلى سجلماسة الذي استبد بحكمها ابن واسول الذي سمى نفسه أمير المؤمنين، وتلقب بالشاكر بالله. وصك النقود باسمه، فطارده جوهر حتى قبض عليه وأخذه أسيراً. واستعاد الفاطميون بذلك سلطانهم على سجلماسة الذي لم يقل اهتماماً باستيلائهم على فاس أو تاهرت، وكانت عناية المعز بفتحها إنه صك النقود فيها باسمه(١).

تابع جوهر سيره باتجاه بلاد المغرب الأقصى محرزاً النصر تلو الآخر حتى وصل إلى ساحل المحيط الأطلسي، ولم يمتنع عليه سوى سبته وطنجة. ثم انصرف راجعاً إلى المهدية، كما يقول السلاوي بعد نجاحه في إقامة الدعوة للفاطميين على جميع منابر المغرب(٢).

والواقع أن ملك الفاطميين في المغربين الأوسط والأقصى، لم يصف لهم تماماً بعد سنة ٣٤٧هـ ـ ٩٥٨م، على الرغم من الجهود التي بذلها كل من جوهر الصقلي وزيري بن مناد. فقد انتهز الزناتيون فرصة خروج جيوش المعز إلى مصر في سنة ٣٥٩هـ ـ ٩٧٢م وأعلنوا الثورة بقيادة أحد زعمائهم. مما اضطر الخليفة إلى الخروج إليه بنفسه. فلما وصل إلى «باغاية» (*) ولى هذا الثائر هرباً، فأرسل إليه المعز قائده زيري بن مناد وأرغمه على التسليم. وفي ربيع الثاني سنة ٣٥٩هـ ـ ٩٧٢م، وصل هذا الزناتي إلى المعز مستأمناً. وطلب الدخول في طاعته. فقبل المعز ذلك، وفرح بنه، وأجرى عليه الأرزاق(٣). وبالرغم من ذلك بقي الاضطراب يسود بلاد المغرب. وليس أدل على ذلك مما قاله ابن زيري بن مناد عندما عزم المعز على توليته إياه: «يا مولانا! أنت وأباؤك

---

(١) النعمان، أبو حنيفة المغربي: المجالس والمسايرات. . . ج ١ ص ٣١٧ ـ ٣٢٨.

(٢) السلاوي: المصدر السابق نفسه. . . ج ١ ص ٨٦ ـ ٨٧.

(*) باغاية مدينة بأقصى افريقية.

(٣) ابن الأثير: الكامل. . . ج ٨ ص ١٧٧ ـ ١٩٨.

الأئمة من ولد رسول الله ﷺ! ما صفا لكم المغرب، فكيف يصفو لي وأنا صنهاجي بربري؟»[1].

ولم يكد ينتقل المعز إلى مصر حتى ثار أهالي باغاية وتاهرت على ولاتهم وطردوهم. كما ثارت زناتة في تلسمان، فتصدى لهم يوسف بن زيري بن مناد وأخمد ثوراتهم[2].

الفاطميون في صقلية

إن جزيرة صقلية بموقعها الجغرافي الممتاز في البحر الأبيض المتوسط كانت مركزاً للصراع بين المسلمين والروم، ففي سنة ٢٦٨هـ ـ ٨٨٤م شهدت الجزيرة حرباً ضروساً بين العباسيين والبيزنطيين انهزم فيها المسلمون إلا أنهم في سنة ٢٧٠هـ ـ ٨٨٦م استطاعوا الثأر لأنفسهم بإحراز نصر كبير على أعدائهم الروم وإرغامهم على وقف القتال[3].

وكان احتلال الفاطميين لإفريقية (تونس)، وإزالتهم دولة الأغالبة، خطوة كبيرة في السيطرة على صقلية دون أدنى عناء. فقد ثار أهالي الجزيرة على الوالي الحسن بن رباح الذي كان يحكم باسم الأغالبة وولوا مكانه غلبا ابن أبي الفوارس في سنة ٢٩٦هـ ـ ٩٠٩م فطلبوا من عبد الله الشيعي أن يقرهم على ما فعلوا، فكان لهم ما أرادوا[4] غير أن عبيد الله المهدي الذي كان قد وضع لنفسه سياسة الاعتماد على الكتامين أنصار المذهب الإسماعيلي عزل ابن أبي الفوارس وعين مكان الكتامي الحسن بن أحمد ابن أبي خنزير الذي استبد بأهالي صقلية فولى أحد الكتامين على قضاء الجزيرة، وأطلق يد أخيه في أمور البلاد. وبدأ

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا... ص ٦٤ خطط ج ١ ص ٣٥٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل... ج ٨ ص ٢٠٥.

(٣) المصدر نفسه... ج ٧ ص ١٣٢ ـ ١٣٣ ـ ١٥٠.

(٤) حسن ابراهيم حسن: الدولة الفاطمية... ص ٩٨.

يخطب باسم الخليفة المهدي الفاطمي، وينظم الدعاية فيها للمذهب الإسماعيلي. مما أثار حفيظة السنة بصقلية فعملوا على طرده لاستبداده ولرفضهم أن يحكمهم كتامي بربري.

ولى عبيد الله المهدي علياً بن عمر البلوي جزيرة صقلية، فوصل إليها في سنة ٢٩٩هـ ـ ٩١٥م وكان شديد التعسف فثار الناس عليه وأعلنوا الثورة على الدولة الفاطمية. وكان بين الثائرين جماعة من تلاميذ أبي عبد الله الشيعي الذي عز عليهم مقتله فثاروا بالمهدي وبواليه البلوي. واختار زعماء صقلية أحمد بن قرهب العربي والياً سنة ٣٠٠هـ (١٩١٣م). غير أن الجند ثاروا على ابن قرهب بسبب نزعته إلى الاستقلال بصقلية، وأشعلوا نار الثورة على ابنه فخاف ابن قرهب وأعلن ولاءه للعباسيين سنة ٣٠٤هـ، وخطب للمقتدر العباسي[١].

حنق عبيد الله المهدي لتدهور الأوضاع في صقلية فأرسل والياً جديداً (أبو سعيد) ومعه جيشاً يكون وسيلة لقمع ولاة الفاطميين إذا حدثتهم أنفسهم بالخروج عليه. أو القضاء على أهالي صقلية إذا حاولوا شق عصا الطاعة[٢]. وبالفعل لولا هذا الجيش لما استطاع الولاة أن ينشروا الأمن في ربوع هذه الجزيرة[٣].

والسؤال لماذا حرص الفاطميون على الاحتفاظ بنفوذهم في صقلية؟

كانت الدولة الفاطمية ترمي إلى إنشاء إمبراطورية عظيمة في البحر الأبيض المتوسط، وإن موقع صقلية الممتاز يساعدها في تأمين قاعدة لأسطولها لصد غارات الروم على سواحل إفريقية، ولتحقيق أطماعها في مصر وبلاد المغرب هذا من الناحية السياسية أما من الناحية الاقتصادية فإن صقلية تشكل ثروة اقتصادية لا يستهان بها زراعية وصناعية[*].

---

(١) ابن الأثير: الكامل... ج ٨ ص ٢٥.

(٢) المصدر نفسه... ج ٨ ص ٢٥ ـ ٦.

(٣) ابن خلدون: العبر ج ٤ ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨.

(*) كانت صقلية غنية بالتفاح والبندق والجوز والقسطل، ويكثر فيها الذهب والفضة والنحاس والرصاص والزئبق وغيرها.

وفي سنة ٣٣٦هـ ـ ٩٤٩م ولى الخليفة المنصور الحسن بن علي الكلبي هذه الجزيرة، ولما ولي المعز لدين الله أقر حسن في ولايته. وقد استطاع هذا الخليفة بمساعدة الولاة من الكلبيين أن ينتصر على أعدائه من الأمويين أولاً، ثم على الروم ثانياً، كما استطاع أن يهدد إيطاليا. وأن يلقي الرعب في نفوس أهالي الجزء الغربي من البحر الأبيض المتوسط.

وبالرغم من الجهود التي بذلها حسن الكلبي لفرض الأمن في الجزيرة إلا أن النزاع تفاقم بينه وبين الأهالي. ولم ير مسيحيو صقلية بداً من الالتجاء إلى أباطرة الدولة البيزنطية، الذين استجابوا لندائهم، لأنهم كانوا يعملون على مناصبة العباسيين في المشرق. وأرسل الإمبراطور قسطنطين الثامن جيوشه إلى هذه الجزيرة، واشتبكوا مع جيوش حسن الكلبي الصقلية وجيوش الخليفة المنصور المغربية. وأحلت الهزيمة بالجيش البيزنطي، وأرغم الإمبراطور على طلب الهدنة[١]. إلا أن هذا الأخير لم يحترم شروط الصلح فأرسل في سنة ٣٤٥هـ ـ ٩٥٨م حملة برية بحرية استولت على بلرمو وعلى قلورية ثم تقدمت باتجاه صقلية واستولت على مدينة ترميني Termini، غير أن الروم لم يتمتعوا بثمار هذه الانتصارات، وعادوا أدراجهم إلى قلورية، إلا أن حسن الكلبي عبر خليج مسيني وانضم إلى جيوش الفاطميين بقيادة أخيه عمار وأخذا يغزوان مدن قلورية واحدة إثر أخرى، مما اضطر الإمبراطور البيزنطي إلى طلب الهدنة سنة ٣٥٠هـ ـ ٩٦٣م. وكانت تقضي بأن تدفع قلورية الجزية للمسلمين.

وبالرغم من الانتصارات التي حققها حسن الكلبي إلا أن الأمور لم تستقر للفاطميين في صقلية فما زال الصراع على أشده بين أنصار الفاطميين وأنصار البيزنطيين. وهذا ما دفع أحمد بن حسن الكلبي إلى السيطرة على الجزيرة فاستولى على قلعة طيرمين وطرد أهلها عنها وسماها «المعزية»[٢]، لكن مدينة

---

(١) ابن الأثير: الكامل... ج ٨ ص ١٧٨.

(٢) االمصدر نفسه... ج ٨ ص ٢٠٩.

رمطة أبت الاستسلام وطلبت النجدة من الإمبراطور نقفوز فوكاس الذي أرسل أسطولاً ضخماً وجيشاً يقرب من خمسين ألف جندي مجهزين بأحسن الآلات.

وعلى الرغم من استيلاء الروم على مسينا ومحاولتهم منع وصول المدد الفاطمي إلى الحسن ابن عمار الذي كان يحاصر رمطة. فإن ثبات المسلمين، وحسن درايتهم في تقسيم الجيوش، واندفاعهم نحو العدو برغم قلتهم. استطاعوا توجيه ضربة قاضية للروم وقتل قائدهم مانويل والعديد من البطارقة وأخذ العديد من الغنائم والسبي(١).

وهكذا قررت تلك المعركة مصير صقلية التي أخذت مدنها تعلن الاستسلام الواحدة تلو الأخرى، وأحس الإمبراطور نقفور فوكاس بقوة الفاطميين فعمل على تحسين العلاقة بينه وبينهم. وعندما حاول الإمبراطور أوتو الأكبر الاستيلاء على ممتلكات البيزنطيين لم ير نقفور بداً من طلب الاستعانة بالفاطميين لدفع الخطر الجرماني عن ممتلكاته(٢).

إن تحسين العلاقة بين الفاطميين والبيزنطيين أفادت الخليفة المعز، فلم يعد يخشى خطر غارات الروم على بلاده في المغرب، في الوقت الذي بعث فيه بجيشه الضخم إلى مصر، وتفرغه لتنظيم الحكم في جزيرة صقلية نفسها.

غير أن هذه العلاقة لم تدم طويلاً فسرعان ما أصابها الضعف على يد

---

(١) ابن خلدون: العبر... ج ٤ ص ٢٠٩.

يصف ابن الأثير هذه الهزيمة فيقول: «انهزم الروم أقبح هزيمة، وأكثر المسلمون فيهم القتل، ووصل المنهزمون إلى حرف خندق عظيم كالحفرة، فسقطوا فيه من خوف السيف فقتل بعضهم بعضاً، حتى امتلأت. وكانت الحرب من بكرة إلى العصر. وبات المسلمون يقاتلونهم في كل ناحية، وغنموا من السلاح والخيل وصفوف الأموال ما لا يحد، وكان في جملة الغنيمة سيف هندي عليه مكتوب: هذا سيف هندي وزنه مائة وسبعون مثقالاً، طالما ضرب به بين يدي رسول الله ﷺ. فأرل إلى المعز مع الأسرى والرؤوس». ابن الأثير: الكامل... ج ٨ ص ٢٠٠.

(٢) حسن ابراهيم: تاريخ الدولة الفامية... ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

الإمبراطور زيمسكس Zimixces الذي رفض سياسة نقفور فوكاس وتحالف مع أوتو الأول، حتى يستطيع أن يلحق الهزائم بالفاطميين الذين أغاروا على بلاد الشام التي كان الروم يعدونها مجالاً حيوياً لإمبراطوريتهم. وبدأ يشن هجماته في شمال الشام وفي دمشق نفسها، يقابلها والي صقلية أبو القاسم الكلبي بغاراته المتتالية على ممتلكات الروم في قلورية.

والسؤال كيف تمكن الروم من السيطرة على صقلية؟

استطاع الفاطميون في عهد الخليفة المعز الاحتفاظ بنفوذهم في صقلية على أكمل وجه ولعل السبب في ذلك يعود إلى أمرين:

أولاً: الاتفاق الذي أبرمه المعز مع الروم وما ترتب على ذلك من هدوء واستقرار في الجزيرة.

ثانياً: الدور الذي قامت به الأسرة الكلبية التي تولت إدارة الجزيرة من أمثال حسن وابنه أحمد ثم عمار الكلبي وابنه الحسن لما أبدوه من سياسة رشيدة في توجيه دفة الحكم مكنتهم من كسب ثقة الناس حتى أصبحوا في مكانة يحسدون عليها.

إن حالة الاستقرار هذه لم تستمر طويلاً فقد أصابها الانهيار نتيجة عوامل داخلية ساهم فيها الفاطميون أنفسهم مكنت الروم من الاستيلاء على الجزيرة. ذلك أن مركز الكلبي في الجزيرة أصبح مصدر قلق للخليفة المعز فعمل على إخراجهم خوفاً من ازدياد عصبيتهم وسعيهم للاستقلال، متذرعاً أنه بعد تحالفه مع الروم سنة ٣٥٧هـ ـ ٩٧٣م لم يعد بحاجة إليهم في صقلية وأن اصطحابهم إلى القاهرة أمر حتمي ليتقلدوا المناصب العالية فيها تقديراً لما أسدوه للفاطميين من خدمات.

إن عملية إقصاء الأسرة الكلبية عن صقلية أوغدت صدور الأهالي ودفعتهم إلى النفور من الحكم الفاطمي عبروا عنه بالثورة على الوالي الفاطمي الجديد

«يعيش» مولى الكلبي[١]. وذكرتهم بمقتل أبي عبد الله الشيعي على يد عبيد الله المهدي في جمادى الآخرة سنة ٢٨٩هـ ـ ٩٠٢م[٢].

وبالرغم من أن المعز أدرك غلطته واقتنع باستحالة بقاء يعيش في هذه الجزيرة، وولى الكلبي عليها، وأسند إليهم المناصب العالية في الدولة إلا أن هذه التدابير لم تجد نفعاً فما أن نقض الإمبراطور البيزنطي زيمسكس Zimisces الصلح مع الفاطميين وأعلن الحرب على قلورية ونجح في طرد المسلمين منها في سنة ٤١٦هـ ـ ١٠٢٦م. حتى ثار أهالي صقلية على الوالي أحمد المعروف بالأكمل لمناصرته الإفريقيين عليهم. واستعان بعضهم بالفرنجة وسهلوا لهم استيلاء على الجزيرة في سنة ٤٨٣هـ ـ ١٠٩٣م. ويبدو أن انصراف الخليفة المعز إلى الاهتمام بالشرق واتخاذ الأهبة لفتح مصر قد صرفه عن الاهتمام بموضوع سقوط صقلية الذي كان نذيراً بانتهاء السيادة الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي.

---

(١) ابن الأثير: الكامل... ج ٨ ص ٢١٩.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا... ص ٩٣ ـ ٩٥.

الفتح الفاطمي لمصر

الأحوال الداخلية في مصر قبل الفاطميين

خضعت مصر للعرب منذ سنة ٢٠هـ ـ ٦٤٢م، فكان الخليفة يعين عليها والياً يمثله، يعرف بأمير مصر. وقد تمتع هؤلاء الولاة في العصر الأموي بشيء من الاستقلال، فكانوا لا يرجعون للخليفة إلا في الأمور الهامة.

وعندما جاءت الدولة العباسية، تأثرت ولاية مصر بالسياسة العامة لهذه الدولة، ذلك أن العباسيين اعتمدوا على عناصر غير عربية، وكان عيسى بن إسحق آخر وال عربي على مصر[(١)].

ظل العرب أصحاب النفوذ في مصر إلى أن ولي الخليفة المعتصم في سنة ٢١٨هـ ـ ٨٣٤م. فاستبعد العناصر العربية والفارسية وأحل محلهم الأتراك[(٢)]. كان نتيجة السياسة التي اتبعها الخلفاء العباسيون في تقربهم للولاة الأتراك أن أصبحت مصر تمنح لهم بصفة إقطاع على أن يؤدوا خراجاً معيناً، وكثيراً ما اختار هؤلاء الولاة البقاء في بغداد أو سامرا، وينيبون عنهم حكاماً يديرون شؤون

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة. . . ج ٢ ص ٣٠٨.
ـ المقريزي: خطط. . . ج ٢ ص ٢٩٤.
(٢) حسن ابراهيم: تاريخ الحضارة الإسلامية. . . ص ٢٢.

الولاية باسمهم، ويدعون لهم بعد الخليفة في خطبة الجمعة ويرسلون إليهم الخراج، ولم يكتفِ الولاة بذلك بل عمدوا إلى تقسيم أعمال مصر بين عدة أشخاص للحصول على زيادة في الضريبة. والحؤول دون تطلع أحدهم إلى الاستقلال بما في يده[(١)]، ومن ذلك نرى أحمد بن طولون الذي قدم إلى مصر سنة ٢٤٥هـ ـ ٨٦١م في عهد الخليفة المعتز نائباً عن واليها التركي باكباك لم يكن يتمتع بنفوذ كبير في ولاية مصر، بل واجه عدة صعوبات في سبيل تثبيت مركزه وخاصة من منافسه أحمد بن المدبر عامل الخراج الذي أوقع به عند الخليفة العباسي، ثم توفي المعتز وخلفه المهتدي، فأسند ولاية مصر إلى يارجوخ [(*)] صهر أحمد بن طولون، فكتب إليه «تسلم من نفسك لنفسك». وبذلك زادت سلطة ابن طولون وأصبح والياً على جميع الديار المصرية، وتقلد خراج دمشق وفلسطين والأردن سنة ٢٥٧هـ ـ ٨٧٣م. ولم يمض وقت طويل حتى توفي يارجوخ صاحب إقطاع مصرسنة ٢٥٩هـ ـ ٨٧٥م، فأصبح أحمد بن طولون والياً على مصر من قبل الخليفة العباسي مباشرة. ثم قلده الخليفة المعتمد سنة ٢٦٣هـ ـ ٨٧٩م خراج مصر وولاه الثغور الشامية، وبذلك أصبحت جميع البلاد في قبضة يده لا ينازعه فيها أحد[(٢)].

لم ينعم ابن طولون بالاستقرار في ولايته، فقد ناصبه العداء أبو أحمد الموفق طلحة أخو الخليفة العباسي المعتمد، ذلك أنه لما استفحل خطر ثورة الزنج في العراق، طلب الخليفة من أخيه الموفق محاربتهم، فلم ير هذا الأخير بداً من الإلتجاء إلى أحمد بن طولون ليمده بما يساعده في القضاء على زعيم هذه الثورة، فلبى ابن طولون النداء وأرسل مليونا ومائتي ألف دينار. غير أن الموفق إستقل هذا المبلغ وبعث إليه بكتاب أظهر له فيه الجفاء. فاستاء ابن طولون، وكتب إليه يقول: «... وصل إلي كتاب الأمير ـ أيده الله تعالى ـ

---

(١) حسن ابراهيم: تاريخ الإسلام السياسي... ج ٣ ص ٢٢٠.

(*) يارجوخ هو أحد كبار رجال البلاط العباسي.

(٢) المقريزي: خطط... ج ١ ص ٣١٩.

وفهمته وكان ـ أسعده الله حقيقاً بحسن التخير لمثلي وتصبيره إياي عمدته التي يعتمد عليه وسيفه الذي يصوله، وسنانه الذي ينتقي الأعداء بحده. . . واحتملت الكلف العظام والمؤن الثقال باستجذاب كل موصوف بشجاعة واستدعاء كل منعوت بغى. . ومن كانت هذه سبيله في الموالاة ومنهجه في المناحمة فهو حري أن يعرف له حقه، فعوملت بضد ذلك من المطالبة بحمل ما أمر به الجفاء في المخاطبة بغير حال توجب ذلك. . . وإني لا أعرف السبب الذي توجب الوحشة ويوقعها بيني وبين الأمير. ولا ثم معاملة توجب مشاهرة، أو تحدث منافرة لأن العمل الذي أنا بسبيله لغيره والمكاتبة في أموره إلى من سواه، ولا أنا من قبله، فإنه والأمير جعفر المفوض قد اقتسما الأعمال، وصار لكل واحد منهما قسم، إنفرد به دون صاحبه. . . والذي عاملني به الأمير من محاولة صرفي مرة وإسقاط رسمي أخرى. . . ناقض لشرطه، مفسد لعهده. وقد التمس أوليائي وأكثروا الطلب في إسقاط اسمه وإزالة رسمه، فآثرت الإبقاء وإن لم يؤثره. واستعملت الأناة إذ لم تستعمل معي. . . والأمير أيده الله أولى من أعانني على ما أوثره من لزوم عهده. . . وكف الأذى المضرة وأن لا يضطرني إلى ما يعلم الله ـ عز وجل ـ كرهي له، أن أجعل ما قد أعددته لحياطة الدولة من الجيوش المتكاتفة والعساكر المتضاعفة. . . مصروف إلى نقضها. . . والأمير يعلم. . . أنه لا ناصر له إلا لفيف البصرة وأوباش عامتها. فكيف من يجد ركناً منيعاً وناصراً مطيعاً. وما مثل الأمير في أصالة رأيه يصرف مائة ألف عنان عدة له فيجعلها عليه بغير ما سبب يوجب ذلك»[١].

إستاء الموفق من هذا الكتاب، وأوغر صدر الخليفة عليه لعزله لكنه فشل فعمد إلى عزله عن ولاية الثغور فأجابه الخليفة إلى ما أراد. لكن المعتمد ما لبث أن تراجع وعهد إلى ابن طولون بإدارتها على أثر نشوب الاضطراب فيها وعجز أهل الأمر عن تهدئة الأوضاع.

---

(١) المقريزي: خطط ج ٢ ص ١٧٩.

عند وفاة والي الشام وجد ابن طولون أن الفرصة سانحة لبسط نفوذه عليها فسار إليها على رأس جيش كبير واستطاع الاستيلاء على كثير من مدنها. ثم دعي له على منابرها سنة ٢٦٤هـ ـ ٨٨٠م. لكنه اضطر إلى العودة إلى مصر للقضاء على ثورة ابنه العباس، ثم أعاد الكرة على بلاد الشام في سنة ٢٦٩هـ ـ ٨٨٥م بعد أن وصله نبأ خروج لؤلؤ والي الرقة عليه وانضمامه إلى الموفق فاستخلف على مصر ابنه خمارويه. وبينما هو في دمشق جاءه كتاب الخليفة العباسي ينبئه فيه برغبته في المسير إليه والاحتماء به. فرحب ابن طولون بقدومه وأنفذ إليه كتاباً يحثه على المجيء قال فيه: «قد منعني الطعام والشراب خوفي على أمير المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ من مكر يلحقه. . . وقد اجتمع عندي مائة ألف عنان مؤلفة قلوبهم. مجتمعة آراؤهم، شديد بأسهم. وأنا أرى لسيدي أمير المؤمنين ـ أدام الله عزه بالنصر والتمكين ـ الانجذاب إلى مصر، فإن أمره يرجع بعد الامتهان إلى نهاية العز، ولا يكن فيه ما يخافه في كل لحظة منه عليه»[١].

علم الموفق بما ينوي عليه الخليفة المعتمد، فأرسل إلى ابن كنداج عامل الموصل والجزيرة يأمره برد الخليفة، فأعاده إلى سامرا[٢].

اغتنم ابن طولون خلاف الموفق مع أخيه الخليفة المعتمد وأرسل كتاباً إلى أهل مصر يخبرهم فيه بنكث الموفق طلحة ببيعة أخيه المعتمد وحجره عليه[٣]. كما أنفذ كتاباً مماثلاً إلى عامله في دمشق لعرضه على القضاة والفقهاء والأشراف ولعن الموفق على منابر دمشق[٤].

حنق الموفق من إساءة ابن طولون له فطلب من الخليفة المعتمد أن يأمر بلعنه على منابر الدولة العباسية؟ فأجابه على كره منه، وولى ابن كنداج مكانه[٥].

---

(١) ابن الداية: سيرة أحمد بن طولن. . . ص ٦٨ ـ ٦٩.

(٢) الكندي: كتاب الولاة والقضاة ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٢٦.

(٤) البلوي: سيرة أحمد بن طولون. . . ص ٢٩٥.

(٥) حسن ابراهيم: تاريخ الإسلام السياسي. . . ج ٣ ص ٢٢٧.

كان نتيجة العداء الشديد بين الموفق وابن طولون أن تزعزع نفوذ هذا الأخير في البلاد التي خضعت لسلطانه، وأخذت الهزائم تتوالى عليه في مكة وفي طرسوس، إلى أن أصيب بمرض أودى بحياته في ذي القعدة سنة ٢٧٠هـ ـ ٨٨٦م[١].

لم تهدأ الأحوال بعد موت أحمد بن طولون وتولية ابنه خمارويه مكانه فقد عمت الفوضى والاضطرابات كافة أرجاء ولاية مصر يؤجج نارها أبو أحمد الموفق طلحة الذي كان لا يزال على سياسته العدائية للطولونيين. فرفض ولاية خمارويه متذرعاً أن الخليفة المعتمد فوض حكم ما كان يليه أحمد بن طولون إلى إسحق بن كنداج عامل الموصل والجزيرة قبل سنة ٢٧٠هـ ـ ٨٨٦م. واتفق مع ابن كنداج وحليفه محمد بن أبي الساج والي أرمينية على أن يرسلا بعض القوات إلى الشام. كما أنفذ هو بدوره قوة بقيادة ابنه أبي العباس.

ولما علم خمارويه بمسير القوات إلى الشام، أرسل جيشاً إليها بقيادة كاتب أبيه أبي عبد الله الواسطي وعززه بأسطول قوي من البحر[٢]. استطاعت قوات الموفق وأنصاره أن توقع الهزيمة بالواسطي وتستولي على دمشق، مما اضطر خمارويه إلى المجيء بنفسه إلى الشام سنة ٢٧١هـ ـ ٩٨٤م على رأس جيش كبير واشتبك في معركة مع قوات الموفق بالقرب من الرملة انتهت بهزيمته وعودته إلى مصر[٣]. لكن فلول جيشه سرعان ما باغتوا الجند العباس أثناء انشغالهم في جمع الأسلاب والغنائم وقضوا عليهم قضاء تاماً. وعندما وصلت الأخبار إلى خمارويه أقام البشائر ابتهاجاً لهذا النصر، وعاد إلى الشام فاستولى على مدينة دمشق سنة ٣٧٣هـ ـ ٩٨٦م. ثم تابع سيره لمحاربة ابن كنداج والي

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك... ج ٨ ص ٩١ ـ ١٠٢.
وانظر الكندي: كتاب الولاة... ص ٢٩٦.

(٢) المقريزي: خطط.. ج ١ ص ٣٢١.

(٣) ابو المماس: النجوم الزاهرة... ج ٣ ص ٥٠.

الموصل، فأوقع بجيشه الهزيمة واضطره إلى التقهقر حتى سامرا[(١)].

بعد إحراز هذا النصر استطاع خمارويه أن يأخذ تفويضاً شرعياً من الخليفة المعتمد وأخيه الموفق بتوليته وأبناءه من بعده حكم مصر والشام والثغور الشامية ثلاثين سنة[(٢)].

سعى خمارويه إلى توسيع رقعة نفوذه فاستولى على الرقة، وسيطر على الموصل والجزيرة. كما قضى على حركة ابن أبي الساج ـ والي أرمينية ـ الذي حاول غزو الشام. فالتقى به بالقرب من دمشق وهزمه، ثم أخذ يطارد جيوشه حتى مدينة بلد على نهر دجلة. وهناك أقام احتفالاً وجلس على سرير من الذهب إشارة لانتصاره[(٣)].

ولما توفي الموفق خلف ابنه أبا العباس بولاية العهد ولقبوه المعتضد. فتحولت إليه سلطة أبيه، وسار على سياسته في إضعاف نفوذ عمه الخليفة المعتمد. ولم يلبث أن خلفه بعد وفاته. واستطاع خمارويه أن يتقرب إليه بهداياه، فأقره على ولاية البلاد الممتدة بين الفرات وبرقة ثلاثين سنة، جعلها لأولاده من بعده. وقدم رسول الخليفة على خمارويه يحمل إليه اثني عشر خلعه وسيفاً وتاجاً ووشاحاً[(٤)].

بذل خمارويه كل ما بوسعه لتوطيد علاقته مع الخليفة المعتضد، فعرض عليه زواج ابنته قطر الندى (أو أسماء) من ابنه لكن المعتضد اختارها زوجة له. وأن ما بذله خمارويه في جهاز ابنته لتوفير أسباب الراحة لها كان له أثر سيء في بيت المال في مصر مما حمل بعض المؤرخين على القول بأن الخليفة العباسي

(١) المقريزي: خطط.. ج ١ ص ٣٢١.
(٢) الكندي: الولاة والقضاة... ص ٢٣٦ ـ ٢٣٨.
(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء... ص ٣٤٦.
(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة... ج ٣ ص ٧٨.

كان يرمي من وراء هذا الزواج إلى إفلاس خزانة مصر[1].

لا شك أن هذا التبذير أفقر خمارويه ومما يؤيد ذلك العبارة التي ذكرها التنوخي في كتابه «نشوار المحاضرة» قال: «. . . أضاق خمارويه إضاقة شديدة. . حتى طلب شمعة فاحتبست عليه ساعة إلى أن احتيلت فقال: لعن الله ابن الجصاص أفقرني في السر»[2].

إذا كان نفاذ أموال الخزانة وصل إلى هذا الحد. فكيف يمكن تأمين رواتب الجنود وحثهم على القتال؟ ولعل هذا ما أضعف شأن الدولة الطولونية وسهل على العباسيين استعادة سلطانهم عليها.

توفي خمارويه سنة ٢٨٢هـ ـ ٨٩٥م، فبدأ التنازع على السلطة بين أفراد البيت الطولوني. وانتشرت الفوضى في كافة أرجاء ولاية مصر، مما سهل على الخليفة العباسي المكتفي إعادتها إلى سلطان الخلافة. فأنفذ محمد بن سليمان الكاتب إليها على رأس أسطول بحري، والتقى الأسطولان العباسي والمصري في مدينة تنيس[*]. فحلت الهزيمة بأسطول مصر، ووقعت تنيس ودمياط في يد

---

(١) بلغت نفقات جهاز قطر الندى مليون دينار، كما أعطى خمارويه ابنته مائة ألف دينار لتشتري بها من العراق ما قد تحتاج إليه مما يتعذر وجوده في البلاد المصرية، هذا بالإضافة إلى ما قدم إليها من هدايا، سرير من أربع قطع من الذهب، عليه قبة من ذهب مشبك، في كل عين من التشبيح قرط معلق فيه حجر من الأحجار الكريمة لا يقوم بمال. . . وأمر خمارويه أن يبني لابنته على رأس كل مرحلة في طريقها إلى بغداد قصر تنزل فيه وأعد هذه القصور بكل ما تحتاج إليه من فاخر الأثاث وغيره، لتكون في سفرها ممتعة بكل وسائل الرفاهية كما لو كانت في قصر أبيها.
ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان. . . ج ١ ص ٢١٨.
ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة. . . ج ٣ ص ٥٣.
ـ ابن لقمان، ابراهيم بن محمد المصري: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، القاهرة ١٣٠٩هـ ١٨٩٣م ج ٤ ص ٦٧.

(٢) ذكر ابن لقمان أن عبد الله بن الجصاص الذي عهد إليه خمارويه بإعداد الجهاز، نال جائزته وهي أربعمائة ألف دينار بقيت بعد إعداد كل ما تحتاج إليه العروس. الانتصار لواسطة عقد الأمصار. . . ج ٤ ص ٦٧.

(*) تنيس: مدينة كانت تقع على جزيرة في بحيرة المنزلة.

محمد بن سليمان، وهرب هارون بن خمارويه إلى العباسية (*) حيث قتله عماه عدي وشيبان وخلفه هذا الأخير في ولاية مصر. إلا أن الجند ثار عليه وطلبوا النجدة من محمد بن سليمان الكاتب الذي لبى النداء وقدم إلى الفسطاط، ثم دخل مدينة القطائع وأضرم فيها النار فالتهمت كل شيء ولم يبق فيها إلا الجامع وعاث جنده نهباً وفساداً، وألقى القبض على محمد بن سليمان آل طولون وأعوانهم وأخرجهم مكبلين في الحديد إلى بغداد في رجب سنة ٢٩٢هـ ـ ٩٠٨م حتى لم يبق بمصر منهم أحد[١]. وهكذا زالت الدولة الطولونية بعد أن حكمت مصر زهاء ثمان وثلاثون سنة، وعادت مصر إلى الخلافة العباسية. فأسند الخليفة المكتفي ولايتها إلى عيسى بن محمد النوشري ـ وفي أيامه ثار محمد بن علي الخلنجي ـ أحد قواد الطولونيين مع فريق من الجند محاولين إحياء الدولة الطولونية. ولما علم النوشري بالأمر جهز جيشاً لملاقاتهم، وألحق بهم الهزيمة عند غزة. مما اضطر ابن الخلنجي إلى الهرب والدخول إلى الفسطاط، فرحب به أهل المدينة. ودعي له في الخطبة بعد الخليفة العباسي وإبراهيم بن خمارويه[٢].

استطاع ابن الخلنجي بعد اكتسابه ثقة أهل الفسطاط أن يضبط الأمور في البلاد ويقضي على الفوضى. ويدفع رواتب الموظفين والجند ولكن الخليفة العباسي المكتفي كان له بالمرصاد فأرسل إليه جيشاً بقيادة فاتك المعتضدي، وانتهى الأمر بهزيمته وإلقاء القبض عليه في رجب سنة ٢٩٣هـ ـ ٩٠٩م حيث أرسل إلى بغداد فأمر الخليفة بتطوافه مع أصحابه على ظهور الإبل ثم قتل[٣].

(*) العباسية: بلدة صغيرة، بقع إلى الشمال الشرقي من مدينة بلبيس، سميت نسبة إلى العباسة بنت أحمد بن طولون.

(١) الكندي: الولاة والقضاة. . . ص ٢٤٧.
وأبو المحاسن: النجوم الزهراء. . . ج ٣ ص ١١٢ ـ ١١٣ وص ١٣٧ ـ ١٣٩.

(٢) سيدة كاشف: مصر في عهد الإخشيديين. . . ص ٢١ ـ ٢٢.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة. . . ج ٣ ص ١٥٣.
والمقريزي: خطط. . ج ١ ص ٣٢٧.

توفي عيسى النوشري في أواخر شعبان سنة ٢٩٧هـ ـ ٩١٣م فعين الخليفة العباسي المقتدر أبي منصور تكين والياً على مصر، وفي عهده وجه الفاطميون أولى حملاتهم إلى مصر بقيادة يوسف بن حباسة وأبي القاسم الفاطمي، فحلت بهم الهزيمة واضطروا إلى العودة من حيث أتوا.

وفي سنة ٣٠٢هـ ـ ٩١٥م أنفذ المقتدر القائد مؤنس الخادم إلى مصر فعزل تكين وحل محله حتى أوائل سنة ٣٠٣هـ ـ ٩١٦م عندما أسند الخلية العباس ولاية مصر إلى ذكا الرومي، فوجه اهتمامه لتحصين مصر من الحملات الفاطمية وتوفي سنة ٣٠٧هـ ـ ٩٢٠م(١). فأعاد الخليفة المقتدر تكين إلى ولاية مصر، وأمده بقوات من العراق بقيادة مؤنس الخادم. وكان لتعاون هذه القوات مع الجيش أثر كبير في إلحاق الهزيمة بالفاطميين الذين أعادوا الكرة على مصر سنة ٣٠٨هـ ـ ٩٢١م(٢).

كان من أثر السياسة التي اتبعت في تعيين الولاة وعزل بعضهم مراراً وعبث الجنود العباسيين الذين جاؤوا إلى مصر لصد الفاطميين أن اضطربت الأحوال الداخلية وساءت الحالة المادية فثار الجند وعجز الولاة الضعاف الذين خلفوا تكين بعد عزله سنة ٣٠٩هـ ـ ٩٢٢م من تهدئة الحال، مما اضطر الخليفة المقتدر إلى إعادة تكين والياً على مصر للمرة الثالثة سنة ٣١٢هـ ـ ٩٢٥م. فاستطاع إعادة الأمن والاستقرار إلى البلاد(٣).

وفي سنة ٣٢٠هـ ـ ٩٣٣م توفي الخليفة المقتدر، فخلفه أخوه القاهر بالله. فأقر تكين والياً على مصر وأرسل إليه الخلع(٤). وبعد وفاة تكين سنة ٣٢١هـ ـ ٩٣٤م اضطرب الأمن وانتشرت الفوضى في البلاد بسبب التنافس على الحكم.

(١) الكندي: الولاة والقضاة... ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ ـ ٢٧٦.
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزهراء... ج ٣ ص ١٩٦.
(٣) المصدر نفسه... ج ٣ ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧.
(٤) المصدر نفسه ج٣ ص ٢١١.

بين محمد بن تكين وأبو بكر المذرائي وظل منصب الولاية شاغراً حتى عين الخليفة العباسي القاهر محمد بن طغج والياً على مصر في شعبان سنة ٣٢١هـ ـ ٩٣٤م بقي فيها مدة اثنين وثلاثين يوماً ثم عزله وقلد أحمد بن كيغلغ ولاية مصر للمرة الثانية في شوال سنة ٣٢١هـ ـ ٩٣٤م(*).

لم تهدأ الأحوال بتولية ابن كيغلغ على مصر، بل ازدادت الحالة سوءاً، وأعلن محمد بن تكين أن الخليفة الراضي بالله ولاه مصر، وأدى ذلك إلى نشوب القتال بينهم، وانتهى الأمر بهزيمة ابن تكين، وبالرغم من انتصار ابن كيغلغ فإن الخليفة العباسي عزله وقلد محمد بن طغج ولاية مصر للمرة الثانية سنة ٣٢٣هـ ـ ٩٣٦م، ومنحه لقب أخشيد سنة ٣٢٧هـ ـ ٩٤٠م لبلائه في صد الجيش الفاطمي عن البلاد المصرية.

كانت العلاقة بين الخليفة الراضي وابن طغج تنطوي على المودة، لكنها ما لبثت أن تغيرت عندما طلب هذا الأخير من الخليفة أن يتخذ قراراً يلزم ابن رائق الخزرجي يمنعه من السيطرة على الشام، وأمام عجز الخليفة عن إصدار مثل هذا الأمر لم ير الإخشيد بداً من محاربة ابن رائق وفي سنة ٣٢٨هـ ـ ٩٤١م دارت معركة بين الفريقين في العريش انتهت بهزيمة ابن رائق وعودته إلى الرملة، ثم تداعيا إلى الصلح، واتفقا أن تكون طبرية وما في شمالها من البلاد لمحمد بن رائق، لكن هذا الأخير ما لبث أن نقض الصلح وجاء بجيشه لغزو مصر، حيث دارت معركة بين الطرفين في العريش هزم فيها جيش الإخشيد وانسحب ابن رائق إلى دمشق، ثم أرسل الإخشيد جيشاً لمطاردته. لكنه لم يتمكن من التغلب عليه، وانتهى النزاع بينهما. على أن يحكم ابن رائق الولايات الشامية شمال الرملة، ويدفع إليه الإخشيد جزية سنوية مقدارها أربعون ألف دينار، ولعل الإخشيد اضطر إلى قبول هذا الصلح خوفاً من الخلافة العباسية

(*) كانت المرة الأولى التي تولى فيها أحمد بن كيغلغ ولاية مصر سنة ٣١١هـ بإمرة من الخليفة المقتدر.

التي كانت تميل إلى ابن رائق، وليتفرغ لمواجهة الغزو الفاطمي الذي كان يهدد مصر بصورة مستمرة[١].

توفي ابن رائق سنة ٣٣٠هـ ـ ١٩٤٣م فاغتنم الإخشيد الفرصة واستولى على بلاد الشام، وقد أبدى من المساعدة والإخلاص للخليفة العباسي المكتفي عندما اختلف هذا الأخير مع توزون التركي، فكافأه الخليفة بتقليده ولاية مصر وإعطائه حق توريث إمارتها لإبنائه من بعده مدة ثلاثين سنة. وعندما جاء المستكفي إلى الحكم في جمادى الآخرة سنة ٣٣٣هـ ـ ٩٤٦م، أقر الإخشيد على ولاية مصر والشام[٢]. ثم جاء المطيع فأقره على ولايته وأضاف إليه ولاية الحرمين واليمن. وبهذا أصبح الإخشيد ملكاً على مصر والشام والثغور والحجاز واليمن[٣].

توفي الإخشيد سنة ٣٣٤هـ ـ ٩٤٧م فآلت الوصاية على ولده أوجور إلى كافور المملوك الذي أصبح صاحب السلطة المطلقة في مصر وما يليها من البلاد زهاء إحدى وعشرين سنة[٤]. استطاع كافور التغلب على المشاكل الداخلية والخارجية التي واجهته، فنجح في القضاء على ثورة قام بها أهل مصر، فارتفع شأنه عند الناس عامة. كما انتصر على سيف الدولة الحمداني صاحب حلب انتصاراً حاسماً عندما حاول هذا الأخير الاستيلاء على دمشق بالقرب من مرج عذرا [*]. ودخل الجيش المصري مدينة حلب، وعقدت بين الفريقين معاهدة صلح، بنفس الشروط التي عقدت بها في أواخر أيام الإخشيد، ما عدا الجزية.

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزهراء... ج ٣ ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣. وانظر الكندي: الولاة والقضاة... ص ٢٨٩. وانظر حسن ابراهيم: النفوذ الفاطمي في بلاد الشام... ص ١١.

(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر... ج ٣ ص ٤١٨. وانظر الكندي: الولاة والقضاة... ص ٢٩٢.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزهراء... ج ٣ ص ٣٢٦ وانظر ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب.. ص ٤٤.

(٤) المقريزي: خطط.. ج ١ ص ٣٢٩ ـ ج ٢ ص ٢٧.

(*) مرج عذر يقع بجوار دمشق.

وكان نتيجة ذلك أن حصل كافور على موافقة الخليفة العباسي على تولية الأمير الصغير (أنوجور) على مصر والشام وعلى المدينتين المقدستين مكة والمدينة. كما ضم إلى حكم مصر ـ فيما بعد ـ كلاً من بلاد الشام حتى مدينتي حلب وطرطوس. بذلك عظم شأن كافور، وزادت شهرته واستطاع أن يقبض على زمام الحكم، من غير أن تكون له سلطة تشريعية. وخاطبه علية القوم بالأستاذ، ودعي له على المنابر في مصر والبلاد التابعة لها، وأتيح له بما أغدقه من العطايا والهبات أن يكتسب محبة رؤساء الجند وكبار الموظفين(١).

ولما توفي أنوجور في ذي القعدة سنة ٣٤٩هـ ـ ٩٦٢م. خلفه أخوه أبو الحسن علي بن الإخشيد، وأقره الخليفة المطيع على ولاية مصر والشام والحرمين. وعلى الرغم من أن الوالي الجديد قد ناهز الثالثة والعشرين من عمره، فإن كافور ظل يباشر أمور الدولة بنفسه، وحال بينه وبين القيام بأي عمل يتصل بشؤون الحكم، ومنع الناس من الاجتماع به. وعين له كما عين لأخيه أنوجور من قبل ـ أربعمائة ألف دينار ـ كل، واستمر الحال على ذلك حتى توفي أبو الحسن سنة ٣٥٥هـ ـ ٩٦٨م. وكان الوارث له ولد صغير في التاسعة من عمره يدعى أحمد. اعترض كافور على توليته محتجاً بصغر سنه. وبقيت مصر عدة أيام من غير وال حتى ورد كتاب من الخليفة العباسي يتقلد كافور ولاية مصر(٢).

يصف المؤرخون عهد كافور بأنه كان عهداً أسود، توالت فيه المصائب على مصر، فقد تعرضت بلاد الشام لغارات القرامطة الذين نهبوها وقبضوا على قافلة مصرية كبيرة تحتوي على عشرين ألف جمل كانت ذاهبة إلى مكة لإداء فريضة الحج سنة ٣٥٥هـ ـ ٩٦٨م. ووقعت زلازل مروعة، وشبت نيران هائلة

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزهراء. . . ج ٤ ص ٢. وانظر ابن خلكان: وفيات الأعيان. . . ج ١ ص ٥٤٧.

(٢) ابن سعيد: كتاب المغرب في حلى المغرب. . . ص ٤٦ ـ ٤٩.

دمرت ١٧٠٠ منزل من منازل الفسطاط، وأغار ملك النوبة على مصر فجأة وعاث فساداً في البلاد الواقعة بين الشلال الأول وإخميم، فأحرق بعض المدن وقتل أهلها بالسيف ونهب أموالهم. وكان أشد هذه الأهوال انخفاض ماء النيل الذي بدأ سنة ٣٥١هـ ـ ٩٦٤م، وما تلاه من قحط ووباء، وفشا الموت، حتى عجز الناس عن تكفين الموتى ودفنهم، فاضطروا إلى إلقاء جثثهم في النيل(١).

يضاف إلى ما تقدم ما كان من عجز كافور عن دفع رواتب حرسه وأرزاقهم ـ وكانوا من الأتراك والروم ـ فثاروا عليه(٢). لعل هذا ما دفع لينبول إلى القول بأن «كافوراً كان بلا شك خادماً موفقاً أكثر منه قائداً ناجحاً»(٣).

توفي كافور في جمادى الأولى سنة ٣٥٧هـ ـ ٩٧٠م(٤). واجتمع كبار القواد ورجال البلاط لتعيين خلفاً له، فاختاروا أباالفوارس أحمد ابن علي بن الإخشيد، وكان في الحادية عشرة من عمره، ثم من بعده للحسن بن عبيد الله بن طغج الإخشيد على اعتبار أنه سيخلفه(٥). ولم يلبث هذا الأخير أن قدم إلى مصر هرباً من وجه القرامطة، فأحسن أمراء الأتراك وفادته وولوه قيادة الجيش. ثم عاد إلى الشام تاركاً إدارة البلاد في يد الوزير ابن الفرات الذي لم يستطع أن يدفع رواتب الجند أو يخفف عن الأهالي ما أصبحوا فيه من بؤس وشقاء فاستغل الخليفة الفاطمي المعز لدين الله حالة الفوضى والاضطراب هذه وأنفذ قائده جوهره الصقلي لغزو مصر في شعبان سنة ٣٥٨هـ ـ ٩٧١م(٦).

---

(١) المقريزي: خطط.. ج ١ ص ٣٣٠.

(٢) المصدر نفسه ص ٣٣٠.

(٣) Lane - Poole: History of Egypt in the Middle Age... P 87

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان... ج ١ ص ٥٤٧.

(٥) المقريزي: خطط.. ج ١ ص ٣٣٠ وانظر أبو المحاسن: النجوم الزاهرة... ج ٤ ص ٩.

(٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان... ج ٢ ص ٥٥ ـ ٥٦ وانظر المقريزي: خطط... ج ١ ص ٣٣٠.

الفتح الفاطمي لمصر

أولاً ـ امتداد سلطان الفاطميين إلى مصر

رأى الفاطميون بعد توطيد سلطانهم في بلاد المغرب أن هذه البلاد إذا كانت ميداناً صالحاً لنجاح دعوتهم بيد أنها لا تصلح لتكون حاضرة لدولتهم، لما يستدعيه اتخاذ الحاضرة في موضع يسهل معه التواصل مع الولايات الخاضعة لسلطانهم.

ولا غرو إذا أبدى الخلفاء الفاطميون عناية خاصة بامتلاك مصر، لما لموقعها من الأهمية بمكان سياسياً وحربياً. خصوصاً أن حكام هذه البلاد كانت تابعة إليهم ولاية الشام الحجاز. فكان امتلاك مصر امتلاكاً لهذين البلدي العظيمين. وتأسيس نفوذ الفاطميين السياسي والديني، في ثلاثة من المراكز الإسلامية الكبيرة وهي: الفسطاط والمدينة ودمشق.

ولهذا وجه عبيد الله المهدي نشاطه على أثر تأسيس خلافته بالقيروان إلى وضع الخطط لغزو مصر، فأعد في سنة ٣٠١هـ ـ ٩١٤م جيشاً من المغاربة تحت إمرة ابنه وولي عهده أبي القاسم وقائده حباسة بن يوسف، واستولى هذا الجيش على برقة في طريقه إلى مصر[١]. ثم واصل السير حتى استولى على الإسكندرية وتوغل في الوجه البحري[٢]. فلما علم الخليفة المقتدر العباسي بذلك، أرسل مؤنساً الخادم على رأس جيش كبير لدفع المغيرين، واشتبك الفريقان في معركة ببلدة مشتول القريبة من الجيزة، فانهزم حباسة وعاد إلى بلاد المغرب حيث قتله الخليفة الفاطمي على أثر رجوعه[٣].

أن أهمية هذه المعركة رغم فشلها تدل عن ميل كثير من المصريين إلى

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا. . . ص ٤١ ـ والخطط. . . ج ١ ص ٣٢٧.

(٢) الكندي: كتاب الولاة. . . ص ٢٦٨.

(٣) عريب بن سعد: صلة تاريخ الطبري. . . ص ٥٣.

الدعوة الفاطمية، وهذا يؤكد صحة ما ذكره الكندي من أن «جماعة من المصريين كاتبوا الفاطميين ودفعوهم إلى غزو مصر»[1]. وقد حاول ذكا والي مصر الجديد أن يضع حداً للأعمال التي قام بها الموالون للفاطميين، فسجن منهم الكثير وقطع أعضاء بعضهم، كما أجلى أهل لوبية ومراقية إلى الإسكندرية خوفاً من غزو بلادهم مرة جديدة[2].

رأى عبيد الله أن يعاود الكرة لفتح مصر، فأرسل في سنة ٣٠٧هـ ـ ٢٠م ابنه أبي القاسم على رأس جيش كبير استولى على الإسكندرية دون عناء، ثم سار إلى الجيزة وأخذ يتوغل في بلاد الوجه القبلي حتى تمكن من الاستيلاء على الأشمونين والفيوم.

عندما بلغ الخليفة المقتدر العباسي خبر نجاح الفاطميين في الزحف على مصر أرسل قائده مؤنس الخادم إلى مصر ثانية. فانتصر على الفاطميين وأحرق العديد من مراكبهم، كما قتل وأسر معظم جنودهم وقوادهم[3]. وكان من تأثير هذه الغزوة في بغداد والفسطاط كبيراً، حتى أن الخليفة العباسي لقب مؤنساً «بالمظفر» في وسط مظاهر الاحتفالات والتكريم، إشادة بذكر هذا الانتصار[4].

على الرغم من الجهود التي بذلها المهدي وابنه أبي القاسم في سبيل استيلائهم على مصر، فإن الأمور لم تحالفهم لأن الخليفة العباسي كان لا يزال من القوة بحيث يستطيع دفع الفاطميين عن هذه البلاد. إذ كان لا بد من تأجيل هذه الحملات فترة من الزمن حتى اضطربت أحوال الخلافة العباسية في بغداد بعد وفاة الخليفة المقتدر وانقسام القادة الأتراك على أنفسهم، فاتخذ عبيد الله المهدي من ذلك فرصة سانحة لمعاودة فتح مصر واتفق مع أبي طاهر الجنابي

---

(١) االكندي: كتاب الولاة... ص ٢٧٢.

(٢) المصدر نفسه... ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا... ص ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٤) مسكوية: تجارب الأمم... ج ١ ص ٧٦.

على إثارة الاضطراب في بلاد المشرق في الوقت الذي تزحف فيه جيوشه إلى مصر، وأرسل حملة إلى تلك البلاد سنة ٣٢١هـ ـ ٩٣٤م تحت قيادة حبشي بن أحمد المغربي، فحدثت مناوشات بين جنود الفاطميين والمصريين، ثم عقدت هدنة في صفر سنة ٣٢٢هـ ـ ٩٣٥م بين الطرفين المتحاربين غير أن هذه الهدنة لم يطل أمدها. فنشبت عدة وقائع في بعض المدن كالجيزة وبولاق وبليس[١]. ثم أوقع محمد بن طغج الإخشيد الهزيمة بالفاطميين في جمادى الأولى سنة ٣٢٢هـ ـ ٩٣٥م فاضطروا إلى العودة إلى بلاد المغرب[٢].

توفي الخليفة عبيد الله المهدي، فتابع ابنه أبو القاسم الذي تلقب بالقائم سياسته في غزو مصر. فأرسل جيشاً إليها في أواخر سنة ٣٢٣هـ ـ ٩٤٦م وصل الإسكندرية في ربيع الثاني سنة ٣٢٤هـ ـ ٩٣٧م بعد أن انضم إليها بعض زعماء المصريين ممن اعتنقوا المذهب الفاطمي. فأنفذ إليهم الإخشيد قوة كبيرة استطاعت أن توقع بهم الهزيمة وترغمهم على العودة إلى إفريقية[٣].

بعد هذه الهزائم التي لحقت بالفاطميين لم يقم الخليفة القائم بمحاولة عسكرية لفتح مصر بل لجأ إلى المفاوضة رغبة منه في أن تفعل سياسة اللين والمسالمة ما لم تفعله سياسة العداء والحرب، وأرسل إلى محمد الإخشيد رسولاً يحمل كتاباً يطلب فيه صداقته هذا نصه: «قد خاطبتك أعزك الله لي كتابي المشتمل على هذه الرقعة بما لم يجز لي في عقد الدين، وما جرى به الرسم من سياسة أنصار يستجلبون، وضمنت رقعتي ما لم يطلع عليه أحد من كتابي ونوى المكانة عندي وأرجو أن تردك صحة عزيمتك وحسن رأيك إلى ما أدعوك إليه، فقد شهد الله على ميلي وإيثاري لك، ورغبتي في مشاطرتك ما حوته يميني واحتوى عليه ملكي. وليس يتوجه لك العذر في التخلف عن إجابتي، لأنك قد

---

(١) الكندي: الولاة... ص ٢٨٤.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٨٥.

(٣) الكندي: الولاة والقضاة... ص ٢٨٧.

استفرغت مجهودك في مناصحة قوم لا يرون إحسانك ولا يشكرون إخلاصك، يخلفون وعدك ويخفرون ذمتك، لم يعتقد منهم أحد حسن المكافأة ولا جميل المجازاة. وليس ينبغي لك أن تعدل عن منهج من نصحك وإيثار من آثرك، إلى من يجهل موضعك ويضيع حسن سعيك. وأنا أعلم أن طول العادة في طاعتهم قد كره إليك العدول عنهم. فإن لم تجد من نفسك معونة على اتباع الحق ولزوم الصدق، فإنني أرضى منك بالمودة والأمر والطاعة، حتى تقيمني مقام رئيس من أهلك، تسكن إليه في أمرك، وتعول عليه بمثل ذلك، وإذا تدبرت هذا الأمر، علمت أن الذي يحملني على التعاطي لك وقبول الميسور منك، إنما هو الرغبة فيك. وأنت حقيق بحسن مجازاتي على ما بذلته، والله يريك حسن الاختيار في جميع أمورك، وهو حسبنا ونعم الوكيل»(١).

تسلم الإخشيد الكتاب، ولم يسلم رسول الخليفة الفاطمي الرد تاركاً لنفسه فرصة التفكير في الأمر متذرعاً . . . بأنه لا يقرأ ولا يكتب، ولا يجوز له أن يبوح بما في نفسه إلى كاتب، ثم قال: «أنا أتدبر الجواب، وأجيب عنه وسيصل مع من أثق به، وأسلك من حسن الموالاة ما لم يكن غيري يسلكه»(٢).

أدرك الإخشيد مطامع الخليفة الفاطمي في السيطرة على بلاده، وهو الذي كان يحرص على بقائه تحت لواء الخلافة العباسية. إذ أن ضعفها ـ الذي بدأ يلوح في الأفق ـ يتيح له التمتع بالاستقلال. غير أن أموراً حدثت فبدلت صلة هذه المودة التي ربطت الإخشيد بالخليفة العباسي، على أثر ما وصل إليه من أن الخليفة العباسي قلد محمد بن رائق الخرزي ولاية الشام سنة ٣٢٨هـ ـ ٩٣٧م. فثارت ثائرة الإخشيد وأمر بقطع الخطبة لهذا الخليفة وذكر اسم الخليفة الفاطمي إلا أن بعض أخصائه نصحوه بالعدول عن ذلك.

اقتنع الإخشيد أن سياسة الخليفة العباسي الراضي تجاهه أصبحت غير

---

(١) ابن سعيد: كتاب المغرب. . . ص ٢٥ ـ ٢٦.
(٢) المصدر نفسه. . . ص ٢٦.

مرضية، فسعى لتوثيق علاقته مع الخليفة القائم الفاطمي. وبعث إليه كتاباً يعرض عليه زواج ابنته من ولي عهده المنصور. وأجاب الخليفة الفاطمي على ذلك بكتاب ورد فيه: «وصل كتابك، وقد قبلنا ما بذلت وهي وديعة لنا عندك، وقد منحناها من بيت مالنا قبلك مائة ألف دينار، فوصل ذلك إليها»(١).

حنق الإخشيد من كتاب الخليفة القائم لما يخفيه من إشارات خفية تظهر والي مصر وكأنه أحد ولاة السلطة الفاطمية. وهو الذي كان يظن أن القائم سيرسل إليه من الأموال والهدايا ما يفخر به. ففشل مشروع الزواج(٢).

توفي الإخشيد فاستأثر كافور بالسلطة في مصر، وحرص على تحسين خلافته بكل من الخليفة العباسي والخليفة الفاطمي ـ «يهادي المعز صاحب المغرب، ويظهر ميله إليه. وكذا يذعن بالطاعة لبني العباس ويداري ويخدع هؤلاء وهؤلاء»(٣).

تولى الخليفة المنصور بعد وفاة أبيه القائم سنة ٣٣٤هـ ـ ٩٤٧م. فلم يقم بأية محاولة لغزو مصر لانشغاله بضبط الأمور في بلاد المغرب.

في سنة ٣٤١هـ ـ ٩٥٤م استلم المعز خلافة الدولة الفاطمية فحاول الكرة للاستيلاء على البلاد المصرية ممهداً بذلك بنشر الدعوة قبل البدء بالحملات العسكرية، فقدمت رسله إلى كافور تدعوه إلى الاعتراف بسيادته فرحب بهم دون أن يعطيهم أي رد حاسم، على حين استطاع دعاة الفاطميين أن يأخذوا البيعة للمعز من رجال بلاطه وكبار موظفي دولته(٤).

توفي كافور سنة ٣٥٧هـ ـ ٩٧٠م فوقع اختيار رجال البلاد على حفيد الإخشيد أبي الفوارس أحمد الذي لم يكن قد تجاوز الحادية عشرة من عمره.

---

(١) ابن سعيد: كتاب المغرب . . . ص ٥٧.

(٢) سيدة إسماعيل كاشف: مصر في عصر الإخشيديين، القاهرة ١٩٥٠ ص ٣٦١ ـ ٣٦٢.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة. . . ج ٤ ص ٦.

(٤) المقريزي: خطط. . . ج ٢ ص ٢٧.

فاغتنم الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات الفرصة، واستقل بتدبير أمور ولاية مصر، فقبض على بعض كبار الموظفين وذوي الرأي وصادر أملاكهم، وكان من بينهم يعقوب ابن كلس[*] الذي ظل معتقلاً حتى شفع له الشريف أبو جعفر مسلم بن عبيد الله الحسيني عند الوزير ابن الفرات فأطلق سراحه، ولم يلبث ابن كلس أن هرب إلى بلاد المغرب حيث التقى الخليفة المعز ودله على نقاط الضعف في مصر وشجعه على غزوها.

ساءت أحوال مصر في عهد ابن الفرات وأصبحت مسرحاً للفوضى، وحل بها الوباء والقحط من جراء انخفاض مياه النيل وفقدت الحكومة كل هيبة واستقرار وأعلن الجند العصيان بعد أن عجزت الدولة عن دفع رواتبهم مما حمل العديد من أولي الرأي في مصر على الكتابة إلى المعز لدين الله يطلبون إليه القدوم إلى مصر لإنقاذها من التدهور الذي أصابها بعد وفاة كافور[١].

كان الخليفة المعز يعد العدة لفتح مصر منذ سنة ٣٥٦هـ ـ ٩٦٩م فأمر بإنشاء الطرق وحفر الآبار في طريق مصر، وأقام المنازل على رأس كل حملة. ولما وصلته الأخبار بوفاة كافور سنة ٣٥٧هـ ـ ٩٧٠م أخذ في إعداد المال اللازم لتجهيز حملة لفتح مصر، كما بعث إلى دعاته في البلاد الإسلامية أعلاماً وأمرهم أن يوزعوها على الجند الذين يؤيدون بيعته لينشروها إذا ما اقتربت عساكره من مصر[٢].

عهد المعز لدين الله إلى جوهر الصقلي بقيادة الحملة التي أعدها لفتح مصر، ويحدثنا المقريزي فيقول: عندما خرج المعز لوداع جوهر خطب في

(*) كان يعقوب بن كلس يهودياً، نشأ ببغداد، ثم سافر مع أبيه إلى الشام، ورحل منها إلى مصر حيث اتصل بكافور، فأعجب بذكائه وعينه في ديوانه الخاص، ولما أظهر إسلامه في شعبان سنة ٣٥٦هـ، زادت مكانته عند كافور.

ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان. . . ج ٣ ص ٤٦١.

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا. . . ص ١٤٧.

(٢) المصدر نفسه. . . ص ١٤٧.

المشايخ الذين انضووا تحت لواء هذا القائد بهذه الكلمات: «والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر، ولتدخلن إلى مصر بالأردية من غير حرب، ولتنزل في خرابات ابن طولونْ وتبني مدينة تقهر الدنيا»[١].

سارت حملة جوهر إلى مصر في الرابع عشر من شهر ربيع الثاني سنة ٣٥٨هـ ـ ٩٧١م، وكانت منظمة تنظيماً دقيقاً، ومزودة بالأموال الضخمة والرجال والعتاد والمؤن، حتى لا يتطرق إليها الضعف[٢]، ووصل إلى برقة فقدم له صاحبها فروض الطاعة واحتفل بلقائه، ثم مضى في سيره قاصداً الإسكندرية، فدخلها من غير مقاومة.

ولما وردت إلى الفسطاط أنباء وصول جيوش الفاطميين إلى الإسكندرية واستيلائهم عليها، دعا الوزير جعفر بن الفرات أصحاب الرأي والنفوذ للتشاور في الأمر، فاستقر رأيهم على مفاوضة القائد الفاطمي في شروط التسليم وطلب الأمان على أرواح المصريين وأملاكهم. واتفقوا على تأليف وفد للمفاوضة برئاسة الشريف أبي جعفر مسلم الحسيني والقاضي أبي طاهر الذهلي، فالتقى الوفد مع جوهر في مدينة «تروجة» على مقربة من الإسكندرية، وعرضوا عليه مطالب أهل مصر، فأجابهم جوهر إلى ما التمسوه وكتب لهم عهداً تعهد فيه بأن يطلق للمصريين على اختلاف أديانهم ومذاهبهم حرية العقيدة، وأن يقوم بما تطلبه البلاد من وجوه الإصلاح كإقامة شعائر الحج وإصلاح الطرقات، والعمل على استتباب الأمن، وتوفير الأقوات وإصلاح العملة ونشر العدل، كما وعد بترميم المساجد وتأثيثها، وأن تدفع للمؤذنين فيها والأئمة رواتبهم منْ بيت المال. وأن يجري الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره والزكاة والحج والجهاد على ما ورد في كتاب الله وسنة رسوله، كما تعهد جوهر بتأمين المصريين على أنفسهم وأموالهم وأهاليهم وضياعهم[٣].

---

(١) المقريزي: خطط. . . ج ١ ص ٣٧٨.

(٢) يحيى سعيد: التاريخ المموع ص ١٣٢.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا. . . ص ١٤٨ ـ ١٥٣.

لم يقبل أهل الفسطاط هذا الأمان، كما أن جماعة كبيرة من العسكر من أنصار الإخشيديين والكافورية أعلنوا رفضهم لعهد الصلح وقالوا: «ما بيننا وبين جوهر إلا السيف» وولوا قائداً من بينهم يسمى «نحرير» الإمارة(١)، علم جوهر بما اعتزمه أهل مصر من المقاومة، فسار بجيشه في الحادي عشر من شعبان سنة ٣٥٨هـ ـ ٩٧١م إلى الجيزة وعبر النيل عند منية شلقان «شرقي القناطر الخيرية»، ودار القتال بينهم وبين الجند المصريين فقتل منهم عدداً كبيراً، فلم يجد المصريون بداً من التسليم لجوهر وطلب الأمان منه، وطلبوا من الشريف أبي جعفر أن يتولى الأمر بنفسه، فكتب الشريف إليه يهنئه بالفتح ويسأله الأمان من جديد، فأجاب القائد الفاطمي الالتماس. وأذاع على الجند منشوراً يحرم فيه عليهم أن يقوموا بعمل من أعمال السلب والنهب، ثم خرج أبو جعفر مسلم وجعفر ابن الفرات وسائر الأشراف والقضاة والعلماء ووجوه التجار والأعيان إلى الجيزة لاستقبال جوهر. فهدأت الحالة في الفسطاط، وعادت الأعمال التجارية إلى ما كانت عليه(٢). وهكذا أزال سلطان الإخشيديين والعباسيين عن مصر ليبدأ الحكم الفاطمي الذي امتد من المحيط الأطلسي غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً.

تأسيس مدينة القاهرة

إن أول ما يتجه إليه نظر أكثر الفاتحين الذين يقيمون دولتهم على أنقاض دولة أخرى، هو إنشاء حاضرة جديدة تكون قاعدة لملكهم تفي بحاجات دولتهم الناشئة وعلى هذا رفض جوهر اتخاذ كل من الفسطاط والعسكر عاصمة له. وشرع في بناء مدينة شمال الفسطاط في ليلة ١٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ ـ ٩٧١م. كما وضع في الليلة التالية أساس القصر الذي بناه لمولاه المعز، وعرف باسم القصر الشرقي الكبير، ثم أحاط المدينة والقصر بسور كبير. أطلق جوهر على

(١) يحيى بن سعيد: التاريخ المجموع... ص ١٣٢ ـ ١٣٣ وانظر ابن خلكان: وفيات الأعيان... ج ١ ص ١٤٩.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا... ص ١٥٧ ـ ١٥٨.

المدينة الجديدة اسم المنصورية نسبة إلى المنصور أبي المعز، وظلت تعرف بهذه التسمية طوال أربع سنوات حتى قدم المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر وسماها القاهرة المعزية(١).

وقد اختلف المؤرخون حول هذه التسمية، فقال ابن لقمان إنها سميت كذلك لأن أساسها شق على طلوع كوكب رصده أحد الحكماء الذي كان في مصر، وهو كوكب يقال له القاهر. وقيل أيضاً إنها سميت القاهرة، لأنها تقهر من شذ عنها وحاول الخروج على أميرها. ومنهم من قال إنها مأخوذة من قول المعز لجوهر عند مسيره لفتح مصر: «ولتدخلن في خرابات ابن طولون وتبني مدينة تقهر الدنيا»(٢).

أنشأ جوهر بسور القاهرة عدداً من الأبواب وهي: باب النصر من الشمال، وبابا زويلة من الجنوب، وبابا البرقية والمحروق شرقاً (*)، وأبواب السعادة والفرج والخوخة من الغرب. ويعرف أحد بابيْ زويلة باسم باب القوس. وقد مر منه المعز عند قدومه إلى القاهرة، وصار الناس يتبركون بالمرور به، أما الباب الثاني فقد تشاءم منه الناس وهجروه(٣).

وكانت القاهرة وقت إنشائها تشمل أحياء جامع الأزهر والجمالية وباب الشعرية والموسكي والغورية وباب الخلق. ويقال إن المعز لما قدم إليها في أواخر سنة ٣٦٢هـ ـ ٩٧٥م، ورأى أنه لا ساحل لا، لم يعجبه موقعها وقال: «يا جوهر! فاتتك عمارتها ههنا» يريد المقس(٤).

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا... ص١٥٧ ـ ١٥٨.
(٢) المقريزي: خطط... ج ١ ص ٣٧٨.
(*) يعرف باب المحروق اليوم باسم باب الدراسة.
(٣) المقريزي: خطط... ج ١ ص ٣٨٠ ـ ٣٨١.
وانظر القلقشندي: صبح الأعشى... ج ٣ ص ٣٥٢.
(٤) كان المعز يريد بناء القاهرة على النيل عند جامع أولاد عنان الآن.
المقريزي: اتعاظ الحنفا... ص ١٥٨ ـ ١٦٠.

بناء الجامع الأزهر

لما أسس جوهر مدينة القاهرة في نفس الليلة التي دخل فيها مدينة مصر (أي الفسطاط والعسكر). رأى ألا يفاجىء السنيين في مساجدهم بإقامة شعائر المذهب الفاطمي خشية إثارة حفيظة المصريين عليه. فسعى إلى بناء مسجد يكون رمزاً لسيادة الدعوة الفاطمية، كما كانت القاهرة رمزاً لسيادة الفاطميين على مصر. لذلك شرع في بناء الجامع الأزهر في اليوم الرابع عشر من رمضان سنة ٣٥٩هـ ـ ٩٧٢م وتم بناؤه في سنتين تقريباً. وأقيمت فيه الصلاة لأول مرة في اليوم السابع من شهر رمضان سنة ٣٦١هـ ـ ٩٧٤م[١].

وقد سمي هذا الجامع في بادىء الأمر بجامع القاهرة نسبة إلى العاصمة الجديدة التي أنشأها جوهر. وهنالك ما يدل على أن هذه التسمية هي التي كانت تغلب عليه طوال العصر الفاطمي، ذلك أن معظم مؤرخي هذا العصر يذكرونه دائماً باسم جامع القاهرة. أما تسميته بالجامع الأزهر، فيظهر أنها أطلقت عليه في عصر العزيز بعد إنشاء القصور الفاطمية التي كان يطلق عليها اسم القصور الزاهرة. وقال آخرون إنما سمي بذلك لما سيكون له من الشأن العظيم والمكانة الكبرى بازدهار العلوم فيه. على أنه ليس مستبعداً أن يكون الفاطميون قد سموه بالأزهر إشادة بذكر جدتهم فاطمة الزهراء. وقد استمر هذا الجامع يعرف بهذين الاسمين حتى عصر المقريزي في أوائل القرن التاسع الهجري، ثم تقلص الإسم القديم وغلب عليه اسم الجامع الأزهر[٢]. وكان الجامع الأزهر وقت إنشائه يتوسط العاصمة الفاطمية، ويشتمل على مكان مسقوف للصلاة تسمى المقصورة. وآخر غير مسقوف يسمى صحناً بالإضافة إلى منارة وميضأة. وقد بنى فيه القائد جوهر مقصورة كبيرة، وأنشأ بها محراباً يسمى الآن القبلة القديمة.

كما شيد جوهر للجامع منبراً مصنوعاً من الخشب المخروط الجميل

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى... ج ٣ ص ٣٦٤.

(٢) المقريزي: خطط... ج ٢ ص ٢٧٣.

الشكل، تم نقله إلى جامع الحاكم فيما بعد. وكان الخلفاء الفاطميون منذ عهد المعز يحتفلون بإقامة الصلوات يوم الجمعة والأعياد في الجامع الأزهر، وكثيراً ما كانوا يؤمون الناس في الصلاة ويخطبون فيهم. وكانت جميع مساجد القاهرة تتبع في الأذان أصوات المؤذنين في الأزهر بالاستناد إلى مزولة تحدد أوقات الصلوات الخمس لا تزال قائمة إلى اليوم على أحد جدران صحن الأزهر[1].

ثانياً: مصر مقراً للخلافة الفاطمية

منذ أن وضع جوهر الصقلي أساس مدينة القاهرة بدأ في التمهيد لاتخاذها حاضرة للدولة الفاطمية، فأمر بحذف الدعوة للخلفاء العباسيين التي كانت تقام بمساجد القاهرة وأقامها للخليفة المعز، وضرب السكة باسم الخليفة الفاطمي بدلاً من اسم الخليفة العباسي، وعلى أحد وجهيها دعا الإمام معد بتوحيد الإله الصمد وفي السطر الثاني «المعز لدين الله أمير المؤمنين». وفي السطر الثالث: «ضرب هذا الدينار بمصر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة»، وعلى الوجه الآخر: «لا إله إلا الله محمد رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. وعلى أفضل الوصيين وزير خير المرسلين»[2].

كما منع جوهر الناس من لبس السواد شعار العباسيين، وأضاف في الخطبة العبارة التالية: «اللهم صل على محمد النبي المصطفى، وعلى علي المرتضى، وعلى فاطمة البتول، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول، الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيراً، اللهم صل على الأئمة الراشدين، آباء أمير المؤمنين الهادين المهديين»[3]. كما أمر جوهر بأن يؤذن في جميع المساجد «بحي على خير العمل»[4]. وهي من العبارات التي يتميز بها الأذان عند الشيعيين.

---

(١) المقريزي: خطط. . .ج٢ ص ٢٧٣ ـ ٢٧٥.
(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا. . . ص ١٦٤ ـ ١٦٥.
(٣) المصدر نفسه. . . ص ١٦٦.
(٤) المصدر نفسه ص ١٦٩ .

رحب المصريون بهذه التغييرات الدينية التي أدخلها جوهر رغبة منهم أن هذا التغيير قد يصحبه تغيير في أحوالهم الداخلية. فقد وصلوا تحت حكم العباسيين إلى الدرك الأسفل من البؤس والشقاء.

رأى جوهر بعد أن استقر سلطان الفاطميين في مصر أن يكتب إلى المعز يستدعيه ليتولى بنفسه زمام الحكم في البلاد. فلما تأكد المعز أن دعائم ملكه توطدت في مصر. عزم على الرحيل، فاستخلف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي على إفريقية والمغرب[١].

خرج المعز من المنصورية[*] في شوال سنة ٣٦١هـ ـ ٩٧٤م متوجهاً إلى مصر محملاً بالأموال الضخمة وبرفقة كبار رجال الدولة وأفراد عائلته، ومعه رفات آبائه الثلاثة الذين تولوا الخلافة قبله «عبيد الله المهدي، والقائم، والمنصور»[٢]. وسار في طريقه إلى برقة حتى دخل الإسكندرية في شعبان سنة ٩٦٢هـ ـ ٩٧٥م، فاستقبله أعيان البلاد وعلى رأسهم القاضي أبو الطاهر محمد بن أحمد وجلس الخليفة عند منارة الإسكندرية حيث ألقى خطبة قال فيها: «إنه لم يدخل إلى مصر طمعاً في زيادة ملكه ولا المال، وإنما أراد إقامة الحق وحماية الحجاج والجهاد ضد الكفار، وأن يختم حياته بالأعمال الصالحة وأن يعمل مما أمر به جده رسول الله ﷺ. ثم وعظ الحاضرين وخلع على القاضي وبعض رفاقه[٣]، ثم غادر الإسكندرية إلى القاهرة في أواخر شعبان سنة ٣٦٢هـ ـ ٩٧٥م، فوصلها في السابع من رمضان من هذه السنة دون أن يمر على مدينة مصر (الفسطاط والعسكر) ـ وكان أهلها قد أقاموا الزينة على جانبي الطريق ظناً منهم أنه سيزورها ـ وسار متجهاً إلى القصر الذي بناه له جوهر. ولم يكد يصعد إلى إحدى ردهاته حتى ركع ساجداً لله تعالى، ثم صلى ركعتين، وانصرف الناس.

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ. . . ج ٨ ص ٢٠٥.

(*) المنصورية هذه مدينة في تونس وهي غير القاهرة.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا. . . ص ١٨٦.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان. . . ج ٢ ص ١٣٤.

وفي اليوم التالي لوصوله خرج أشراف مصر وقضاتها وأعيانها ورجال العلم فيها لتهنئته والاحتفاء به، ثم أخذ جوهر بعد ذلك يقدم إليه الناس طائفة بعد أخرى[١]. لقى المعز بالقاهرة كثيراً من مظاهر الحفاوة والترحيب. فقدمت إليه الهدايا والتحف بعد أن استقر هو وأسرته وأتباعه بالقصر الشرقي[٢]. ولما انتهى المعز من تقبل الهدايا والتحف، أمر بإطلاق سراح المعتقلين من الإخشيديين والكافوريين الذين اعتقلهم جوهر، وكانوا نحو الألف.

أصبحت مصر بعد قدوم المعز إليها دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة، تابعة للخلفاء الفاطميين في بلاد المغرب. وغدت القاهرة، بدل المنصورية، عاصمة الدولة الفاطمية.

كان لانتقال الخليفة المعز إلى مصر أثره في بلاد المغرب إذ ضعف نفوذ الفاطميين فيها وأعلن ابن بلكين بن زيري استقلاله وأسس الدولة الزيرية في سنة ٣٦٢هـ ـ ٩٧٥م، وحذا حذوه الحماديون في سنة ٣٩٨هـ ـ ١٠٢١م. ولم تأت سنة ٤٤٣هـ ـ ١٠٥٣م حتى تقلص الحكم الفاطمي عن كل بلاد المغرب.

كانت أمور ولاية مصر قد أسندها المعز إلى جوهر بعد الفتح. فأقر الوزير جعفر ابن الفرات في منصبه، كما أبقى على الموظفين المصريين في وظائفهم

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا. . . ص ١٨٥ ـ ١٨٨.

(٢) قدم القائد جوهر إلى مولاه المعز: مائة وخمسين فرساً مسرجة، ملمة، بعضها مذهب، وبعضها مرصع، والبعض الآخر معتبر، وإحدى وثلاثين قبة على نوق (. . . . . .) بالديباج والمناطق والفرش، وثلاث وثلاثين بغلة، وكان منها سبعة مسرجة ملجمة، تتبعها مائة وثلاثون بغلة معدة للنقل، كما كانت الهدية تشتمل أيضاً على أربعة صناديق مشبكة يرى ما بداخلها من أواني الذهب والفضة، ومائة سيف محلاة بالذهب والفضة وشاشية مرصعة في غلاف وتسعمائة آنية فيها طرائف مختلفة، انتخبها جوهر من ذخائر مصر. كما قدم أبو جعفر مسلم بن عبيد الله الحسيني للمعز أحد عشر سفطاً من متاع تونة وتنيس ودمياط. «تونة هي قرية قديمة تقع على مقربة من تنيس وهذه الأخيرة مدينة كانت تقع على جزيرة في بحيرة المنزلة ولها أهمية كبيرة في تاريخ الصناعات الإسلامية».
ـ زكي حسن: كنوز الفاطميين. . . ص ١٥.

وأشرك مع كل موظف مصري موظفاً آخر من المغاربة[١]. وصار جوهر يشرف على إدارة الدواوين وجباية الخراج حتى السابع عشر من المحرم سنة ٣٦٤هـ ـ ٩٧٧م حيث تسلم المعز منه دواوين مصر وجباية أموالها والنظر في أحوالها[٢].

سعى المعز إلى تثبيت قواعد الخلافة الفاطمية في مصر على أسس ثابتة فاستأثر بالنفوذ والسلطان دون مشاركة أحد، باذلاً قصارى جهده لإسعاد شعبه والنهوض بدولته، وقد استطاع بفضل الأموال الكثيرة التي أحضرها معه من بلاد المغرب أن يقيم دولة في مصر تناهض الدولة العباسية.

توفي المعز في ربيع الآخر سنة ٣٦٥هـ ـ ٩٧٧م فخلفه ابنه المعز وهو في الثانية والعشرين من عمره، وكان ذكياً أديباً مستنيراً، يجيد عدة لغات[٣]. تفاقم في أيامه خطر القرامطة وأفتكين في الشام. فكتب العزيز إلى أفتكين يستميله إليه ويعده بحسن المكافأة إذا انسحب من دمشق. لكن أفتكين رفض طلب الخليفة وأرسل إليه كتاباً جاء فيه: «هذا البلد أخذته بحد السيف وما أدين فيه لأحد بطاعة ولا أقبل منه أمراً»[٤].

استاء العزيز من كتاب أفتكين، واستشار وزيره يعقوب بن كلس في الأمر، فأشار عليه بتولية جوهر قيادة جيش يزحف على دمشق ويهاجم أفتكين لإخراجه منها عنوة. ووجد العزيز في جوهر الرجل الوحيد الذي يركن إليه في تهدئة الوضع في بلاد الشام وتثبيت الفتح الفاطمي فيها، كما اعتمد عليه أبوه المعز في فتح مصر بعد أن استعصى على غيره من الخلفاء والقواد.

سار جوهر إلى بلاد الشام سنة ٣٦٦هـ ـ ٩٧٩م على رأس جش عظيم لقتال أفتكين والقرامطة، فلما علم القرامطة بذلك، وكانوا في الرملة، فروا إلى

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا... ص ١٦٨.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان... ج ١ ص ١٤١ ـ ١٤٢.

(٣) الثعالبي: يتيمة الدهر ٤ أجزاء، دمشق ١٣٠٤هـ ج ١ ص ٢٥٤.

(٤) ابن القلانسي: تاريخ ابن القلانسي المسمى ذلك تاريخ دمشق، بيروت ١٩٠٨ ص ١٥ ـ ١٦.

الإحساء، فدخلها جوهر واحتلها ثم تابع سيره باتجاه دمشق. فلما علم أفتكين بالأمر حاول استثارة حماس الدمشقيين قائلاً: «قد علمتم أنني لم أتوسطكم، وأتولى تدبيركم إلا عن رأيكم ومرادكم، وقد طلبني من هذا السلطان ما لا طاقة لي به، وأنا منصرف عنكم وداخل إلى بلاد الروم، وعامل على طلب موضوع أكون فيه، ما أحتاج إليه منه لئلا يلحقكم بقصد من يقصدكم، ما يثقل به الوطأة عليكم، وتصله به المضرة إليكم»[1].

كان لهذه الخطبة أثر بالغ الأهمية في نفس أهل الشام الذين جددوا ولاءهم لأفتكين بقولهم: «أما اخترناك لسياستنا ورياستنا، على أن نمكنك من تركنا ومفارقتنا أو نألوك جهداً من نفوسنا ومساعدتنا؟ ونفوسنا بين يديك في المدافعة عنك»[2].

حاول جوهر استمالة أفتكين باللين والرفق إيثاراً للمسالمة فأرسل إليه عندما وصل الرملة كتاب العفو من مولاه العزيز والعديد من الهدايا، فكتب إليه أفتكين يشكر له حسن سعيه لدى العزيز، واعتذر بعدم قبول أهل دمشق ما جاء في كتابه، ثم سار من عكا إلى طبرية حيث انضم إلى القرامطة وجمع الأقوات من بلاد حوران والبثينة، ودخل دمشق وتحصن فيها استعداداً للقاء القائد الفاطمي.

وصل جوهر إلى دمشق في الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة ٣٦٦هـ ـ ٩٧٩م، فأقام العديد من التحصينات كبناء الأسوار وحفر الخنادق. وبدأت الحرب بينه وبين أفتكين حيث دارت الدائرة على هذا الأخير في ١١ ربيع الأول سنة ٣٦٦هـ ـ ٩٧٩م برغم ما أبداه من شجاعة نادرة كانت موضع إعجاب أهل دمشق الذين أشاروا عليه طلب المساعدة من القرامطة. فكتب أفتكين إلى حسن القرمطي يطلب النجدة. فلبى هذا الأخير النداء وسار إلى دمشق. فخاف

---

(١) ابن القلانسي: تاريخ ابن القلانسي. . . ص ١٦.
(٢) المصدر نفسه ص ١٦.

جوهر[١]. وطلب الصلح على أن يجلو عن دمشق، ولا سيما عندما وجد أن موارده قد نضبت والمؤونة قد أعوزته، وأن معظم جنده قد هلك. أجاب أفتكين لطلب جوهر، فرحل هذا الأخير عن دمشق في ٣ جمادى الأولى سنة ٣٦٦هـ ـ ٩٧٩م إلى طبرية ومنها إلى الرملة. فلما بلغ ذلك الحسن بن أحمد زعيم القرامطة أرسل إليه سرية من الجيش لقتاله، ودارت معركة بين الفريقين انهزم فيها الجيش الفاطمي، ولكن الزعيم القرمطي لم يكتف بذلك بل عقد العزم بالاتفاق مع أفتكين على محاربة القائد الفاطمي، وانضم إليهما أكثر من خمسين ألفاً من أهل الشام، ونزل الجميع عند نهر الطواحين على بعد ثلاثة فراسخ من دمشق، وكان المورد الوحيد للماء في هذه المنطقة.

فلما رأى جوهر أفتكين قد سيطر على مورد الماء كتب إلى العزيز يخبره أنه لا يستطيع البقاء في هذا المكان، وأنه يعجز عن محاربة أفتكين والقرامطة، وطلب إليه أن يسمح له بالتوجه إلى عسقلان، فأذن له العزيز. لكن أفتكين والحسن القرمطي كانا بالمرصاد لخطوات جوهر. فلحقا به إلى هناك وحاصراه فيها.

اشتد الخناق على الجيش الفاطمي في عسقلان وأصبح في مأزق حرج للغاية من شدة البرد والجوع حتى اضطر إلى أكل الدواب الميتة[٢]. عندها لم يجد جوهر بداً من اللجوء إلى المصانعة والمداهنة لفك التحالف بين أفتكين والقرامطة من ناحية، والمحافظة على جيشه الذي أصبح فريسة من ناحية أخرى. فكتب إلى أفتكين يطلب المهادنة وإحلال الوئام والصفاء محل المشاحنة والبغضاء، ثم طلب إليه الاجتماع به، حتى إذا ما تم هذا اللقاء لجأ جوهر إلى الحيلة والدهاء، فأتى أفتكين من ناحية الدين، وطلب إليه حقن دماء المسلمين

(١) لم ينس جوهر مصير جعفر بن فلاح في حربه مع حسن القرمطي حيث أسر وقتل سنة ٣٦٠هـ في موقعة «الدكة» على نهر يزيد بالقرب من دمشق.
(٢) ابن القلانسي: تاريخ ابن القلانسي... ص ١٦ ـ ١٧.

والعمل على إخماد نار الفتنة، على حين كان يعمل في الوقت نفسه على فصم عرق التحالف بين أفتكين والحسن القرمطي. حتى إذا ما تم له ذلك استطاع أن يقضي عليهما جميعاً.

ذكر ابن القلانسي أن جوهراً قال لأفتكين عندما اجتمع به: «علمت ما يجمعني وإياك من حرمة الإسلام وحرمة الدين. وهذه فتنة قد طالت، وأريقت فيها الدماء، نحن المؤاخذون بها عند الله. وقد دعوتك إلى الصلح والموادعة والدخول في السلم والطاعة. وبذلت لك كل اقتراح وإرادة وإحسان وولاية، فأبيت إلا القبول ممن يشب نار الفتنة ويستر عنك وجه النصيحة، فراقب الله تعالى وراجع نفسك، وغلب رأيك على هوى غيرك»، فأجابه أفتكين «أنا والله واثق بك وبصحة الرأي والمشورة منك، لكنني غير متمكن مما تدعونني إليه، ولا يرضى القرمطي بدخوله فيه»، فقال جوهر: «إذا كان الرأي والأمر على ذلك، فإني أصدقك على أمري، تعويلاً على الأمانة وما أجده من الفتوة عندك، فقد ضاق الأمر وامتنع الصبر وأريد أن تمن علي بنفسي وبهؤلاء المسلمين الذين معي وعندي، وتذم (هكذا) لي لأمضي وأعود إلى صاحبي شاكراً. وتكون قد جمعت بين حقن الدماء واصطناع المعروف. وعقدت علي وعلى صاحبي منة تحسن الأحدوثة فيها، وربما أملت المقابلة لك عنها». فقال أفتكين: وأمن على أن أعلق سيفي ورمح الحسن بن أحمد على باب عسقلان، وتخرج أنت وأصحابك من تحتها». فقبل جوهر بذلك وتعاهدا وأخذ ختم أفتكين رهينة على الوفاء بذلك(١). وافترق القائدان، فعاد أفتكين إلى عسكره، ورجع جوهر إلى عسقلان حيث أرسل الهدايا إلى أفتكين.

أرسل أفتكين إلى الحسن القرمطي يخبره بما اتفق به مع جوهر، فامتعض الحسن من هذا الاتفاق وقال لأفتكين: «لقد أخطأت بما فعلته وبذلته، وجوهر هذا ذو رأي وحزم ودهاء ومكر، وقد استغلك بما عقده معك. وسيرجع إلى

---

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق... ص ١٦ ـ ١٧.

صاحبه ويحمله على قصدنا، ثم لا يكون لنا به طاقة، فيأخذنا. ومن الصواب أن ترجع عن ذلك، حتى يهلك هو وأصحابه جوعاً، وتأخذهم بالسيف». فتمسك أفتكين بما عاهد جوهراً عليه وقال: «قد عاهدته وحلفت له، وما أستجيز الغدر به». وقد علق السيف والرمح، فخرج القائد الفاطمي وجنده من تحتهما[1].

إذا كان جوهر قد رضي أن يمر تحت سيف أفتكين ورمح الحسن القرمطي بالرغم مما ينطوي عليه هذا الحل من المذلة والمهانة، إلا أنه كان يعرف تماماً أنه أفضل الحلول لتلافي الخطر المحدق به وبجيشه.

وصل جوهر إلى مصر فأخبر الخليفة العزيز بالله حقيقة الوضع في بلاد الشام، واستفحال أمر أفتكين والقرامطة وإذا «كنت تريدهم، فأخرج بنفسك إليهم وإلا فإنهم واردون على أثري». فأمر العزيز بإعداد العدة، وخرج على رأس جيش كبير مزود بالمؤن والذخائر، وفي مقدمته القائد جوهر[2].

وعندما علم أفتكين والحسن القرمطي بمسير الجيش الفاطمي نحوهم، عادا إلى الرملة حيث تلاقى الجيشان، وحمي وطيس القتال»[3]. وأبلى أفتكين من البطولة والشجاعة ما أدهش العزيز وأرسل إليه رجلاً قال له: قل: «يا أفتكين! أنا العزيز وقد أزعجتني عن سرير ملكي، وأخرجتني لمباشرة الحرب بنفسي، أنا مسامحك، بجميع ذلك، وصافح لك عنه، فاترك ما أنت عليه ولذ بالعفو مني. فلك عهد الله وميثاقه، أني أؤمنك وأطفيك وأنوه باسمك... وأهب لك وأتركه في يدك».

مضى الرسول وأخبر أفتكين برسالة العزيز. فقال أفتكين ارجع لأمير المؤمنين وقل له: «لو تقدم هذا القول منك لسارعت إليه، وأطعت أمره أما الآن

---

(١) ابن القلانسي: تاريخ ابن القلانسي ص ١٧ ـ ١٨.
(٢) المصدر نفسه ص ١٨.
(٣) المقريزي: خطط... ج ٢ ص ٣٨١.

فليس ما ترى»[١]. ثم واصل السير في قتال الفاطميين، فهزمهم وقتل كثيراً من رجالهم. فاضطر العزيز إلى السير بنفسه واشتبك الفريقان في القتال، فدارت الدائرة على القرامطة وأفتكين في الثالث عشر من محرم سنة ٣٦٨هـ ـ ٩٨١م.

وبذلك تم القضاء على الفتنة التي كادت تقوض دعائم الدولة الفاطمية، وألقي القبض على أفتكين وبعض الأسرى. فأخذهم العزيز إلى مصر حيث أحسن إليهم وأمنهم وكساهم وأوكل إليهم الأعمال التي كانوا يقومون بها في بلاد الشام. كما عفا عن أفتكين واستبقاه حياً، وبالغ في إكرامه، فأسكنه داراً فسيحة، وأغدق عليه صلاته وعطاياه، وظل ممتنعاً بنعم العزيز حتى مات في سنة ٣٧٢هـ ـ ٩٨٦م[٢].

وهكذا توطد سلطان الفاطميين في سورية، وأصبحت ولاية فاطمية حاضرتها دمشق، حتى أواخر عهد الدولة الفاطمية.

وفي الثامن والعشرين من رمضان سنة ٣٨٦هـ ـ ٩٩٩م توفي العزيز وهو في الرابعة والأربعين من عمره أثناء خروجه لمحاربة القرامطة فخلفه ابنه الحاكم بأمر الله، وله إحدى عشرة سنة ونصف سنة، وتولى الوصاية عليه مربيه وأستاذه برجوان الخادم[٣].

ويمكن تقسيم خلافة الحاكم بأمر الله إلى أربعة أدوار:

- الدور الأول من سنة ٣٨٦هـ ـ ٩٩٩م إلى سنة ٣٩٠هـ ـ ١٠٠٣م وكان الحاكم في هذه المدة لا يملك من أمور السلطان شيئاً، إذ كانت السلطة في يد ابن عمار، ثم في يد برجوان.

- الدور الثاني من سنة ٣٩٠هـ ـ ١٠٠٣م إلى سنة ٣٩٥هـ ـ ١٠٠٨م، وفيها

---

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص١٧ ـ ١٨.
(٢) المصدر نفسه ص ١٨ ـ ١٩.
(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان... ج ٢ ص ١٥٣.

استلم الحاكم السلطة، فأظهر تعصباً شديداً للمذهب الفاطمي، واضطهد أهل الذمة والمسلمين السنة.

ـ الدور الثالث من سنة ٣٩٦هـ ـ ١٠٠٩م إلى سنة ٤٠١هـ ـ ١٠١٤م، وفي هذه السنة بدل الحاكم سياسة التعصب لسببين:

أ ـ الهجمات المتكررة التي قام بها أبو ركوة على الحدود الغربية لمصر بعد ادعائه النسب الأموي وبأحقيته في امتلاك مصر. ولم يتمكن الحاكم بأمر الله من القضاء عليه إلا بعد جهد كبير، حتى أسر وصلب على أحد أبواب القاهرة.

ب ـ شدة الأهوال التي أصابت مصر من القحط والوباء، واشتداد الغلاء بسبب انخفاض ماء نهر النيل مدة ثلاث سنوات متتالية سنة ٣٩٨هـ ـ ٤٠١هـ[١] ـ ١٠١١م ـ ١٠١٤م.

ـ الدور الرابع من سنة ٤٠١هـ ـ ١٠١٤م إلى سنة ٤١١هـ ـ ١٠٣١م، كانت سياسة الحاكم في هذه الفترة أكثر مزاجية فقد سادها الارتباك والاضطراب، وزاد استياء الناس بالإضافة إلى التفرقة الدينية والضرائب الباهظة وتعسف الجباة المكلفين بتحصيلها[٢].

على أن سياسة الحاكم هذه، وإن كانت قد أثارت سخط المصريين عامة. ساعدت على إقرار الأمن والمحافظة على الآداب العامة، وقضت على الفوضى التي كانت سائدة في أوائل عهده.

وفي هذا العهد ظهرت الطائفة الدرزية[*] التي دعت إلى الإعتقاد بألوهية الحاكم، مما أثار النزاع بينه وبين السنة، ذلك النزاع الذي انتهى بقتله في ليلة الإثنين السابع والعشرين من شهر شوال سنة ٣١١هـ ـ ١٠٣١م. وخلفه ابنه

---

(١) يحيى بن سعد: صلة تاريخ أوتيخا، بيروت سنة ١٩٠٩ ص ١٩٨ ـ ١٩٩.

(٢) المقريزي: خطط... ج ٢ ص ٢٧٨.

(*) محطة تاريخية مهمة سنتكلم عنها لاحقاً.

الظاهر لإعزاز دين الله بعد أيام لوفاته في يوم النحر وكان في السادسة عشرة من عمره[١]. فقامت عمته ست الملك بالوصاية عليه في الفترة الأولى من حكمه، وأظهرت حسن دراية في سياستها. وبذلت العطاء للجند، وظلت تشرف على أعمال الدولة حتى توفيت في سنة ٤١٥هـ ـ ١٠٣٥م.

وفي سنة ٤١٨هـ ـ ١٠٨٣م اختار الظاهر نجيب الدولة علي بن الجرجرائي وزيراً له[*]. فاتخذ القاضي أبا عبد الله القضائي كاتباً له، ونظم شؤون الدولة، كما أظهر حرصاً شديداً على أموالها[٢].

كان الظاهر حكيماً، عاقلاً، لين العريكة، استطاع بحسن سياسته أن يكتسب عطف أهل الذمة ومحبتهم له، فتمتعوا في عهده بالحرية الدينية، كما وجه عنايته إلى ترقية شؤون البلاد وتحسين حالة الزراعة، فأصدر قانوناً منع بموجبه ذبح الأبقار التي تصلح لحراثة الأرض[٣].

قضى الظاهر معظم خلافته في العمل على ضبط الأمور في داخل البلاد وخارجها. لكنه ما لبث أن أصيب بمرض الاستسقاء وتوفي ليلة الأحد منتصف شعبان سنة ٤٢٧هـ ـ ١٠٣٧م. فخلفه ابنه أبو تميم الذي تلقب بالمستنصر[٤]. وهو في السابعة من عمره. وظل في الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر، وكان أطول الخلفاء عهداً. غير أن مصر لم تتمتع طوال هذه المدة بالرخاء والهدوء غير

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان... ج ٣ ص ٣٦٧.

(*) استوزر الحاكم نجيب الجرجرائي، واصله من درجرايا، إحدى قرى بلاد العراق، وعهد إليه بإدارة بعض الدواوين، غير أنه أساء التصرف، فأمر الحاكم بقطع يديه من المرافق، ثم ما لبث أن عينه والياً على ديوان النفقات في سنة ٤٠٩هـ، وظل ينتقل من بعض الوظائف الإدارية في الصعيد حتى اختاره الظاهر وزيراً.
ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان... ج ٣ ص ٣٦٧.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان... ج ٣ ص ٣٦٧.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٩ أجزاء القاهرة ١٩٢٩ ـ ١٩٥٢ ج ٢ ص ٢٥٢.

(٤) ابن خلكان: المصدر نفسه ج ٣ ص ٣٦٧.

فترة قصيرة، ثم حدثت فيها أحداث سياسية واقتصادية واجتماعية كان من أثر ذلك أن تزعزع مركز الخلافة الفاطمية وأصبحت في طريقها إلى الزوال.

وليس أدل على الفوضى التي سادت مصر في عهد المستنصر بالله من تقلد أربعين وزيراً في تسع سنوات من سنة ٤٥٠هـ ـ ١٠٦م إلى سنة ٤٥٩هـ ـ ١٠٦٩م. ثم عاد القحط والغلاء وما أعقبه من الوباء والموت في سنة ٤٥٩هـ ـ ١٠٦٩م، وظلت الحال كذلك إلى سنة ٤٦٤هـ ـ ١٠٧٤م. واقترنت هذه الشدة التي اصطلح المؤرخون على تسميتها «الشدة العظمى» بقيام الفتن والحروب الأهلية، حتى تدارك الأمر بدر الدين الجمالي والي عكا، الذي استدعاه الخليفة المستنصر في سنة ٤٦٦هـ ـ ١٠٧٦م، فأعاد النظام ووجه اهتمامه إلى إصلاح حال البلاد وقضى على المفسدين[١].

توفي المستنصر فخلفه ابنه المستعلي بالله في الثامن عشر من ذي الحجة سنة ٤٨٧هـ ـ ١٠٩٧م ـ بدلاً من تولية أخيه أبي منصور نزار الذي ولاه أبوه عهده ـ بإيعاز من الوزير الأفضل الذي كان حاقداً على نزار بسبب سياسة هذا الأخير المتعالية. فبدأ النزاع بين الأخوين، تعصب الحسن الصباح لنزار وبعد مقتل هذا الأخير في القاهرة سنة ٤٨٨هـ ـ ١٠٩٨م انتقلت هذه الدعوة النزارية إلى إيران على يد الصباح الذي أخذ يدعو إلى الإمام المستور. وبذلك انقسمت الدعوة الفاطمية إلى قسمين: المستعلية، والنزارية أي الدعوة الجديدة.

وفي عهد المستعلي بدأ الصليبيون يغيرون على سواحل بلاد الشام «ستتكلم عنهم لاحقاً». توفي المستعلي فتولى الخلافة بعده ابنه الآمر بأحكام الله في اليوم التاسع من شهر صفر سنة ٤٩٥هـ ـ ١١٠٥م، فاغتنم الوزير الأفضل الفرصة وقبض على زمام الأمور في البلاد، وأخذ يميل إلى الطائفة السنية مما أغاض الخليفة الآمر ودبر مكيدة لاغتياله في إحدى زياراته للقصر.

---

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر، طبعة حزي ماسية. القاهرة سنة ١٩١٩ ص ١٣ ـ ٣٤.

توفي الخليفة الآمر على يد فريق من النزارية فخلفه ابن عمه الأمير عبد المجيد بن أبي القاسم بن المستنصر الذي تسمى بالحافظ بعد أن تخلص من الطفل الذي أنجبه الآمر من إحدى سراريه. ولكن الأمر لم يستقم للخليفة الحافظ، فقد قامت الدعوة لذلك الطفل، ولقب الإمام الطيب، ونقشت الدنانير باسمه وقد جاء فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم! ضرب هذا الدينار بالإسكندرية سنة خمس وعشرين وخمسمائة. وهذا يدل على أن أنصار الطيب اتخذوا مدينة الإسكندرية مركزاً لحركتهم ومستقراً لدعوتهم»(١).

أما بلاد اليمن فقد أعلنت خروجها عن طاعة الخليفة الحافظ، لأن الملكة الحرة الصليحية كانت على علاقة وطيدة مع الآمر بأحكام الله الذي أرسل إليها كتاباً يبشرها فيه بمولد ولي عهده، فلم تعترف بشرعية حكم الحافظ أو أحقيته في إمامة الدعوة الإسماعيلية، التي انقسمت بسبب ذلك إلى مستعلية نسبة إلى المستعلي، وطيبة نسبة إلى الإمام الطيب بن الآمر. اغتنم الوزير أبو علي بن الأفضل الملقب بالأكمل نقمة المصريين على تولية الحافظ فقبض عليه وحبسه واستولى على ما في القصر من أموال وذخائر. وكان هذا الوزير إمامياً فدعا للإمام الثاني عشر ولنفسه على المنابر بأنه «ناصر إمامياً الحق ومالك فضيلتي السيف والقلم»، كما أزال عبارة «حي على خير العمل، ومحمد وعلي خير البشر» من الأذان، وأسقط ذكر إسماعيل بن جعفر الصادق من الخطبة.

كان من أثر هذه السياسة التي اتبعها أبو علي أحمد بن الأفضل أن كرهه المصريون الشيعة وصمموا على قتله، فكمن له جماعة منهم وقتلوه وأخرجوا الحافظ من سجنه فاتخذ أبا الفتح يانس الحافظي وزيراً له(٢).

وفي شهر جمادى الثانية سنة ٥٢٩هـ ـ ١١٣٦م قدم بهرام الأرمني ولي الغربية إلى القاهرة وحاصرها فلم ير الخليفة الحافظ بداً من توليته الوزارة على

---

(١) جمال الدين الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية... ص٩٨ ـ ١٠٢.

(٢) ابن ميسر: تاريخ مصر... ص ٧٥.

الرغم من أنه نصراني. وسرعان ما تزايد نفوذ هذا الوزير، فاستقدم إخوته وأهله من تل باشر وأرمينية، كما سمح للأرمن بالإقامة في مصر، حتى بلغ عددهم ثلاثين ألفاً بعد زمن قصير، وقد سلك هؤلاء الأرمن مع المسلمين مسلكاً عدائياً، وصادروهم في أموالهم وبنوا من الكنائس والأديرة حتى بلغت من الكثرة درجة أقلقت بال المسلمين، فرفعوا شكواهم إلى الخليفة، وبعث الأمراء إلى رضوان بن الولخشي والي الغربية يطلبون النجدة فلبى الدعوة وسار على رأس جيش كبير زاد عدده على الثلاثين ألف إلى مصر، فلما علم بهرام بالأمر ترك القاهرة والتجأ إلى أخيه الباساك والي قوص.

وفي شهر جمادى الأولى سنة ٥٣١هـ ـ ١١٣٨م، تقلد رضوان الوزارة، فشدد على أعوان بهرام واستولى على أملاكهم وقتل العديد منهم. فخاف الحافظ من ازدياد سطوة هذا الوزير فأحضر بهرام وأسكنه في قصره معظماً مكرماً، فعظم الأمر على رضوان واضطر إلى الخروج من القاهرة والذهاب إلى والي صرخد في بلاد حوران من أعمال دمشق حيث جهز جيشاً كبيراً عاد به إلى القاهرة لمحاربة جند الخليفة لكن الحظ لم يحالفه فطارده الأمير أبو الفضل بن وصال وألقى القبض عليه وحبسه في القصر ثم قتله بعد ذلك[١].

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر... ص٨٢ ـ ٨٣.

انصرف الخلفاء الفاطميون بعد سيطرتهم على مصر إلى حياة الترف والدعة، متمتعين بكل أنواع الملذات في الحياة، تاركين أمور الناس وشؤون الدولة إلى خدامهم. فاغتنم الوزراء الفرصة واستأثروا بالمناصب شيئاً فشيئاً، حتى كانوا يلقبون أنفسهم بلقب «ملك»، بينما كان الخلفاء منزوين في بيوتهم وقد أصبحوا ألعوبة في أيديهم. وليس أدل على ذلك ما فعله الوزير أبي علي بن الفضل بعد حبسه للخليفة الحافظ وإعلانه بأنه «مولى الأمم وهادي العصاة»[١].

إن عدم التعاون بين الخلفاء والوزراء بلغ في معظم الحالات حد العداء والصدام بين الطرفين. ثم التنافس بين الطموحين من رجال الدولة على الفوز بمنصب الوزارة. وهو التنافس الذي تحول في بعض مراحله إلى تطاحن دموي عنيف، لم يتردد كل طرف من الأطراف المتنازعة في الاستعانة بأمراء الدول المجاورة مما ترتب عليه تطلع هؤلاء الأمراء إلى بسط سلطانهم عليها، فقد انفرد شاور[*] الذي كان والياً على الصعيد بالسلطة بعد تخلصه من الوزير العادل بن طلائع بن زريك في الثاني والعشرين من محرم سنة ٥٥٨هـ - ١١٦٣م، غير أن ضرغام أحد قواد الجيش ما لبث أن ثار عليه وتقلد الوزارة، فاضطر شاور إلى الالتجاء بنور الدين محمود صاحب دمشق ليمده بقوة يستعين بها على استعادة نفوذه.

يقول أبو المحاسن أن شاور «أطمع نور الدين في الديار المصرية، وقال له: أكون نائبك بها، وأقنع بما تعين لي من الضياع والباقي لك»[٢]. كذلك تعهد شاور لنور الدين أن يدفع له ثلث دخل البلاد «ويتصرف على أمره ونهيه واختياره»[٣].

---

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر.. ص٧٥.

(*) شاور هو عربي الأصل اتصل بالوزير طلائع بن رزيك ونال حظوة لديه، فولاه الصعيد. وغدا مركزه من الخطر بحيث لم يجرؤ ابن رزيك على عزله من منصبه.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة... ج ٥ ص ٣٤٦.

(٣) أبو شامة: كتاب الروضتين... ج ١ ص ١٣٠.

تردد نور الدين في بادىء الأمر في إرسال حملة إلى مصر، خوفاً من أن يتورط في ذلك المشروع وهو لا يزال أمام أعداء أقوياء في الشام، وبعد أن استخار نور الدين القرآن قوي عزمه، وأرسل حملة صحبة شاور إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه، ورافق شيركوه في تلك الحملة ابن أخيه صلاح الدين الذي كان عندئذ في السابعة والعشرين من عمره. ولما وصلت الحملة إلى القاهرة تصدت لضرغام وتغلبت عليه، وبذلك خلا الجو لشاور، فأعيد إلى منصبه في الوزارة في رجب سنة ٥٥٩هـ ـ ١١٦٦م[١].

بعد أن حصل شاور على غرضه، توطدت أقدامه، وأضحت قوته ثابتة الأساس. بعد أن أمن ما كان يخوفه، تخل عن حليفه نور الدين، فلم يف بما عاهده عليه، وأرسل إلى أسد الدين شيركوه يطلب منه الرجوع إلى الشام، ولم يكتف بذلك، بل بعث إلى أملريك (Amalric) ملك بيت المقدس يستمده ويخوفه من نور الدين إن ملك الديار المصرية، فسارع إلى تلبية طلبه، وأرسل جيشاً أرغم شيركوه بالعودة بجنده إلى الشام في ذي الحجة سنة ٥٥٩هـ ـ ١١٦٦م.[٢]

ترك شيركوه مصر لكنه لم يخفق في حمله، فقد عرف ما كان يسود هذه البلاد من الفوضى، فأطعمه ذلك في امتلاكها. لذلك بقي في الشام مدة يعد العدة في تجهيز حملة ثانية آملاً في تأسيس إمبراطورية لنفس، واستمر حتى سنة ٥٦٢هـ ـ ١١٦٩م يدبر الخطط مع نور الدين[٣].

لكنه من الملاحظ أن الطمع في ثروة مصر والخوف من أن يستفيد منها الصليبيون حربياً ومادياً، لم تكن الدوافع الوحيدة لاهتمام نور الدين في ذلك

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، نشر جمال الدين الشيال ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧ ص ١٣٩، وانظر عمارة اليمين في النكت العصرية ص ٧٣.

(٢) ابو المحاسن: النجوم الزاهرة... ج٥ ص٣٤٧.

(٣) ابن شداد (القاضي بهاء الدين): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٤٣. وانظر أبو المحاسن: النجوم الزاهرة... ج ٥ ص ٣٤٨، وابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٦٢هـ.

الدور بأمر مصر، وإنما كان هناك بالإضافة إلى ما ذكرنا دافع آخر مذهبي له أهميته في توحيد الجبهة الإسلامية. ذلك أن الخلافة الفاطمية بوضعها في مصر كانت مصدراً من مصادر الفرقة في العالم الإسلامي، لأن قيامها في القاهرة كان كفيلاً ببقاء المذهب الشيعي حياً ـ على الأقل في مصر ـ في حين ساد المذهب السني بلاد الشام وغالبية العراق. ويحتمل أن يكون قد دارت مباحثات واتصالات قوية بين نور الدين وقائده شيركوه من ناحية والخليفة العباسي من ناحية أخرى، وذلك قبل أن يعهد نور الدين إلى شيركوه بمهمة غزو مصر مرة ثانية[١].

وثمة أسباب أخرى ذكرها المؤرخ أبو المحاسن، جعلت نور الدين يرسل شيركوه مرة ثانية إلى مصر، أهمها أن الخليفة العاضد الفاطمي عندما رأى استبداد شاور وأنه غلب عليه، أرسل إلى نور الدين يستنجده، ويعلمه أن شاور «قد استبد بالأمر وظلمِ وسفك الدم» هذا إلى أنه كان في قلب نور الدين من شاور حزازة لكونه غدر بأسد الدين شيركوه واستنجد عليه بالفرنج[٢].

غادرت حملة نور الدين الثانية دمشق باتجاه مصر في ربيع الأول سنة ٥٦٢هـ (كانون أول ـ كانون ثاني ١١٦٩ ـ ١١٧١م) بقيادة شيركوه وبصحبته أيضاً ابن أخيه صلاح الدين[٣]. ووافق وصولهم إلى مصر وصول الفرنجة الذين استنجدهم شاور للمرة الثانية.

أراد الفرنجة أن يعقدوا اتفاقية مع الفاطميين قبل أن يقوموا بمحاربة شيركوه، فتعهد لهم شاور بدفع أربعمائة ألف دينار في حالة بقائهم، حتى طرد شيركوه من مصر، بشرط أن يدفع نصف هذا المبلغ فوراً، وكان أن رحب الفرنجة بتلك الاتفاقية التي تجعل منهم حماة مصر والخلافة الفاطمية. ولدعم

(١) أبو شامة: شافعي من أهل دمشق: كتاب الروضتين في أخبار الدولتينع ج ٤ ص ١٦٨.
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة... ج ٥ ص ٣٤٨، وانظر سعيد عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى... ص ٢٠٨.
(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية... ص ٦٥.

هذه الاتفاقية وإعطائها صيغة رسمية، أرسل عموري الأول (ملك الفرنجة) سفارة إلى الخليفة الفاطمي زارته في قصره الفخم حيث تم إبرام الاتفاق في صورته النهائية، وعاد رسل الفرنجة، ولا حديث لهم إلا عظمة الجيش الفاطمي[١]. استعد الفاطميون والصليبيون لمهاجمة شيركوه وعبروا النيل إلى الضفة الغربية، عندئذ أدرك شيركوه حرج موقفه فاتجه إلى الصعيد وفي أثره عموري الأول وشاور[٢]. والتقى الفريقان في مكان يعرف بالبابين على مقربة من الميناء فكان النصر حليف شيركوه الذي رأى بعد ذلك أن يسير إلى الإسكندرية، فدخلها من غير مقاومة وعين ابن أخيه صلاح الدين والياً عليها[٣].

أما قوات الفرنجة والمصريين فغادرت إلى القاهرة بعد واقعة البابين، ثم زحفت إلى الإسكندرية حيث قامت بحصارها براً، بينما كان أسطول الصليبيين يحاصرها بحراً، ولم يكن لدى صلاح الدين من الجند ما يمكنه من رفع الحصار، فأسرع أسد الدين شيركوه إلى نجدته. ولم يلبث المصريون والفرنجة أن أسرعوا إليه يطلبون الصلح. فأجاب طلبهم وتم الاتفاق إلا يقيم الفرنجة في البلاد المصرية، ثم عاد إلى دمشق[٤].

على أن جميع قوات الفرنجة لم تغادر مصر تنفيذاً لهذا الصلح، بل عقدت مع شاور معاهدة، كان من أهم شروطها: أن يكون لهم بالقاهرة حامية تحرس أبواب القاهرة، فضلاً عن مندوب ـ أو شحنة ـ عن الملك عموري يشارك في شؤون الحكم[٥]. كما اتفق الطرفان على أن يكون للصليبيين مائة ألف دينار سنوياً من دخل مصر[٦].

---

(١) سعيد عاشور: بحوث ودراسات. . . ص ٢٠٩.
(٢) أبو شامة: كتاب الروضتين. . . ص ١٤٢.
(٣) عاشور: دراسات وأبحاث. . . ص ٢٠٠.
(٤) حسن ابراهيم حسن: الدولة الفاطمية. . . ص ١٩٣.
(٥) ابن الأثير: التاريخ الباهر. . . ص ١٣٧.
(٦) ابن واصل: مفرج الكروب. . . ص ١٥٢.

وقد عقب صاحب كتاب الروضتين على هذه الشروط بقوله: «هذا كله يجري بين الفرنج وشاور، وأما الخليفة العاضد فليس له من الأمر شيء، ولا يعلم شيئاً من ذلك، قد حكم عليه شاور وحجبه وعاد الفرنج إلى بلادهم وتركوا جماعة من فرسانهم ومشاهيرهم وأعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة»[١].

أخذ شاور يتخوف من المساعدة الصليبية التي تحولت إلى حماية، بل إلى نوع من الوصاية على الدولة الفاطمية، فوجود مندوب عن ملك بيت المقدس الصليبي في القاهرة يشاركه في شؤون الحكم، ووجود حامية من الصليبيين تحرس أبواب القاهرة، كل ذلك أزعج المفكرين المسلمين[٢]. وفي الوقت الذي كان الشعور الديني في العالم الإسلامي معبأ ضد الصليبيين والدعوة إلى الجهاد يتردد صداها في مشارق العالم الإسلامي ومغاربه، إذا بالمسؤولين في الدولة الفاطمية يستعينون بالصليبيين ويطلبون حمايهم ضد قوة إسلامية أخرى.

وقد ذكر ابن الأثير أن أولئك الصليبيين الذين استعان بهم شاور أساءوا معاملة أهل البلاد «وحكموا على المسلمين حكماً جائراً وركبوهم بالأذى»[٣]. هذا إلى أن الضريبة السنوية التي فرضها عموري على شاور ـ وهي مائة ألف دينار ـ أثقلت كاهل ميزانية الدولة الفاطمية، في الوقت الذي ضعفت تلك الدولة ونضبت مواردها. وهكذا لم يجد شاور وهو صاحب السياسة المتقلبة مفراً ـ أمام ضغط الرأي العام وشعوره بالاستياء ـ من أن يغير سياسته ويتصل بنور الدين محمود طالباً مساعدته في التخلص من الحماية الصليبية[٤]. كما بعث إليه الخليفة العاضد لدين الله يستنجد به، وتعهد بأن ينزل له عن ثلثي بلاد مصر،

---

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين... ص ١٤٣.
(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر... ص ١٣٧.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ... حوادث سنة ٥٦٢هـ.
(٤) ابن شداد: سيرة صلاح الدين... ص ٦٧ ـ ٦٨.

وأن يأذن لأسد الدين شيركوه بالإقامة عنده مع جنده، وأن يكون إقطاع هؤلاء الجند خارجاً عن ثلث البلاد الذي أفرده لنور الدين(١).

كان نور الدين محمود لا يمكن أن يترك الصليبيين يحتلون مصر، فلم تكد رسائل النجدة تصل إليه حتى سارع إلى تجهيز قوة من حرسه الخاص ومن التركمان بقيادة أسد الدين شيركوه، وانضم إليهم عدد كبير من الأمراء وبعض أقاربه ومن بينهم ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، ومضوا جميعاً في سيرهم نحو مصر. فلما وصلوا إلى القاهرة كان لا يزال أملريك معسكراً بقواته أمام أسوارها، فرحب به المصريون، واستقبلوه استقبال المخلص. وقد عسكرت قواته عند باب اللوق على باب القاهرة. فاستدعاه الخليفة العاضد وخلع عليه خلعة الوزارة ولقبه بالمنصور، وأخذ أرباب الدولة يترددون إلى خدمته في كل يوم(٢).

كان من الطبيعي أن يحقد شاور على شيركوه، وخاصة بعد أن ظهر تأييد الخليفة له، فأرسل شاور مرة أخرة إلى الصليبيين يستدعيهم لنجدته ويقول لهم «لا يكون مجيئكم في دمياط في البحر والبر»(٣). بل أن شاور دبر مؤامرة للقبض على شيركوه وأمرائه أثناء وليمة يدعوهم إليها، ولكن ابنه الكامل نهاه عن ذلك وقال له: «والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرفن أسد الدين»، فقال شاور: «والله لئن لم تفعل هذا لنقتلن كلنا». فرد عليه الكامل بقوله: «صدقت ولن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكتها الفرنج». وكان شاور قد تعهد بدفع ثلث أموال البلاد لشيركوه، فلما أرسل الأخير يطلب منه الوفاء بوعده. أخذ يماطل في انتظار وصول الصليبيين لنجدته. وأخيراً أدرك «أعيان الدولة بمصر» خطر سياسة شاور وسوء نيته، فاجتمعوا عند شيركوه

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب... ص ١٥٨، وانظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ... حوادث سنة ٥٦٤هـ.

(٢) ابن شداد: سيرة صلاح الدين... ص ٦٨.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة... ج ٥ ص ٣٥١.

وقالوا له «شاور فساد العباد والبلاد، وقد كاتب الفرنج، وهو يكون سبب هلاك الإسلام». وطالبوا بقتله[1].

هكذا انتهت حياة ذلك الوزير الذي استبد بالسلطة في أواخر العصر الفاطمي واستعان بالعناصر الأجنبية لتثبيت نفوذه. وأصبح أسد الدين شيركوه صاحب السلطان الفعلي في البلاد، فاتخذه العاضد وزيراً له، وقلده جميع أمور الدولة، فجاء في سجل تعيينه وزيراً: «وقلدك أمير المؤمنين أمر وزارته وتدبير مملكته، وحياطة ما وراء سرير خلافته، وصيانة ما اشتملت عليه دعوة إمامته، وكفالة قضاة المسلمين. وهداية دعاة المؤمنين. . .»[2]. كما أوصاه بأن يحسن معاملة رعاياه بقوله: «والرعايا قد علمت ما نالهم من إجحاف الجبايات وإسراف الجنايات، وتوالى عليهم من ضروب النكايات فاعمر أوطانهم التي أخرجها الجور والأذى، وأنف من مواردهم الكدر والقذى. وأحسن حفظ وديعة الله تعالى منهم، خفف الوطأة ما استطعت عنهم، وبدلهم من بعد خوفهم أمناً»[3].

استطاع أسد الدين شيركوه في الفترة القصيرة التي قضاها في الوزارة والتي لم تتعد الثلاثة أشهر، أن يقبض على زمام الأمور في البلاد. كما وزع الإقطاعات على عساكره، وأعاد أهالي الفسطاط إلى بلدهم. وأوصى أصحابه ألا يتركوا القاهرة، ثم توفي فخلفه في الوزارة ابن أخيه صلاح الدين. ويقال أن الخليفة العاضد الفاطمي أصر على اختيار صلاح الدين بالذات للوزارة دون غيره من إمراء جيش نور الدين بمصر لأنه ظن أن صغر سنه وعدم خبرته ستجعله أداة سهلة طيعة في يد الخليفة[4]. ولكن صلاح الدين ما كاد يتولى الوزارة حتى

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ. . . حوادث ٥٦٤هـ، وانظر ابن شداد: سيرة صلاح الدين. . . ص ٤٧ ـ ٤٨، وانظر ابن خلكان: وفيات الأعيان. . . ج ٢ ص ٥٠١ ـ ٥٠٢. ويذكر أبو شامة في كتاب الروضتين أن صلاح الدين نفسه هو الذي قتل شاور ص ١٤٥.

(٢) مجموعة الوثائق الفاطمية، جمعها وحققها جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٨ ص ١٧٢.

(٣) المصدر نفسه ص ١٧٢ ـ ١٧٣.

(٤) ابن الأثير: الكامل. . . حوادث سنة ٥٦٤هـ، وانظر التاريخ الباهر. . . ص ١٤٢.

خيب ظن الخليفة الفاطمي وكبار أعوانه، إذ شرع في استمالة قلوب الناس إليه «فمال الناس إليه وأحبوه... وضعف أمر العاضد». ثم إنه استطاع أن يكتسب ولاء الجند بعد أن «أحسن لجميع العسكر الشامي والمصري فأحبوه وأطاعوه»(١)، مما ساعد على تقوية مركزه في مصر، بينما أخذت سلطة العاضد في الضعف، فقد أمر صلاح الدين بذكر اسم نور الدين في الخطبة بعد الخليفة الفاطمي وأقطع أصحابه البلاد، وأسند إليهم بعض المناصب، وبذلك كشف القناع عن حقيقة نواياه إزاء الخلافة الفاطمية وتجلى للناس حرصه على القضاء عليها.

ولما ثقلت وطأة صلاح الدين على أهل القصر الفاطمي وتجلى استبداده بأمور الدولة وإضعاف جانب الخلافة، حنق عليه رجال القصر ودبروا المكائد للتخلص منه. وكان يتزعمهم رئيس البلاط جوهر مؤتمن الخلافة الذي حاول أن يتبع أساليب ضرغام وشاور، فيتصل بعموري والصليبيين «ليتقوى بهم على صلاح الدين». ولكن رسالة مؤتمن الخلافة إلى عموري وقعت في يد صلاح الدين، الذي رأى أن يستأصل من جذوره، فقتل مؤتمن(٢) ثم قضى على ثورة الجند التي اندلعت بعد ذلك(٣).

ولم تكن الصعاب التي واجهت مصر في الفترة التي قضاها صلاح الدين وزيراً لعاضد مقصورة على الفتن التي أثارها رجال القصر الفاطمي وأتباعهم من الجند، بل كان الفرنجة في بيت المقدس يرقبون إذ ذاك ازدياد نفوذ نور الدين المتواصل في مصر ويرون فيه خطراً يهدد كيانهم.

ويقول ابن واصل «ولما ملك صلاح الدين الديار المصرية... أيقن

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة... ج ٥ ص ٣٥٥.

(٢) المقريزي: خطط... ج ٢ ص ٢.

(٣) المصدر نفسه... ج ٢ ص ٣، وانظر ابن الأثير: الكامل... حوادث سنة ٥٦٤هـ، وانظر أبو شامة: كتاب الروضتين... ج ١ ص ١٧٩.

الفرنج بالهلاك»[١]. في حين يقول ابن الأثير «كان إفرنج الساحل لما ملك أسد الدين شيركوه مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك... وأنهم خائفون على بيت المقدس»[٢].

اضطر ملك بيت المقدس إلى الاستنجاد بملوك أوروبا لإحباط أطماع نور الدين، لكن دعوته لم تلق استجابة منهم لانشغال غالبيتهم بمسائل تتعلق بدولهم؛ فلجأ إلى مانويل إمبراطور الدولة البيزنطية الذي رحب بمد يد المساعدة إليه. ومن ثم توجهت قواتهم إلى دمياط يعاونهم أسطول بيزنطي مزود بالمؤن والعتاد الحربي، فوصلوا إليها في صفر سنة ٥٦٥هـ ـ ١١٧٢م. وكان الإمبراطور البيزنطي يرجو أن تحقق هذه الحملة أطماعه في توسيع رقعة البلاد الداخلة في دائرة نفوذه[٣].

عندما علم صلاح الدين بالحملة التي أنفذها الفرنجة إلى دمياط، أرسل يطلب النجدة من نور الدين الذي لبى النداء «وسير العساكر إليه إرسالاً يتلو بعضها بعضاً»[٤]. وفي الوقت نفسه كان تقي الدين عمر ـ ابن أخي صلاح الدين ـ وشهاب الدين ـ خاله ـ قد دخلا دمياط، فواصل صلاح الدين إرسال الإمدادات والنجدات إليهما عن طريق النيل، «وأمدهما بالسلاح والمال والذخائر»[٥]، واضطر هو إلى البقاء في القاهرة خشية أن يقوم رجال القصر الفاطمي وجند السودان الناقمون عليه بتدبير المؤامرات ضده.

كان حصار دمياط من الفرنجة وحلفائهم البيزنطيين غير تام. وتشير المراجع الصليبية إلى أن أهل المدينة استغلوا ظاهرة جريان تيار نهر النيل من الجنوب إلى الشمال وأطلقوا على سطح الماء أواني فخارية بها مواد مشتعلة

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب... ج ١ ص ١٧٩.
(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر... ص ١٤٣.
(٣) حسن حبشي: نور الدين والصليبيون، القاهرة ١٩٤٨، ص ١٣٤ ـ ١٣٦.
(٤) ابن الأثير: الكامل... حوادث سنة ٥٦٥هـ.
(٥) أبو شامة: كتاب الروضتين... ص ١٨٠ ـ ١٨١.

أنزلت بالأسطول البيزنطي أبلغ الضرر، مما اضطره إلى الابتعاد عن لسان النيل وعن المدينة[1]. ولم تلبث القوات البيزنطية أن أحست بالقلق من جراء ما عانوه في سبيل تموين قواتهم، كما وقع الخلاف بين قواد البيزنطيين والصليبيين على الخطة التي يتبعونها لمهاجمة هذه المدينة، فضلاً عن سوء النوايا بين الطرفين، فقد ظل الصليبيون يتشككون دائماً في حلفائهم، وانتشرت شائعة بين رجال عموري بأن البيزنطيين إنما ينوون أن يستأثروا بدمياط لأنفسهم عند سقوطها، الأمر الذي أضعف قوة المهاجمين[2].

وجد الصليبيون انتظارهم طال أمام دمياط دون جدوى، في الوقت الذي بلغهم فيه عن قيام نور الدين بمهاجمة ممتلكاتهم وبلادهم في الشام فاضطروا إلى رفع الحصار عن المدينة والرجوع بجيوشهم إلى بلادهم في ربيع الأول سنة ٥٦٥هـ ـ ١١٧٢م[3]. وبذلك فشلت هذه الحملة في غزو دمياط والاستيلاء على مصر.

كان لإحباط الخطة الصليبية البيزنطية في مهاجمة دمياط أثر بالغ الأهمية في توطيد سلطة صلاح الدين في مصر، وجعل الخلافة الفاطمية تفقد الأمل الأخير في التخلص من قبضته القوية. وكان أن أرسل الخليفة العاضد الفاطمي إلى نور الدين بعد انسحاب الصليبيين يرجوه سحب جنده الأتراك من القاهرة، لأنهم بثوا الرعب فيها، مع السماح ببقاء صلاح الدين وأعوانه، فرد نور الدين على الخليفة الفاطمي «يمدح الأتراك ويعلمه أنه ما أرسلهم واعتمد عليهم إلا لعلمه بأن قنطاريات الفرنج ليس لها إلا سهام الأتراك، فإن الفرنج لا يرعبون إلا منهم»[4].

---

(١) عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى... ص ٢٢٠.
(٢) المصدر نفسه... ص ٢٢١.
(٣) المقريزي: خطط... ج ١ ص ٢١٥.
(٤) أبو شامة: كتاب الروضتين... ص ١٨١.

وفي الوقت الذي كان العاضد آخر الخلفاء الفاطميين قابعاً في قصره بالقاهرة لا حول له ولا قوة. رأى صلاح الدين حرصاً منه على تدعيم مركزه أن يحيط نفسه بأهل بيته، فطلب من نور الدين أن يرسل إليه أباه وأقاربه، فوصلوا إلى مصر في جمادى الآخرة من سنة ٥٦٥هـ ـ ١١٧٢م؛ وما لبث أن أسند إليهم بعض المناصب الهامة، فجعل أباه على بيت المال وأقطع إخوانه بعض الأراضي[١].

بعد أن استقرت الأمور لصلاح الدين في مصر، وجه اهتمامه إلى القضاء على المذهب الشيعي، فأنشأ سنة ٥٦٦هـ ـ ١١٧٣م مدرسة لتدريس المذهب الشافعي، وأخرى لتدريس المذهب المالكي، وعزل قضاة الشيعة، وعين صدر الدين عبد الملك بن درباس قاضياً للقضاة في جميع أنحاء البلاد المصرية، فأناب عنه في سائر البلاد قضاة شافعية، فاستعاد بذلك المذهب السني قوته، وأخذ المذهب الإسماعيلي في الاختفاء تدريجياً حتى لم يبق له أنصار في مصر[٢].

كان لسياسة صلاح الدين التي تنطوي على إضعاف المذهب الإسماعيلي أثرها في زوال الخلافة الفاطمية، فقد انهارت منذ ذلك الوقت سلطة الخليفة العاضد، وكثر القول من صلاح الدين وأصحابه في ذمه، كما تحدثوا بخلعه وإقامة الدعوة العباسية[٣]. لكن صلاح الدين رغم استبداده بأمور مصر لم يسارع إلى إقامة الخطبة للمستضيء بنور الله العباسي، بل تردد في تنفيذ رغبة نور الدين الذي أرسل إليه يأمره بإحلال اسم الخليفة العباسي في الخطبة محل الخليفة الفاطمي، واعتذر بتخوفه من أن يثير هذا العمل غضب المصريين، غير أن نور الدين رفض هذا العذر، وبعث إليه أمراً لا مناص لواليه من تنفيذه[٤].

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية... ص ٣٤ ـ ٣٥، وانظر ابن واصل: مفرج الكروب... ج ١ ص ١٨٥ ـ ١٨٦.

(٢) المقريزي: خطط... ج ١ ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩، وانظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ... ج ١١ ص ١٤٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ... ج ١١ ص ١٤٨ ـ ١٤٩.

(٤) ابن الأثير: الكامل... ج ١١ ص ١٤٩.

عقد صلاح الدين مجلساً من الأمراء واستشارهم في ذكر اسم الخليفة العباسي في الخطبة بدل اسم الخليفة الفاطمي فوافقه بعضهم وأظهروا استعدادهم لمناصرته، ورأى آخرون خطورة هذا الاقتراح.

وكان في هذا المجلس رجل فارسي يعرف بالأمير. قدم إلى القاهرة منذ عهد قريب، فلما رأى تردد صلاح الدين اعتزم أن يتولى الأمر بنفسه. فصعد المنبر قبل الخطيب في أول جمعة من شهر المحرم سنة ٥٦٧هـ ـ ١١٧٤م، ودعا للمستضيء العباسي. فلم يعارضه أحد، وفي الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة أن يخطبوا باسم الخليفة العباسي، وهكذا تم ذلك التغيير بدون أن يلقى أية مقاومة[١]. فكان ذلك إيذاناً بسقوط الخلافة الفاطمية بعد حياة استمرت نحواً من قرنين من الزمان، لم يلبث أن مات الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين في العاشر من المحرم سنة ٥٦٧هـ ـ ١١٧٤م[٢]. ثم مات نور الدين محمود في دمشق، مما مهد لقيام الدولة الأيوبية.

---

(١) ابن الأثير: الكامل... ج ١١ ص ١٤٩.

(٢) عندما تم التغيير في الخطبة لم يخبر العاضد ـ وكان مريضاً جداً ـ أحد من أسرته بذلك الحدث وقالوا: «إن عوفي فهو يعلم، وإن توفي فلا ينبغي أن نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته».
ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان... ج ١ ص ٥٤٣، وابن شداد: مؤرخو الحروب الصليبية... ج ٣ ص ١٢٠ ـ ١٣٥ ـ ١٧٦ ـ ١٨٣.
ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ... ص ١٤٨ ـ ١٤٩.

الفصل الثالث

سياسة الفاطميين

سياسة الفاطميين الداخلية

أولاً ـ موقف الفاطميين من أهل السنة(١)

كان أهل السنة يكونون السواد الأعظم من المصريين المسلمين في مستهل القرن الرابع الهجري عندما بدأ الفاطميون يوجهون حملاتهم إلى مصر. وقد

(١) عرفت مصر قبل الفتح الفاطمي لأراضيها المذاهب الإسلامية الأربعة التي ظهرت في العصر العباسي وهي: مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت (ت ١٥٠هـ)، ومذهب الإمام مالك بن أنس (ت ١٧٦هـ) الذي تميز باعتماده على الحديث أكثر من أبي حنيفة، ومذهب الإمام محمد بن إدريس الشافعي القرشي (ت ٢٠٤هـ) ومذهب الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ). وعلى الرغم من أن مذهب الإمام أبي حنيفة أقدم المذاهب السنية إلا أن مذهب مالك هو الذي دخل مصر أولاً وانتشر فيها، ويقول المقريزي أن أول من قدم بعلم مالك إلى مصر عبد الرحيم بن خالد بن يزيد بن يحيى مولى حجج. وكان فقيهاً روى عنه الليث بن سعد وابن وهب ورشيد بن سعد، وتوفي بالإسكندرية سنة ١٦٣هـ، ثم نشره بمصر عبد الرحمن بن القاسم. فاشتهر مذهب مالك بمصر أكثر من مذهب أبي حنيفة لتوفر أصحاب مالك بمصر. ـ المقريزي: خطط. . . ج ٢ ص ٣٣٤. ولم يزل المصريون يتبعون مذهب الإمام مالك إلى أن قدم الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي إلى مصر سنة ١٩٨هـ. وأظهر بها مذهبه الجديد وجعله يلائم الحياة المصرية؛ فمال إليه عدد كبير وصار لكل من مذهب الإمام مالك والإمام الشافعي اتباع في مصر، كما نبغ فيها كثير من فقهاء المالكية والشافعية.

استطاع دعاتهم نشر المذهب الفاطمي بين عدد غير قليل من المصريين كانوا خيراً عون لهم على فتح مصر[1]. فدخل جوهر الصقلي قائد الخليفة المعز لدين الله الفاطمي الإسكندرية سنة ٣٥٨هـ ـ ٩٦٨م دون مقاومة وكتب أماناً أعلنه للمصريين[2].

لم يعمل الفاطميون ـ بعد أن انتقل الخليفة المعز إلى القاهرة سنة ٣٦٢هـ ـ ٩٧٢م بكتاب الأمان الذي التزم فيه جوهر الصقلي «أن يظل المصريون على مذهبهم، أي لا يلزمون بالتحول إلى المذهب الشيعي، وأن يجري الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره والزكاة والحج والجهاد على ما ورد في كتاب الله وسنة رسوله». بل تركز الاهتمام في تحويل المصريين إلى المذهب الشيعي، واتبعت الخلافة الفاطمية لذلك عدة وسائل منها:

أ ـ إلزام جميع الموظفين أن يعتنقوا المذهب الفاطمي.

ب ـ إسناد المناصب العليا وخاصة القضاء إلى الشيعة، وإجبارهم على إصدار الأحكام وفق قوانين هذا المذهب.

ت ـ إلصاق التهم بالموظفين السنيين الذين ظل في أيديهم بعض المناصب الصغيرة كالتقصير لعزلهم أو اضطهادهم.

ث ـ اتخاذ المساجد الكبيرة مراكز للدعاية الفاطمية، مثل مسجد عمرو بن العاص، ومسجد أحمد بن طولون، والجامع الأزهر

ج ـ اهتمامهم بتعيين أحد كبار المتفقهين في مذهب الشيعة للقيام بنشر دعوتهم؛ وكان يعرف بداعي الدعاة. وكانت منزلة هذا الداعي الكبير تلي قاضي القضاة ويتزيا بزيه. وكان يعاونه اثنا عشر نقيباً ونواب في سائر البلاد، واشترطوا فيه أن يكون عالماً بجميع مذاهب أهل البيت، وكثيراً ما

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا. . . ص ١٤٧.

(٢) المصدر نفسه ص ١٤٨ ـ ١٥٣.

تقلد رجل واحد منصبي قاضي القضاة والدعوة[١].

كما عمل الفاطميون على لعن الخلفاء الثلاثة الأول (أبو بكر وعمر وعثمان) وغيرهم من الصحابة، إذ عدوهم أعداء لعلي؛ ونقشت فضائل علي وأولاده من بعده على السكة وعلى جدران المساجد. ويقول ابن زولاق أن الخطباء كانوا يلعنون الصحابة على كافة منابر مصر[٢].

كذلك أمعن الفاطميون في إظهار شعائرهم المخالفة لشعائر السنيين كالأذان بحي على خير العمل والاحتفال باليوم العاشر من المحرم «يوم كربلاء». واليوم الثامن عشر من ذي الحجة «عيد الغدير المعروف بغدير خم»[*]. وسبب الاحتفال ب ما يرويه الشيعة من أن رسول الله ﷺ بعد عودته من حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة نزل بغدير خم في طريقه إلى المدينة، وأخذ بيد علي بن أبي طالب وقال: ألستم تعلمون أني أولى بكل مؤمن من نفسه؟ قالوا: بلى، فقال: من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وأنصر من نصره، وأخذل من خذله[٣]. ويعلق الشيعة أهمية كبرى على هذا الحديث إذ يعتبرونه بمثابة مبايعة علنية من الرسول لعلي بن أبي طالب[٤].

وكان استياء المصريين السنيين من الفاطميين يزداد في كل مناسبة تقام فيها إحياء الشعائر الشيعة، لما كان يصاحبها من فتن واعتداءات، فيوم الاحتفال بعيد غدير خم في سنة ٣٦٢هـ تمادى المغاربة في إثارة الشغب والاضطرابات، مما

---

(١) القلقشندي: صبح الأغشى في صناعة الإنشا... ج ٣ ص ٤٨٣.

(٢) حسن ابراهيم حسن: الدولة الفاطمية... ص ٢١٨. نقلاً عن مخطوط لابن زولاق في المكتبة الأهلية بباريس رقم ١٨١٧ ورقة ٤٨.

(*) مكان على بعد ثلاثة أميال من الجحفة.

(٣) المقريزي: خطط... ج ١ ص ٣٨٩.
ـ أحمد أمين: ظهر الإسلام... ج ١، ص ١٤٩.

(٤) المقريزي: اتعاظ الحنفا... ص (حاشية رقم ١، ص: ١٩٥).

دفع القائد جوهر للخروج بنفسه ليحول دون الاعتداء على الأموال والأهالي[١].

وفي ذكرى عاشوراء العاشر من محرم سنة ٣٦٣هـ ـ ٩٧٦م أخذ المصريون الشيعيون والمغاربة في الاعتداء السافر على كل من لم يشاركهم مظاهر الأسى والحزن مما أدى إلى شل الحركة التجارية وانتشار الفوضى[٢].

كان من جراء اهتمام الشيعيين بإظهار شعائرهم الدينية أن أخذ المصريون السنيون يفتشون عن مناسبة يحتفلون فيها نكاية لهم فكان يوم ٢٦ ذي الحجة ذكرى دخول رسول الله ﷺ مع أبي بكر الصديق إلى غار ثور، وبالغوا في الاحتفال بهذا اليوم في إظهار الزينات ونصب القباب وإيقاد النيران، ولكن الخليفة المعز حرص على ألا يمنع أهل السنة في مصر من إحياء هذا العيد حتى لا يثير غضبهم.

إن إحياء الشعائر الشيعية لم تكن وحدها مصدر القلق والاضطراب، وإنما انحياز الفاطميين إلى المغاربة والاعتماد عليهم في إدارة شؤون دولتهم وما ظهر من هؤلاء (المغاربة) في إلحاق الأذى بالمصريين، من نهب للبيوت والاعتداء على الأهالي، مما حمل أهل السنة إلى رفع شكاياتهم إلى الخليفة المعز، الذي أصدر أوامره إلى المغاربة بإخلاء جميع المناطق التي اغتصبوها والانتقال إلى نواحي عين شمس[٣]. وخرج بنفسه وعين الأماكن التي ينزلون فيها وأقر المال المطلوب للتعويض على المتضررين كما جعل لهم والياً وقاضياً عهد إليهما بالنظر في أحوالهم[٤]. ولم يلبث الخليفة أن أمر المغاربة بالخروج من مصر والإقامة بالقاهرة[٥].

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا. . . ص ١٩٥.

(٢) المصدر نفسه ص ١٩٨.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٣.

(٤) ابن ميسر، تاريخ مصر، ص ٤٥.

(٥) المقريزي: اتعاظ الحنفا. . . ص ١٩٧.

وكانت العقوبة الصارمة بحق كل من يمتدح ذكر الخلفاء السنيين ويقول المقريزي أن الخليفة العزيز أبطل صلاة التراويح(*) في سنة ٣٧٢هـ ـ ٩٨٥م من جميع مساجد الديار المصرية[١].

وفي سنة ٣٨١هـ ـ ٩٩٤م أصدر العزيز أمره بضرب رجل من أهل مصر وطيف به في أرجاء القاهرة لأنهم وجدوا عنده كتاب «الموطأ» لمالك بن أنس[٢]. وفي صفر سنة ٣٨٥هـ ـ ٩٩٨م أمر الخليفة العزيز بنقش سب الصحابة على الجدران داخل الجامع العتيق وخارجه، وعلى أبواب الحوانيت والحجرات وعلى المغاير، ولون ذلك كله بالذهب في كثير من إحياء القاهرة وفي غيرها من المدن. وقد أدت هذه السياسة إلى تحويل العديد من السنيين إلى المذهب الشيعي[٣].

ولما قبض الحاكم بأمر الله على زمام الأمور في مصر بعد تخلصه من وصيه برجوان سنة ٣٩٠هـ ـ ١٠٠٣م عمد إلى إصدار كثير من الأوامر والقوانين المبنية على التعصب الشديد للمذهب الفاطمي فأمر في جمادى الأولى سنة ٣٩١هـ ـ ١٠٠٤م بقتل وصلب رجل من أهل الشام لاتهامه بعدم الاعتراف بفضل علي[٤].

وفي سنة ٣٩٣هـ ـ ١٠٠٦م ألقي القبض على رجل من أهل دمشق وطافوا به في شوارع المدينة ثم ضربت عنقه لأنه أظهر حبه للخليفتين أبي بكر وعمر[٥].

(*) التراويح: هي سنة سنها النبي ﷺ بعد صلاة العشاء في رمضان، ولكنه أبطلها بعد ذلك خشية أن تصير فرضر. ولما جاء عمر بن الخطاب أحيا هذه السنة وجمع الناس على إمام واحد، ووافقه المسلمون على ذلك، فكان إجماعاً سكوتياً. والسر في امتناع الشيعيين عن صلاة التراويح هو ما يعتقدونه من أن عمر بن الخطاب هو أول من سنها.

(١) المقريزي: خطط... ج ٢ ص ٣٤٠.

(٢) المصدر نفسه ص ٣٤١.

(٣) المصدر نفسه ص ٣٨٦.

(٤) المصدر نفسه ص ٣٨٦.

(٥) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٢، رقم ١، ص ٩١.

وفي سنة ٣٩٥هـ ـ ١٠٠٨م أعاد الحاكم بأمر الله سياسة الخليفة العزيز بنقش سب الصحابة على جدران المساجد والأسواق والدروب، وصدرت الأوامر إلى العمال في البلاد المصرية بمراعاة ذلك(١).

إلا أن الحاكم بأمر الله ما لبث أن بدّل سياسة التعصب للمذهب الفاطمي إرضاءً لرعاياه السنيين، فأمر سنة ٣٩٧هـ ـ ١٠١٠م بإلغاء بعض ما قام به سابقاً من لعن الخلفاء الثلاثة الأول وغيرهم من الصحابة، ومحو ما نُقش في لعنهم، كما منع المؤذنين من إضافة عبارة «حي على خير العمل» إلى الآذان، وأجاز لهم أن يقولوا في آذان الفجر «الصلاة خير من النوم» وسمح الحاكم بإقامة صلاة الضحى(*) وصلاة التراويح(٢) بعد أن أبطلها في سنة ٢٩٣هـ ـ ١٠٠٦م(٣).

وأنشأ مدرسة لتعليم المذهب السني، وألحق بها دار كتب، وعين أبا بكر الإنطاكي ناظراً، وخلع عليه وعلى زملائه وأجلسهم في مجلسه(٤).

وفي سنة ٣٩٨هـ ـ ١٠١١م أصدر الحاكم مرسوماً وفق فيه بين السنة والشيعة، فأجاز للشيعة صوم شهر رمضان إذا ثبت لهم رؤية الهلال، كما أباح للشيعة أن يكبروا في الصلاة على الميت خمس مرات، أما السنة فأجاز لهم أن يكبروا في صلاة الجنازة أربع مرات. وجعل لكل مسلم الخيار في اتباع الرسوم السنية أو الشيعية(٥).

كان من أثر هذه السياسة التي سار عليها الحاكم في الدور الثالث من حكمه (٣٩٦هـ ـ ٤٠١هـ) ـ ١٠٠٩م ـ ١٠١١م أن ساءت سمعته عند المتشيعين

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ١٦٦.

(*) صلاة الأضحى: وهي من الصلوات التي تؤدي في ضحى اليوم من ارتفاع الشمس قدر رمح إلى الزوال.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٦٦.

(٣) المقريزي: خطط. . . ج ١، ص ٤٥٨ وما يليها.

(٤) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٢، رقم ١، ص ١٠٥.

(٥) المقريزي: خطط. . . ج ١ ص ٢٨٧.

الذين جاءوا إلى القاهرة، حيث وجدوا أنفسهم في مدينة تسير في اتجاه عادات المذهب السني[١]. لكن الحاكم الذي عودنا التغلب في سياسته وأهوائه ما لبث أن بدل سياسة اللين، فأمر في سنة ٤٠١هـ ـ ١٠١١م بإعادة الأذان إلى النحو الشيعي، كما أعاد عبارة «حي على خير العمل» وأبطل صلاة الضحى وصلاة التراويح، وليس أدل على سياسة التعصب هذه بأنه عندما علم بإقامة صلاة التراويح في شهر رمضان في المسجد العتيق، أمر بإمام هذا المسجد فضربت عنقه، وأعاد في الوقت نفسه مجالس الحكمة في القصر، واعتزم بعد ذلك نبش قبر أبي بكر وعمر بالمدينة[٢].

أما في عهد الخليفتين الظاهر والمستنصر اتجهت السياسة الفاطمية إلى عدم إثارة السنة فتمتعوا بمطلق الحرية في أداء شعائرهم، كما أهملت بعض المظاهر الشيعية، ولم تعد عبارة «حي على خير العمل» تذكر في الأذان واشتهرت هذه الفترة بالعدل الشامل والعمل لصالح الرعية[٣]. استمرت الحال كذلك حتى أواخر عهد المستنصر سنة ٤٧٨هـ ـ ١٠٨٨م حيث ظهرت روح العداء والكراهية إزاء أهل السنة، عندما تقلد أمير الجيوش بدر الجمالي مقاليد الحكم وحكم البلاد حكماً مطلقاً، فأمر بإضافة «حي على خير العمل» إلى الأذان، ونقش عبارات تتضمن لعن الصحابة على الجدران، وأصدر أوامره بأن يكون التكبير على الميت خمس مرات طبقاً للمذهب الشيعي[٤].

وعلى الرغم من أن الفاطميين استطاعوا أن يقيموا في مصر حكومة منظمة قائمة على أساس متين، فتقدمت البلاد نحو الرقي والازدهار بفضل هذه النظم الرشيدة التي احتذاها من جاء بعدهم من الملوك، إلا أن حرصهم على نشر

---

(١) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ١، رقم ١، ص ١٠٥.
(٢) المقريزي: خطط. . . ج ١ ص ٣٣٨.
(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٢، رقم ٢١، ص ٢٧٦.
(٤) المصدر نفسه، ج ٢، رقم ٢١، ص ٢٧٦.
وانظر: د. حسن ابراهيم، تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٢٢٥.

المذهب الشيعي أوقعهم في مأزق صعب مع أهالي البلاد لأن أكثريتهم الساحقة كانوا من السنة، فظل المذهب السني محتفظاً بقوته رغم تحول بعض المصريين إلى المذهب الشيعي خوفاً من تطبيق القوانين الجائرة التي فرضها الفاطميون على من خالفهم المذهب.

وليس أدل على ذلك من تعصب الفاطميين وتمسك السنة بمذهبهم أنه في جمادى الأولى من سنة ٣٩١هـ ـ ١٠٠٤م، ألقي القبض على رجل من الشام لاتهامه بعدم الاعتراف بفضل علي، وحبسه قاضي القضاة وأرسل أربعة من الفقهاء للتحقيق معه، فبذلوا قصارى جهدهم في حمله على الاعتراف بإمامة علي ولكن الرجل ظل متمسكاً برأيه على الرغم من تدخل قائد القواد الحسين بن جوهر في الأمر وحمله على الإقناع. ولما لم يفلح رفع أمره إلى الحاكم بأمر الله فأمر بقتله وصلبه[١].

أمام هذا التمسك الصلب من أهل السنة لم ير الفاطميون بداً من السماح للسنيين في مصر من إظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم، فصارت تعاليم مذاهب الإمام مالك والإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل تدرس في دولتهم، بل إنهم صاروا يراعون مذهب الإمام مالك ومن سألهم الحكم به أجابوه[٢]. أما مذهب الإمام أبي حنيفة فلم يلق تأييداً من الفاطميين لأنه مذهب أعدائهم العباسيين.

يضاف إلى ذلك أن تشريعات الوراثة التي أدخلها الفاطميون والتي تتنافى مع ما نص عليها القرآن وما أثر عن السنة جعلت أهل السنة يتمسكون بمذاهبهم وتقاليدهم. فعلى سبيل المثال يجيز قانون الشيعة للبنت أن ترث كل ما تركه أبوها إذا كانت وحيدة مع وجود ذوي العصبة، وهذا يخالف مذهب السنة الذي يقضي بألا ترث البنت أكثر من نصف الثروة.

---

(١) المقريزي: خطط... ج ٢ ص ٣٨٦.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٥٢٠.

ثانياً ـ سياسة الفاطميين مع أهل الذمة (النصارى واليهود)

عندما أيقن الفاطميون أنه من الصعب اعتمادهم على السنيين في مصر أنصار الدعوة العباسية، قربوا إليهم أهل الذمة وأظهروا لهم كثيراً من المودة والتسامح واستخدموهم في أهم المناصب.

عظم شأن اليهود في خلافة المعز لدين الله الفاطمي، وصار يعقوب بن كلس الذي أسند إليه المعز رئاسة بعض الدواوين يتحيز لبني جلدته. وما زال يعقوب يرتقي في المناصب حتى أصبح وزيراً للعزيز، وإليه يرجع الفضل في وضع قواعد الدولة ونظمها.

كان العزيز يعطف على أهل الذمة كما كان أبوه من قبل فزاد بلاطه في إكرام النصارى لما كان بينه وبينهم من صلة النسب[١]، إذ تزوج من مسيحية، وكان لها أخوان رفعهما العزيز إلى أعلى المراتب الكنسية، فعين أحدهما بطريركاً في بيت المقدس سنة ٣٧٥هـ ـ ٩٧٥م[٢] وعين الثاني مطراناً للقاهرة، ثم رقي في عهد الحاكم بطريركاً للملكيين بالإسكندرية سنة ٣٩٠هـ ـ ١٠٠٣م[٣].

وازداد عطف العزيز على الكنيسة القبطية، كما ازداد تسامحه مع جماعة الملكيين التي كانت تتبعها زوجته، فسمح للبطريرك القبطي إفراهام بإعادة كنيسة أبي سيفين المخربة بظاهر الفسطاط[٤].

وبلغ من اهتمام العزيز بالمسيحيين أن احتفل بأعيادهم ومواسمهم الدينية مشاركة لهم في شعورهم.

---

(١) متن: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، تر. محمد عبد الهادي جزءان، القاهرة، ١٩٤٠ ـ ١٩٤١، ج ١، ص: ٩٠ ـ ٩١.

(٢) يحيى بن سعيد: التاريخ المجموع، ص ١٤٤ ـ ١٤٥.

(٣) المصدر نفسه ص ١٤٥.

(٤) أبو صالح: كنائس وأديرة مصر، طبعة اكسفورد ١٨٩٥م، ص ٤٥ ـ ٤٦.

وكان من أثر سياسة التسامح التي اتبعها العزيز نحو الذميين أن ازداد نفوذهم في أيامه، فارتفع عيسى بن نسطورس إلى كرسي الوزارة، كما عين منشا اليهودي والياً على الشام، فأظهر هؤلاء محاباة جلية لإخوانهم في الدين، إذ عينوهم في مناصب الدولة بعد أن أقصوا المسلمين عنها[١].

استاء المسلمون من استئثار الذميين بمناصب الدولة، وقدموا للخليفة العزيز الاحتجاجات على محاباته المسيحيين واليهود، وبلغ من حال هؤلاء الساخطين أن كتب أحدهم شكاية وأعطاها لامرأة، ورغبها بالمال لتقف في طريق الخليفة وتقدمها إليه. وفيها: «بالذي أعز النصارى بعيسى بن نطورس واليهود بمنشا ابن إبراهيم الفرار، وأذل المسلمين بك، إلا نظرت في أمري»[٢].

ويقول أبو شجاع أن العزيز أرسل في البحث عن المرأة، فلم يعثروا عليها، فأمر بالقبض على عيسى بن نسطورس وزملائه من الكتاب، كما قبض على منشا وغيره من الموظفين اليهود وأعاد الكتاب المسلمين إلى أعمالهم بالدواوين[٣]. لكن الأميرة ست الملك ابنة الخليفة وزوجته المسيحية شفعتا لعيسى بن نسطورس فعفا عنه العزيز وولاه الوزارة بعد أن اشترط عليه أن يولي المسلمين في دواوين الحكومة[٤].

غير أن تولية ابن نسطورس الوزارة زاد استياء المسلمين، بل زاد في كراهيتهم وسرعان ما انفجر بركان هذا الغضب عندما ارتقى الحاكم عرش الخلافة، إذ تقدم إليه الكتابيون وهم عصب الخلافة الفاطمية طالبين عزل ابن نسطورس وتولية زعيمهم أبي محمد الحسن بن عمار، فأجاب الحاكم طلبهم

---

(١) أبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم، طبعة أمدروز، ص ١٨٦.

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، جزوان، القاهرة ١٣٢٧هـ، ج ٢، ص ١٧.

(٣) أبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم، ص ١٨٧.

(٤) د. حسن ابراهيم، تاريخ الفاطميين، ص ٢٠٣.

وتقلد ابن عمار أمور الدولة إلا أن سعي برجوان (الوصي) ونفوذ ست الملك جعلت الخليفة يسند إلى ابن نسطورس ديوان الخاص. لكنه لم يتمتع طويلاً بهذا المنصب، فقد اتهم بالعبث بأموال الدولة، فقبض عليه ابن عمار وقتله في محرم سنة ٣٨٧هـ ـ ١٠٠٠م[١].

لم يكد الحاكم يقبض على زمام الأمور في البلاد حتى نبذ سياسة التسامح الديني واتبع سياسة الشدة مع غير المسلمين من رعاياه. فأمر بالقبض على بعض رؤساء الكتاب من النصارى. ولكن الحاكم أطلق سراحهم وأعيدوا إلى مراكزهم بشفاعة أبي الفتح سهل ابن مقشر النصراني، طبيب الخليفة الخاص الذي كان مقرباً منه كما كان مقرباً من أبيه العزيز[٢].

وفي سنة ٣٩٥هـ ـ ١٠٠٨م أمر الحاكم النصارى بارتداء أزياء خاصة[*].

وفي سنة ٣٩٨هـ ـ ١٠١١م ازدادت سياسة الحاكم العدائية إزاء النصارى واليهود، فهدم بعض الكنائس في القاهرة.

وفي سنة ٤٠٠هـ ـ ١٠١٣م تقلد الوزارة منصور بن عبدون النصراني الذي تمتع بسلطة واسعة في إدارة البلاد، حتى أنه كان يوقع نيابة عن الخليفة وفي هذه الفترة حدث أمر جدير بالاهتمام، فبإيعاز من الوزير منصور أصدر الخليفة الفاطمي الحاكم مرسوماً بهدم كنيسة القيامة أو القبر المقدس[٣]. فكان لهذا الأمر أثر كبير في إعطاء الصليبيين ذريعة للاستيلاء على بيت المقدس.

ولم يقف اضطهاد الحاكم للذميين عند هذا الحد بل أمر بمنع النصارى من الاحتفال بالنوروز على شواطىء النيل، كما حرم الألعاب التي تقام في هذا العيد

---

(١) المقريزي: خطط. . . ج ٢ ص ٢٨٧.

(٢) يحيى بن سعيد: التاريخ المجموع، ص ١٨٥ ـ ١٨٦. وانظر القفطي: أخبار العلماء، ص ١٧٨.

(*) أمر الحاكم أن يلبس الرعايا غير المسلمين «الزنار والغيار».

(٣) يحيى بن سعيد: التاريخ المجموع، ص ١٩٤. وابن القلانس، ذيل تاريخ دمشق، ص ٦١ و٦٧.

لما اقترن بها من الملاهي الباذخة وخاصة على ضفاف النيل والخليج، وألغى جميع الأحباس المرصودة على الكنائس والأديرة بأعمال مصر وضمت إلى الديوان.

ويقول يحيى بن سعيد الأنطاكي أن الحاكم أجاز لليهود والنصارى الذين لم يدخلوا في الإسلام ولم يخضعوا لقوانينه بالهجرة إلى بلاد الإغريق[(١)]. فهاجر بعضهم إلى بلاد الدولة الرومانية الشرقية، والحبشة والنوبة حاملين معهم أموالهم ومن بقي منهم في مصر دخل في الإسلام[(٢)].

لكن سياسة الحاكم لم تستمر على هذ الاضطهاد، فأصدر في سنة ٤١١هـ ـ ١٠٢١م عدة مراسيم لإطلاق حرية الشعائر للنصارى واليهود، وإعادة بناء الكنائس المهدمة، ورد إليها أملاكها.

كان من أثر هذا التغيير الجديد في سياسة الحاكم أن ارتدت جماعة كبيرة ممن اعتنقت الإسلام خوفاً إلى دينهم القديم[(٣)].

وفي هذا الصدد يقول ابن زولاق: «أن أكثر من سبعة آلاف يهودي عادوا إلى دينهم القديم في يوم واحد»[(٤)].

ولم يكتف الحاكم بسياسة التسامح هذه بل أصدر كتاباً منح بموجبه الأمان للذميين جاء فيه: «هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبي علي الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ابن الإمام العزيز بالله أمير المؤمنين لجماعة النصارى بمصر عندما أنهوا إليه الخوف الذي لحقهم، والجزع الذي هالهم فأقلقهم.. أنتم جميعاً آمنون بأمان الله. عز وجل، وأمان نبيه خاتم النبيين وسيد المرسلين ﷺ وعلى آله الطاهرين وأمان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.. وأمان الأئمة من آباء أمير المؤمنين.. هذا على نفوسكم ودمائكم وأولادكم

---

(١) يحيى بن سعيد: التاريخ المجموع... ص٢٠٧. وانظرالمقريزي: خطط... ج ٢ ص ٢٨٨.

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٨٨.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور... ج ١ ص ٥١.

(٤) ابن زولاف (٣٨٧/ ٩٩٧): ابو محمد الحسن بن ابراهيم: كتاب فضائل مصر وأخبارها وخواصها (مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم (١٨١٧) ورقة ٥١ب.

وأموالكم وأحوالكم وأملاككم.. وما تحويه أيديكم، أماناً صريحاً ثابتاً وعقداً باقياً فثقوا به واسكنوا إليه وتحققوا أن لكم جميل رأي أمير المؤمنين وعاطفته ونصرته تحميكم وعصمته تقيكم، لا يقدم عليكم بسوء أحد.. والله عون أمير المؤمنين على ما تعتقدون من صلاح وإصلاح لسكان أقطار مملكته، ومن له وسيلة الثواء في كنف دولته.. وعهده الذي يشرفه طرفكم وكفى بالله شهيداً»(١).

توفي الحاكم فخلفه ابنه الظاهر، الذي استطاع بحسن سياسته أن يكتسب عطف أهل الذمة ومحبتهم له، فأصدر بياناً أعلن فيه أنهم أحرار في عقائدهم وشعائرهم، وأنه لا إكراه في الدين، وأن من آثر منهم الدخول في الإسلام، اختياراً من قلبه وهداية من ربه، فليدخل فيه مقبولاً مبروراً، ومن آثر البقاء على دينه من غير ارتداد، كان عليه ذمته وحياطته»(٢).

إزاء هذه السياسة تمتع المنصارى واليهود بحريتهم الدينية، وأخذ الشعور العدائي نحوهم يقلّ ويضعف، ولم يظهر إلا في فترات قصيرة، وبخاصة عندما يتقلد نصراني أو يهودي منصباً كبيراً من مناصب الدولة، ولا سيما الوزارة(٣). وهذا ما حدث بالفعل عندما ارتفع شأن أبي سعد التستري اليهودي لأن والدة المستنصر كانت من قبل أمه في بيته أهداها إلى الخليفة الظاهر، فلما ولي أبنها المستنصر قربت التستري وولته ديوانها مما أوغر صدر الوزير أبي منصور صدقة ابن يوسف الفلاحي، وحقد عليه لأنه لم يكن من الوزارة إلا الاسم فقط(٤).

والحقيقة أن التستري تحيز لأبناء دينه مع اليهود وساعدهم في تسلم

---

(١) يحيى بن سعيد الإنطاكي: التاريخ المجموع، ص ٢٣٢.
(٢) المصدر نفسه، ص ٢٣٥.
(٣) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص٨٠ ـ ٨٤..
(٤) ابن ميس: تاريخ مصر، ص ١. وانظر ابن منجب الصيرفي: الإشارة إلى من نال الوزارة، القاهرة ١٩٢٤، ص ٧٦ ـ ٧٧.

مناصب الدولة فأخذوا يضطهدون المسلمين إلى درجة أن شاعراً من الشعراء المعاصرين يسمى الرضى أنشد قائلاً:

يهودُ هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا
العزُّ فيهم والمال عندَهُم ومنهُمُ المستشارُ والملكُ
يا أهلَ مصرَ قدْ نصحتُ لكمْ تَهوَّدوا، قد تهوَّدَ الفلكُ[1]

حنق المسلمون على التستري وأخذوا يظهرون استياءهم منه. فاستغل الوزير صدقة ابن يوسف الفلاحي هذه الفرصة للإيقاع به، وفي ٣ جمادى الأولى من سنة ٤٣٩هـ ـ ١٠٤٩م، بينما التستري في طريقه إلى القصر، انقض عليه بعض الجنود الأتراك وقتلوه[2].

وعلى الرغم من تذمر المسلمين في مصر من إسناد بعض مناصب الدولة إلى اليهود في عهد المستنصر، فإن هذا الخليفة أظهر عطفاً وتسامحاً نحوهم، فبعد مقتل التستري أسند إلى أخيه أبي نصر هرون ديوان خاصته، وقلد ابنه إدارة أحد الدواوين الحكومية، كما ثارت حفيظة أم المستنصر على صدقة بن الفلاحي لتآمره على قتل التستري، وانتهى الأمر بإقالته من الوزارة وقتله في المحرم سنة ٤٤٠هـ ـ ١٠٥٠[3].

وخلاصة القول أن الفاطميين عاملوا النصارى معاملة تنطوي على العطف والرعاية، وما كان الاضطهاد الذي قام به الحاكم إزاءهم إلا حلقة من سلسلة حلقات الظلم الذي حاق عامة. والحق أن أبناء هاتين الطائفتين قد عوملوا غير مرة معاملة تتجلى فيها المحاباة لهؤلاء القوم[4].

---

(١) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٤، ص ١١٦.
(٢) ابن ميسر: المرجع السابق نفسه، ص ٢.
(٣) ابن منجب: المصدر السابق نفسه، ص ٣٧ ـ ٣٨.
(٤) أبو صالح الأرمني: كتاب كنائس وأديرة مصر، اكسفورد ١٨٩٥، ص ٣٢، ٤٣، ٧٧، ٧٨.

لقد تقلد أهل الذمة أرقى المناصب وأعلاها، كما شغلوا المناصب المالية في الدولة، بل تقلدوا الوزارة، وتمتعوا بقسط وافر من سياسة التسامح الديني، وهو أمر نستطيع تأكيده بما كان من بناء عدد من الكنائس أو من إعادة ترميمها. ولم تقتصر معاملة الخلفاء الفاطميين عند هذا الحد بل تعدتها إلى أكثر من ذلك فكان الخليفة الحافظ يقوم بزيارة الأديرة بين الحين والآخر. كما كان يعطي الرهبان في دير نهيا الواقع بالقرب من الجيزة عشرة آلاف درهم كلما خرج للصيد بالقرب من هذا الدير[١].

ويروي لنا أبو صالح الأرمني أن موارد الكنائس المصرية ازدادت في العهد الفاطمي[٢].

وليس أدل على حرص الخلفاء الفاطميين على توفير وسائر الأمن والطمأنينة لرعاياهم من أهل الذمة، من هذا المنشور الذي أصدره الخليفة الفائز الفاطمي إلى رجاله في شبه جزيرة سيناء يأمرهم فيه أن يشملوا الرهبان بالرعاية والملاحظة والمعونة والمرافدة[*] والمبالغة في إعزاز جانبهم وتفهم مطالبهم وتحقيق رغباتهم وإبعاد الحيف عنهم. ومما جاء في المنشور: «.. مقدم من مولانا وسيدنا الإمام الفائز بنصر الله.. إلى أهل الذمة واعتمادهم بما نسبغ عليه ملابس الحنو والرحمة، ليتساوى في عدلنا الصغير والكبير، ونشملهم من حسن مطرنا ما يسهل عليهم من المطالب كل مستصعب عسير... وأنهى إلى حضرتنا استضرار اسطوانة أسقف طور سينا بما يقصده به الولاة من الإجحاف... رسم أحدثوه وهو عشرة دنانير.. وإن ذلك قد قضى له ولمن معه من الرهبان بالإضرار، أنكرنا ذلك على معتمديه، وذممناه من قصد قاصديه، وخرج بأمرنا بإيداع هذا المنشور، الأمر بإزالة هذا الرسم، وتعفيته والمنع من التماسه من هذا

---

(١) ناصر خسرو، سفر نامه، ص ١٥٥ ـ ١٥٦.

(٢) أبو صالح: كنائس وأديرة مصر... ص ٧٧ ـ ٧٨.

(*) المرافدة، الأعطيات، الرفد: العطاء.

الأسقف والحذر من تناوله من جهته، واعتماده بالرعاية والملاحظة والمعونة والمرافدة، والمبالغة في إعزاز جانبة وتسهيل مطالبه، والتحذير من تكليفه أو أحد من رهبانه مغرماً أو خسارة، وإجرائه على الأوامر المريضة والأوضاع المختارة. فمن قرأه أو قرىء عليه من كافة إلا من الولاة أن يعمل بالمثل فيه وليتأنّى ما يوجبه حكمه ويقتضيه، وليحذر من يخافه وتعديه...»[1].

(١) مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد الخامس سنة ١٩٥٦، ص ١١٩ ـ ١٢١.

الفاطميون والبويهيون والسلاجقة

كان البويهيون يفضلون الفاطميون على العباسيين من الناحية المذهبية لهذا كان سلاطينهم على اتصال دائم بالفاطميين. حتى أنهم سمحوا لدعايتهم بنشر عقائد المذهب الفاطمي في البلاد التي خضعت لهم.

لكن محاولة الفاطميين الاستيلاء على مصر أثار مخاوف بني بويه من تعرض سلطانهم في بلاد العراق للخطر إذا استولى الفاطميون عليها وهذا يعلل مساعدة العباسيين في حروبهم ضد الفاطميين. ثم ما كان من تأهب عضد الدولة البويهي لغزو مصر واستردادها من الفاطميين بعد أن اتضح له أطماع الدولة الفاطمية في الاستيلاء على بلاد الشام وفلسطين والحجاز وبغداد حاضرة الدولة العباسية.

يحدثنا البغدادي فيقول أن عضد الدولة «تأهب لقصد مصر وانتزاعها من أيدي الباطنية، وكتب على أعلامه بالسواد: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد خاتم النبيين الطائع لله أمير المؤمنين، ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين»(١).

ويقول بعض المؤرخين أن ما قام به عضد الدولة من غزو مصر كان نتيجة لشكه في نسب الفاطميين، حتى أنه عقد مجلساً حضره العلويون الذي أقروا بطلان هذا النسب.

ويقول المقريزي: «ثم ملك فنا خسرو بن الحسن الديلمي بغداد، فقرب ما بينهما ـ أي بين العزيز وعضد الدولة ـ من المسافة، فجمع العلويين ببغداد وقال لهم: هذا الذي بمصر يقول أنه علوي منكم، فقالوا: ليس هو منا. فقال

(١) البغدادي، الفَرْق بين الفِرَق، ص ١٧٥ ـ ١٧٦.

لهم: ضعوا خطوطكم بأنه ليس بعلوي ولا من ولد أبي طالب، ثم أنفذوا إلى نزار بن معد رسولاً يقول له: نريد أن نعرف من أنت، فعظم ذلك عليه[1].

لم يدخر الفاطميون وسعاً في سبيل نشر دعوتهم في بلاد العراق، فأقيمت الدعوة للخليفة العزيز في الموصل على يد أميرها أبي الدرداء محمد بن المسيب بن رافع بن المقلد العقيلي ٣٨٢هـ ـ ٩٩٥م. كذلك نجح الخليفة الحاكم الفاطمي في استمالة فرداش العقيلي الذي خرج على طاعة الخليفة العباسي القادر سنة ٤٠١هـ ـ ١٠١١م[2]. وقام بنشر الدعوة الفاطمية في الموصل والأنبار والمدائن والكوفة، كما أحل الخليفة الحاكم الفاطمي في الخطبة محل اسم الخليفة العباسي[3].

أثار نشر الدعوة الفاطمية في بعض بلاد العراق حنق الخليفة العباسي القادر، فلجأ إلى محاربتهم إلى سلاح التشهير بسمعتهم في العالم الإسلامي، فعقد هذا الخليفة اجتماعاً دعا إليه الفقهاء والقضاة وبعض زعماء الشيعة، وأصدروا في سنة ٤٠١هـ ـ ١٠١١م محضراً يتضمن الطعن في نسب الفاطميين.

ويعتبر هذا العمل بدءاً لتدوين محاضر المجالس العباسية التي عقدت ببغداد في القرن الخامس الهجري، وأنكر فيها نسب العبيديين إلى علي وفاطمة، لأن العباسيين أدركوا عجزهم عن مناهضة الفاطميين والقضاء عليهم بالحرب، وهالهم إقامة الخطبة للحاكم الفاطمي في بلاد الموصل، فكروا في القضاء على مذهبهم بالطعن في تنسبهم إلى علي وفاطمة، أو بإثارة الشك على الأقل في هذا النسب في نفوس المسلمين.

ويروي أبو المحاسن أنه «في ربيع الآخر سنة ٤٠٢هـ ـ ١٠١٢م كتب الخليفة القادر العباسي محضراً في معنى الخلفاء المصريين، والقدح في أنسابهم

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا. . . ص ١٥.

(٢) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢٧٤، وانظر ابن خلدون: العبر، ج ٤، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٦.

(٣) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٢ ص ٢٢٤ ـ ٢٢٧.

وعقائدهم، وقرئت النسخ ببغداد، وأخذت فيها خطوط القضاة والأئمة والأشراف بما عندهم من العلم بمعرفة نسب الديصانية، قالوا: وهم منسوبون إلى ديصان بن سعيد الخرمي إخوان الكافرين، ونطف الشياطين، شهادة يتقربون بها إلى الله .. فشهدوا جميعاً أن الناجم بمصر هو منصور بن نزار الملقب بالحاكم حكم الله عليه بالبوار والخزي والنكال ـ ابن معد بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن سعيد ـ لا أسعده الله ـ فإنه لما صار إلى المغرب تسمى بعبيد الله وتلقب بالمهدي، وهو ومن تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس ـ عليه وعليهم اللعنة ـ أدعياء، خوارج لا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب وأن ذلك باطل وزور. إنهم زنادقة ولمذهب الثنوية والمجوسية معتقدون، فقد عطلوا الحدود وأباحوا الفروج، وسفكوا الدماء، وسبوا الأنبياء، ولعنوا السلف..»[١].

وعلى الرغم مما تركه هذا المحضر من أثر في نفوس المسلمين أخد الفاطميون يضاعفون جهودهم في نشر دعوتهم عن طريق دعاتهم، ويصادفون كثيراً من النجاح في هذا السبيل، وهذا ما دفع الخلفاء العباسيين إلى كتابة محضر آخر في سنة ٤٤٢هـ ـ ١٠٥٢م يطعنون فيه على الفاطميين وينفون نسبهم[٢].

وفي سنة ٤٨٨هـ ـ ١٠٩٨م كتبوا محضراً أيضاً «لتنفير القلوب من الفاطميين وجمع القلوب حول العباسيين»[٣].

لكن سياسة البويهيين العدائية تجاه الفاطميين ما لبثت أن تبدلت إلى أن تودد وحسن نية في عهد أبي كاليجار ٤٣٥ ـ ٤٤٠هـ ١٠٤٥م ـ ١٠٥٤م الذي اتخذ من تقربه إلى الفاطميين وسيلة لإرهاب العباسيين، كما حال دون تقرب العباسيين من السلاجقة الذين أخذوا يهددون سلطان بني بويه، حتى إن أبا

---

(١) ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠.
(٢) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٥٣.
(٣) ابن ميسر: أخبار مصر، ص ٣٧.

كاليجار تقرب من المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي داعي الفاطميين في فارس، الذي تقلد فيما بعد منصب داعي الدعاة في مصر، واتهم باعتناق عقائد الإسماعيلية مذهب الفاطميين.

لم يدخر الخليفة المستنصر الفاطمي وسعاً للانتقام من الخلفاء العباسيين. ولذلك نراه يؤيد أبا الحارث البساسيري في خروجه على الخليفة العباسي القائم ويمده بالأموال الضخمة والجند الذين أمر بإنفاذهم إليه من بلاد الشام وكان من أثر التدخل الفاطمي أن انتصر البساسيري وأنصاره على جيوش الخليفة العباسي رغم مساعدة طغرلبك له بألفين وخمسمائة فارس في موقعة سنجار سنة ٤٣٩هـ ـ ١٠٦٣م[١].

ولم يقف نشاط الفاطميين في مناوئة العباسيين عند هذا الحد، فقد استطاع هبة الله الشيرازي أن يضم إبراهيم أخا طغرلبك إلى الفاطميين، على أن «تكون الخطبة لهم (أي الفاطميين) بالخلافة والإمامة مقدمة على خطبته»[٢]. وكان من أثر ذلك أن ثار إبراهيم ينال على أخيه طغرلبك، وانتهز البساسيري فرصة نشوب الحرب بينهما، واستولى على بغداد في شهر ذي القعدة سنة ٤٥٠هـ، وقتل الوزير ابن مسلمة. أما الخليفة «استذم بذمام[*] قريش فحماه من القتل»[٣].

إن قيام المنافسة بين العنصرين العربي والتركي في جيش البساسيري، وعودة طغرلبك إلى بغداد بعد أن قضى على فتنة أخيه إبراهيم ينال، كل ذلك ساعد على القضاء على ثورة البساسيري وقتله بعد أن أقام الخطبة للفاطميين على منابر بغداد سنة كاملة.

---

(١) ابن منجب، الإشارة إلى من نال الوزارة، ص ٤٤.

(٢) السيرة المؤيدية للمؤيد في الدين: مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٦٠٥٦، ورقة ١٨٤.

(*) الذمام معناها الحرمة أي دخل بذمة قريش.

(٣) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٦ ، ١٢.

ثانياً ـ الفاطميون والحمدانيون والمرداسيون

بعد سيطرة القائد الفاطمي جعفر بن فلاح على دمشق، هدد الحمدانيين في حلب بالاستيلاء على بلادهم إذا لم يقيموا الدعوة الفاطمية على منابرها.

أثار هذا التهديد سخط الحمدانيين، فعملوا على مساعدة القرامطة بزعامة الحسن الأعصم بالمال والرجال ليبعدوا خطر الفاطميين عن بلادهم.

ويقول أبو المحاسن أن القرامطة بعثوا إلى سيف الدولة «يستهدونه حريراً فسيّر إليهم كثيراً، وحمل إليهم في الفرات ثم في البرية إلى هجر»(١).

وفي عهد سعد الدولة بن سيف الدولة ٣٥٦هـ ـ ٣٨٤هـ ٩٦٩م ـ ٩٩٧م ساءت العلاقات بين الفاطميين والحمدانيين، عندما أهان سعد الدولة رسول الخليفة العزيز الفاطمي حين طلب إليه الكف عن إيذاء أبناء بلجور، فتوعده العزيز بالمسير إلى بلاده، وبالفعل سار الخليفة الفاطمي على رأس جيش كبير إلى حلب للاستيلاء عليها من يد أبي الفضائل سعيد بن سيف الدولة الذي طلب النجدة من الإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني، ولكن الحظ حالف أبا الفضائل إذ مات العزيز الفاطمي في مدينة بلبيس، ولولا ذلك لخضع الحمدانيون لسلطان الفاطميين قبل خضوعهم نهائياً لابنة الحاكم(٢).

طمع لؤلؤ ـ الذي آلت إليه الوصاية على سعيد الدولة ـ في ولاية حلب فقتل سعيداً وابنته وكان قد تزوج منها، ثم ملك الدولة الحمدانية باسم ولدي سعيد الدولة، أبي الحسن علي، وأبي المعالي شريف، ولم يلبث أن أرسلهما مع سائر أفراد البيت الحمداني إلى القاهرة إرضاءً للخليفة الفاطمي، وجعل ابنه منصور الذي لقبه الحاكم بأمر الله «مرتضى الدولة»، واعترف بسلطان الخليفة الفاطمي، وذكر اسمه في الخطبة.

---

(١) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ٣٣٦.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ج ١، ص ٣٨ ـ ٣٩ و٤٣ ـ ٤٤.

وبعد مدة وجيزة قام النزاع بين مرتضى الدولة وبين الفتح غلام أبيه الذي انضم إلى جانب الحاكم الفاطمي الذي لقبه «مبارك الدولة وسعدها» وأقطعه مدن الساحل اللبناني بالإضافة إلى حكم حلب[١] وبذلك انتهى عهد الدولة الحمدانية.

لم يتمكن الفاطميون من توطيد سلطانهم في حلب فقد ناوأهم المرداسيون بزعامة صالح بن مرداس أمير بني كلاب الذي استول على حلب وظل يحكمها حتى استطاع جيش الخليفة الظاهر الفاطمي من التغلب عليه واسترداد نفوذهم في حلب سنة ٤٢٠هـ ـ ١٠٣٠م[٢].

استطاع نصر بن صالح بن مرداس السيطرة على المدينة مجدداً، فبعث إليه الخليفة المستنصر القائد التركي انوشتكين على رأس جيش كبير لكن سلطان الفاطميين لم يستقر في حلب حتى كانت حملة أبي عبد الله بن ناصر الدولة ابن حمدان الذي أحكم الحصار على المدينة حتى سئم أميرها وطلب الصلح من الخليفة الفاطمي، فأجابه إلى ذلك، وولى مكين الدولة بن ملهم حلب سنة ٤٤٩هـ ـ ١٠٥٩م.

استمر الحكم الفاطمي لمدينة حلب زهاء ستين سنة انتهى مع بداية ضعف دولتهم وانحصار نفوذهم عن الولايات الشامية[٣].

ثالثاً ـ الفاطميون وبلاد الحجاز

سعى الفاطميون إلى بسط نفوذهم في بلاد الحجاز لأنهم كانوا يعلمون أن من يسيطر على الحرمين الشريفين يتمتع بالزعامة الروحية في العالم الإسلامي كله[٤].

---

(١) ابن العميد: تاريخ المسلمين، ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل... ج ٩، ص ٨٠.

(٣) محمد جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب، القاهرة، ١٩٥٠، ص ١٤.

(٤) المقريزي: اتعاظ الحنفا.. ص ١٤٥ ـ ١٤٦.

استغل الخليفة المعز فرصة النزاع الذي نشب بين بني الحسن وبني جعفر بن أبي طالب للتدخل في شؤون الحجاز وأرسل الدعاة ومعهم الرجال والأموال ليعقدوا الصلح بين الفريقين المتنازعين وكان نتيجة ذلك أن أعلن الحسن بن جعفر أمير مكة الدعاء على المنابر للخليفة المعز ولما وردت أخبار هذا النبأ إلى الخليفة المعز بعث إلى والي مكة تقليداً بالحرم وما يليه، وحذت المدينة المنورة حذو مكة بالدعاء للخليفة الفاطمي، وحذف اسم الخليفة العباسي منها.

عمل الخليفة المعز على توطيد سيادته في بلاد الحجار فأرسل في سنة ٣٥٩هـ ـ ٩٧٢م محملاً قوامه عشرون جمل يحمل المال والمتاع للحرمين ويرافقه عدَدٌ من العسكر[١] وبذلك انتشر النفوذ الفاطمي في جميع أرجاء الحجاز.

وفي عهد العزيز انقطعت الخطبة للفاطميين، مما اضطر الخليفة إلى تولية ادريس بن زيري الصنهاجي إمارة الحاج في سنة ٣٦٧هـ ـ ٩٨٠م فاستولى على الحرمين وأعاد الخطبة للخليفة الفاطمي[٢].

لم يستقر سلطان الفاطميين في بلاد الحجار إلا بعد سنة ٣٧٨٠هـ ـ ٩٩٣م حين اضطر العزيز إلى إرسال حملة حاصرت مكة والمدينة وأقامت الخطبة للفاطميين[٣] وفشلت جميع المساعي التي بذلها العباسيون في عهد الخليفة القادر بالله، وما أنفقوه من أموال لاستعادة بلاد الحجاز.

وفي سنة ٤٠٠هـ ـ ١٠١٠م خلع شريف أبي الفتوح طاعة الفاطميين بتحريض من الوزير أبي القاسم بن المغربي وأقام الخطبة لنفسه وتلقب بالراشد

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا. . . ص ١٧٢.
(٢) ابن خلدون: العبر، ج ٤، ص ١٠١.
(٣) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٠١.

بالله[1] وبايعه العرب بالخلافة، فلم يجد الحاكم الفاطمي بداً من استحالة أبي الطيب ابن عم أبي الفتوح وتوليته الحرمين وإمداده بالمال والهدايا والخلع. وقد نجح أبو الطيب في صرف العرب عن طاعة أبي الفتوح والدخول في طاعة الحاكم، مما اضطر أبا الفتوح أن يكتب للحاكم ويعتذر إليه ويدخل في طاعته، فعفا عنه وأعاده إلى إمارته وأعيدت الخطبة من جديد للحاكم الفاطمي ونقش اسمه على السكة[2].

وفي سنة ٤٥٣هـ ـ ١٠٦٣م تولى محمد بن أبي هاشم إمارة مكة، فخلع طاعة الفاطميين ودعا للخليفة القائم العباسي، فبعث إليه المستنصر جيشاً بقيادة علي بن محمد الصليحي سنة ٤٥٥هـ فأعاد النفوذ الفاطمي إلى الحرمين إلا أن الأزمات الاقتصادية التي أصابت الدولة الفاطمية منذ سنة ٤٥٩هـ ـ ١٠٦٩م حتى سنة ٤٦٤هـ ـ ١٠٧٤م بسبب القحط والغلاء وانقطاع ماء النيل وما أعقبه من الوباء والموت وما رافق ذلك من فتن وحروب أهلية[3] أفقر الخزينة المصرية وحال دون إرسال الأموال إلى بلاد الحجاز، فأعاد أمير مكة الخطبة للخليفة العباسي، وأرسل السلطان أرسلان السلجوقي سنة ٤٦٢هـ ـ ١٠٧٢م فبعث إليه ثلاثين ألف دينار وخلعاً نفيسة[4] وبذلك زال نفوذ الفاطميين من بلاد الحجاز.

رابعاً ـ الفاطميون والصليحيون في اليمن

استطاع عامر بن عبد الله الزواحي داعي دعاة الإسماعيلية في اليمن استمالة علي بن محمد الصليحي ابن أحد قضاة السنة في تلك البلاد، فتحول إلى المذهب الإسماعيلي وهو صغير السن، ثم ما لبث أن استلم مكان عامر بعد وفاته، فأثبت دارته في ترسيخ الدعوة الإسماعيلية بعد القضاء على مناوئه

(١) المقريزي: خطط... ج ١ ص ١٥٧.
(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٨٨.
(٣) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص ١٣ ـ ٢٣، ٣٤.
(٤) ابن الأثير، الكامل، ج ١، ص ٢١.

واحتلال بعض قلاع اليمن سنة ٤٣٩هـ ـ ١٠٤٩م، ولما قويت شوكته واستقرت له الأمور في البلاد كتب إلى الخليفة المستنصر في مصر، فوجه إليه هذا الأخير الخلع والألقاب سنة ٤٥١هـ ـ ١٠٦١م[١]. ولم تمض فترة طويلة حتى كان علي بن محمد الصليحي قد سيطر على أكثر أجزاء بلاد اليمن وأصبحت صنعاء حاضرة ملكه.

حكم علي الصليحي بلاد اليمن باعتباره نائباً عن الخليفة المستنصر، وحرص خلفاؤه من بعده على إظهار ولائهم للأئمة الفاطميين في مصر. وليس أدل على تبعية الصليحيين للخلفاء الفاطميين من الرسالة التي أرسلها المستنصر إلى علي بن محمد الصليحي في عيد الفطر سنة ٤٥١هـ يقره فيها على ولاية اليمن ويشيد بمآثره في نشر الدعوة الإسماعيلية في بلاده. ومما جاء في الرسالة: «هذا سجل أمير المؤمنين وارد عليك في يوم عيد الفطر.. ونصر الله تعالى عليه متظاهر، وجميل صنعه لديه متتابع متوافر..»[٢].

وقد بلغ من ثقة المستنصر بعلي الصليحي أن منحه لقب الأمير الأجل شرف المعالي تاج الدولة سيف الإمام المظفر في الدين نظام المؤمنين»، كما لقبه أيضاً «منتخب الدولة وصفوتها ذا المجدين منجب الدولة وغرسها ذا السيفين نجيب الدولة وضيعتها ذو الفضلين»[٣].

وعندما خلع والي مكة محمد بن أبي هاشم طاعة الفاطميين، عهد المستنصر إلى علي الصليحي أمر إقرار الأمور في مكة والمدينة وإعادتهما إلى حظيرة الدولة الفاطمية، وقد استطاع الصليحي أن يوطد أقدام الفاطميين في بلاد الحجاز وأن يعيد الخطبة للخليفة الفاطمي إلى الحرمين ٣٤٦، فأشاد المستنصر بفضله وخلع عليه لقب «عمدة الخلافة». وكان من شدة إخلاص علي الصليحي

---

(١) الحمادي اليماني: كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، مطبعة الأنوار، ١٣٥٧هـ، ص ٤٣.
(٢) حسن ابراهيم حسن: الدولة الفاطمية، ص ٢٤٠.
(٣) المصدر نفسه، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١.

للفاطميين أن جعلت الخليفة المستنصر يبعث إليه بأبناء الأحداث الهامة التي تقع في مصر ليعلنها على الناس من فوق منابر البلاد. فلما أغار عرب بني هلال على إفريقية وهزموا المعز بن باديس في معركة حيدران، بعث المستنصر إلى الصليحي يخبره بذلك(١). وقد بلغ من تعلق الصليحي بالخليفة المستنصر الفاطمي أن كتب إليه يستأذنه السفر إلى مصر ليحظى بلقائه، وبعث إليه بكتابه مع الداعي لملك بن مالك، فأرسل الخليفة إليه كتاباً في جمادي الآخرة سنة ٤٥٩هـ ـ ١٠٦٩م يأذن له بالمجيء إلى مصر. ولكن الحظ لم يحالف الصليحي بمقابلة المستنصر لأنه اغتيل وهو في طريقه إلى مكة لإداء فريضة الحج على يد سعيد الأحول بن نجاح(٢).

ما كاد المستنصر يسمع بخبر اغتيال علي الصليحي، حتى كتب إلى إبنه المكرم يعزيه بوفاة أبيه ويقره على ملكه، ويعهد إليه بشؤون الدعوة الفاطمية في بلاد اليمن(٣).

رد المكرم على كتاب المستنصر برسالة يؤكد فيها ولاءه للفاطميين وتمسكه بدعوتهم، فاغتبط الخليفة من ذلك وأرسل كتاباً للمكرم يقول فيه: «وإنه عرض بحضرة أمير المؤمنين كتابك: كاتب خير خلف لخير سلف، نبت في منبت الولاء والبراء، وغذي من شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء... فاعلم أنك خليفة في بلاد اليمن وعماده وعدته وسناده... واعتمد شرائط فأنفذ إليك من سجل التقليد، يرفع الله به منارك»(٤).

ظل الخليفة المستنصر يتابع أخبار بلاد اليمن بدقة متناهية، حتى إذا ما علم بانتصار المكرم على قاتل أبيه سعيد الأحول، كتب إليه يعلن سروره ويقول: «فأما ما ألفيته من ذكر الوقائع العظيمة التي نوقلت شواهقها وشمت

(١) سجلات وتوقيعات المستنصر، رسالة رقم ٦٠ ص ١٩٨.
(٢) حسين سليمان محمود: الملكة أروى، ص ٢٤ ـ ٢٥.
(٣) سجلات وتوقيعات المستنصر، رسالة رقم ٣٨، ص ١٣١.
(٤) المصدر نفسه، رسالة رقم ٦٠ ص١٩٧، ١٩٨.

بوارقها، فرداك الله رداء النصر والظفر، حتى كان آخرها أن أمكنك من ناحية المعلون الذي فتك بأبيك...»[1] ظل المكرم على ولاته للفاطميين حتى توفي في سنة ٤٨٤هـ ـ ١٠٩٤م، فخلفه ابن عمه أبو حمير سبأ بن أحمد المظفر بناء على وصيته، لكن زوجته السيدة أروى لم ترضى بالوصية لأنها كانت تريد تولية ابنها عبد المستنصر وكان طفلاً، وكتبت إلى الخليفة المستنصر ترجوه بتلبية رغبتها، فأجابها الخليفة على ذلك، وأخذ يرسل الرسائل باسم المستنصر، لكن أمراء اليمن رفضوا هذا الاختيار[2].

انقسم أهل اليمن بين مؤيد ومعارض لرأي الخليفة الفاطمي، واحتدم النزاع بين أبو حمير بن سبأ وأبي ربيع سليمان الزواحي لدرجة هدد النفوذ الفاطمي في بلاد اليمن، فبعث المستنصر إلى المتنازعين ينهاهم عن الخلاف ويأمرهم بطاعة السيدة الحرة وابنها عبد المستنصر[3].

إستجابا طرفا النزاع لنداء الخليفة الفاطمي وأعلنوا تأييداً للسيدة أروى وابنها عبد المستنصر، وكتبت السيدة الحرة إلى المستنصر تزف إليه الخبر فرد عليها بكتاب يعلن سروره وفرحه[4].

لكن عبد المستنصر ما لبث أن توفي فاحتدم النزاع مجدداً بين أبو حمير الذي كان يطمح في حكم بلاد اليمن والسيدة أروى التي رفضت الزواج منه واستنجد سبأ بالخليفة المستنصر فكتب هذا الأخير إلى السيدة الحرة يأمرها بإجابة سبأ إلى طلبه ورضيت السيدة بتلبية نداء الخليفة رغم كرهها لهذا الزواج[5].

---

(١) سجلات وتوقيعات المستنصر، رسالة رقم ٦٠ ص١٩٨.

(٢) حسن سليمان محمود: الملكة أروى.. ص٢٥ ـ ٢٥.

(٣) سجلات وتوقيعات المستنصر. رسالة رقم ٣٨ ص١٣١.

(٤) المصدر نفسه رسالة رقم ٣٦ ص١٢١.

(٥) حسين الهمداني وحسن سليمان محمود: الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن ص ٢١٦. وأنظر عمارة اليمني: النكت الحصرية ص٣٢ ـ ٣٣.

لم يغير ضغط المستنصر على السيدة الحرة بالزواج من ولائها للدولة الفاطمية، بل ظلت تراسله وأفراد أسرته حتى وثق بها وكلفها بتنظيم الدعوة الإسماعيلية في الهند وعمان(١).

ظلت العلاقة بين الفاطميين والصليحيين قوية بعد وفاة المستنصر سنة ٤٨٧هـ - ١٠٩٧م فأعلنت السيدة الحرة اعترافها بشرعية الخليفة المستعلي بالرغم من أنه لم يحظ بتأييد الأغلبية في مصر، وعندما انتقل عدوى الصراع بين المستعلية والنزارية من مصر إلى اليمن لم تأل السيدة الحرة جهداً لمناصرة المستعلية(٢).

ولما علم الخليفة الآمر الذي خلف والده المستعلي سنة ٤٩٥هـ - ١١٠١م بموقف السيدة الحرة أرسل الداعي علي بن إبراهيم بن نجيب الدولة إلى اليمن في سنة ٥١٣هـ - ١١٢٠ لمساندة السيدة الحرة في صراعها مع أعدائها(٣).

اشتدت أواصر الثقة بين الآمر والسيدة الحرة، فأرسل إليها كتاباً في ربيع الأول من سنة ٥٢٤هـ - ١١٣١م يبشرها فيه بمولد ولي عهده أبي القاسم الطيب ويطلب منها أن تعلن هذا النبأ من على منابر اليمن(٤).

ولما قتل الخليفة الآمر في سنة ٥٢٤هـ - ١١٣١م ولي الخلافة ابن عمه الحافظ بعد أن تخلص من الطفل الإمام الطيب، فساء هذا الأمر السيدة الحرة واعتبرت خلافة الحافظ باطلة، ولم تجد جميع المحاولات التي قام بها الحافظ لاستمالتها إلى جانبه وظلت تدعو للطيب على منابر بلادها.

وانتقل الصراع إلى بلاد اليمن فريق يؤيد الطيب وآخر يؤيد الحافظ. كان

---

(١) Al - Hamdani, Lettres of al - Mustansir Billah, B.S.O.S. 1939 vol. 7. P 321

(٢) Ibid. p. 318.

(٣) حسين الهمداني وحسن سليمان محمود: الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن ص ١٦٨ - ١٧٠.

(٤) المصدر نفسه ص٢١٨. وانظر ابن ميسر: تاريخ مصر. . . ص٧٢.

لإنقسام الإسماعيلية في بلاد اليمن إلى فريقين أسوأ الأثر في أحوال البلاد ولا سيما بعد وفاة السيدة الحرة سنة ٥٣٢هـ ـ ١١٣٩م وصاحب ذلك خضوع الخلافة الفاطمية في مصر إلى الأتابك نور الدين زنكي ووزيره صلاح الدين الذي استولى على بلاد اليمن وقضى على نفوذ الفاطميين فيها.

خامساً ـ الفاطميون والأمويون في الأندلس

إستاء الأمويون في الأندلس من قيام الدولة الفاطمية في المغرب، ونظروا إليها نظرة ترقب وحذر لسببين:

أولاً ـ العداء بين الدولتين بسبب اختلافهم في المذهب الديني، وجذور هذا الخلاف يعود إلى أن العلويين الشيعة يعتقدون أن الأمويين السنة اغتصبوا حقهم في الخلافة.

ثانياً ـ كانت سياسة الفاطميين لا تقتصر في السيطرة على المغرب، بل كانت الأندلس ضمن خطتهم التوسعية، ودليل ذلك أنها كانت مسرحاً لدعاة الفاطميين قبل قيام دولتهم في المغرب العربي، من أمثال أبو اليسر الرياضي الذي جاء إليها في أوساط القرن الثالث الهجري، ثم غادرها إلى مصر، حيث اعتقل، ولم يطلق سراحه إلا بعد قيام الدولة الفاطمية(١).

ثم جاء بعده جعفر البغدادي، الذي تولى فيما بعد قيام الدولة الفاطمية منصب صاحب البريد(٢). وفيما بعد دخل الجغرافي ابن حوقل الأندلسي على هيئة تاجر، فقدم في كتابه «صورة الأرض» إحاطة شاملة عن بلاد الأندلس، فيها كل ما يرغب في غزوها من غنى ووفرة مال وجباية هذا بالإضافة إلى سهولة احتلالها بسبب ضعف أهلها وتفككهم ونقص مهارتهم الحربية(٣).

---

(١) ابن الآبار: التكملة لكتاب الصلة، تحقيق كودميرا، مدريد ١٩٦٧، ج ١ ص ٤٥٤.

(٢) ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار المغرب والأندلس، طبعة صادر بيروت، ١٩٥٠، ص ١٦٩.

(٣) ابن حوقل، صورة الأرض، طبعة بيروت، د.ن. ص ١٠٤ ـ ١٠٦.

بدأ الصراع السياسي والحزبي بين الأمويين والفاطميين عندما أخذ عبيد الله المهدي يوجه قواته نحو المغرب الأقصى بقيادة وصالة بن حبوس لمحاربة قبائل صنهاجة التي أعلنت رفضها للحكم الفاطمي، فحاصر وصالة حاضرتهم ناكور في سنة ٣٠٥هـ فهرب الصنهاجيون إلى الأندلس حيث أكرمهم عبد الرحمن الناصر الأموي وأحسن وفادتهم، وترك لهم حرية الإقامة والتجوال في أرض بلاده، ولا سيما في مدينة مالقة مكان استقرارهم، ولما عادوا إلى بلادهم أمدهم الخليفة الأموي بالأموال اللازمة[١].

أضمر الفاطميون العداء للأمويين باعتبارهم عائقاً لهم في شمال إفريقية، المجال الحيوي لمد نفوذهم وتحقيق سياستهم، كما كانوا يرون في الوقت نفسه أن أي مدخل من جانب الأمويين لمساعدة أهالي المغرب يتعارض مع مصلحتهم..

لم يأبه الأمويون لكره الفاطميين فقد كان سلطانهم في بلاد الأندلس خلال الفترة الممتدة بين سنتي ٣١٤هـ - ٣٥٨هـ - ١٩٢٤م - ٩٦٨م مستقراً قوياً. ومع هذا تميزت سياستهم بأن تدخلهم المباشر قد اقتصر على احتلال المنطقة المطلة على المضيق في شمال المغرب الأقصى، أما فيما عداها فقد اكتفوا بنفوذ غير مباشر على القبائل والمدن المعادية للفاطميين والاقتصار بإثارة هذه الجماعات عليهم ودعمهم بالمال، كل ذلك يظهر بوضوح وجلاء من خلال وقائع الأحداث، التي جرت خلال هذه الفترة. وقد بدأت بالتدخل المباشر من قبل الأندلسيين في عهد عبد الرحمن الناصر لدين الله، الذي تمكنت قواته من احتلال مليلة سنة ٣١٤هـ - ٩٢٤م وسبتة بعد خمس سنوات، من هذا التاريخ، وفي سنة ٣١٦هـ - ٩٢٦م أرسل إلى المغرب محمد بن عبيد الله بن أبي عيسى الفقيه، الذي ينحدر من أصل مغربي إلى زعيم مغراوة محمد بن خزر الذي كان

---

(١) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص ٩٤ - وانظر ابن الخطيب في تاريخ المغرب ص ١٧٦ - ١٧٧.

في حالة حرب مع الفاطميين، فأعلن الأخير نتيجة لذلك الدعوة للأمويين في كل مراكز المغرب الأوسط بإستثناء تاهرت، التي ظلت على ولائها للدولة الفاطمية[1].

وفي سنة ٣١٩هـ ـ ٩٢٩م رفض موسى بن أبي العافية الزناتي صاحب مكناس طاعة الفاطميين وأعل تبعيته لعبد الرحمن الناصر الأموي وأخذ يهدد الفاطميين في بلاد المغرب الأقصى[2] بل كيان الفاطميين أنفسهم، فأرسل إليه الخليفة المهدي جيشاً من عشرة آلاف مقاتل بقيادة حميد بن يصل صاحب تاهرت وابن أخي وصالة بن حبوس وانتهت الحرب بفرار موسى من مدينة فاس فولى عليها حميد أحد قواده.

ولم يكد موسى بن أبي العافية يعلم بنبأ وفاة المهدي وتولية ابنه القائم بأمر الله حتى أعلن الثورة في بلاد المغرب سنة ٣٢٣هـ ـ ٩٣٦ بتحريض من عبد الرحمن الأموي، وقام احمد ابن بكر بن حمدان فقتل عامل الفاطميين على فاس، وبعث برأسه إلى موسى بن أبي العافية، فأرسلها بدوره إلى عبد الرحمن الأموي بقرطبة[3] كما بسط موسى نفوذه على إقليم فاس وما جاوره من البلاد.

ولما علم القائم الفاطمي بذلك سير ميسور الفتى على رأس جيش كبير للقاء ابن أبي العافية ورده إلى طاعة الفاطميين، فسار إلى فاس حيث أسر أحمد بن أبي بكر وبعثه إلى المهدية[4]. ولما يئس موسى بن أبي العافية من استرداد فاس، سار إلى مدينة ناكور واستولى عليها، فأرسل إليه الخليفة القائم صندل الفتى لاسترداد ناكور وشد أزر ميسور، فهرب ابن العافية وتفرق الزناتيون أتباع الأمويين في الصحارى.

---

(١) الخشني، قضاة قرطبة وعلماء إفريقية، ص ١٧٢ ـ ١٧٥.
(٢) السلاوي: الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى. . . ج ١ ص ٨١.
(٣) ابن خلدون، العبر، ج ٦، ص ١٣٥ ـ ١٣٦.
(٤) المصدر نفسه، ج ٦، ص ١٣٦.

وبالرغم من سيطرة الفاطميين على المغربيين الأوسط والأقصى فإن حكمهم لم يستقر في هذه المنطقة.

وقد تمكن الأمويون من زعزعة الحكم الفاطمي في مقره بالمغرب الأدنى، وذلك بمساعدة الناقمين على الفاطميين هناك، ولا سيما في بلاد الجريد حيث اندلعت الثورة الأباضية بزعامة أبي يزيد مخلد بن كيداد المشهور بصاحب الأتان، الذي كان قد بدأ بالتبشير في القيروان حيث كانت جماعة الفقهاء المالكيين. ويبدو أن التحالف بين هؤلاء الفقهاء وأمويي الأندلس كان يعود إلى الرابط المذهبي بين الطرفين والعداء للفاطميين.

نجحت ثورة أبي يزيد واكتسحت كل مدن المغرب الأدنى، حتى تمكنت من ضرب الحصار على مدينة المهدية ذاتها قرابة عشرة أشهر، فهرب جميع سكانها إلى طرابلس وصقلية ومصر وبلاد الدولة البيزنطية[١].

وقد استفاد من هذه الثورة حلفاء الأمويين الزناتين من بني مغراوة وبني يفرن، واحتلوا تاهرت قاعدة الفاطميين الأساسية في المغرب الأوسط[٢] ووصلت مكانة الناصر لذروتها في المغرب، لأن جميع الزعماء في المغرب الأقصى بما فيهم بقايا الأدارسة قدموا له ولاءهم.

ألقت ثورة أبي يزيد الرعب في نفسية الخليفة القائم ـ لأنها كانت مؤشراً واضحاً على تدهور السلطان الفاطمي في المغرب كله ـ فكتب يستحث زيري بن مناد زعيم قبيلة صنهاجة على معونته، فلحق به في المهدية[٣].

بيد أن حسن الحظ ساعد الفاطميين في ذلك الحين بانضمام عدد غير قليل من جند أبي يزيد إلى جيوشهم ولحاقهم بهم في القيروان. ولم يعد أبو يزيد

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ١٥٠ ـ ١٥٨. وانظر المقريزي في كتابه اتعاظ الحنفا، ص ٤٥ ـ ٥٤.

(٢) ابن خلدون، العبر، ج ٧، ص ٢٤ ـ ٢٦.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٦٧ و١٥٠ ـ ١٥٨. والمقرزي، اتعاظ الحنفا، ص ٥٥.

يعتمد إلا على مساعدة قبيلتي هوارة وبني كملان، واضطر إلى الارتداد عن المهدية ويمم شطر القيروان التي امتنع أهلها وحملوه على الارتداد مع الغالبة من جنده الذين لم يلبثوا أن هلكوا من الجوع والعطش(١).

خلف المنصور والده القائم فعمل على تقوية جيشه وزيادة عدده بانضمام قوة صنهاجة إليه، فأتاح ذلك الأمر الفرصة للخليفة أن يوقع بجيش الخارجي في سنة ٣٣٦هـ ـ ٩٤٩م؛ فقطعت أوصاله. أما أبو يزيد فهرب إلى الصحراء حيث قبض عليه وبعث إلى المهدية، وهناك مات متأثراً بجراحه في محرم سنة ٣٣٦هـ ـ ٩٤٩م(٢).

ولما تولى الخلافة المعز لدين الله لم تكن الأمور قد استقرت بعد للفاطميين في بلاد المغرب، فكان لا بد أن يعمل على إخضاعها وإقرار الأمن في ربوعها، حتى يستطيع أن يوجه جيوشه لمحاربة الأمويين في بلاد الأندلس، وكان عمله من الصعوبة بمكان لأن الأحوال كانت تحتم عليه أن يقوم بعمل جدي في بلاد المغرب كي لا تضيع هيبة الفاطميين فيها، فقد استطاع الأمويون أن يخضعوا كثيراً من أمراء تلك البلاد، بالقوة تارةً وبالخديعة تارة أخرى، منتهزين فرصة بعد البلاد عن حاضرة الفاطميين.

وليس أدل على ذلك من الوصف الذي أورده السلاوي عن طريقة توغل نفوذ عبد الرحمن الناصر في شمالي إفريقية، فيقول: «وكانت قوات الناصر تحوز من الأندلس إلى العدوة(*)، يقاتلون من خلف الأدارسة من البربر ويستألفونهم، والناصر محمد مساند لمن عجز منهم برجاله، مقو لمن ضعف منهم بماله، حتى ملك أكثر بلاد المغرب، وبايعته قبائله من زناتة والبربر،

---

(١) ابن الأثير، الكامل ج٨، ص ١٥٨.

(٢) ابن أبي الدينار، كتاب المونس في أخبار إفريقية، ص ٦٠.

(*) العدوة: بضم العين، هي الأرض المرتفعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، والمحيط الأطلسي، وتسمى عدوة المغرب، وتقابلها عدوة الأندلس.

وخطب له على منابره، من تاهرت إلى طنجة ما عدا سجلماسة، وبايع الناصر أهل فاس فيمن بايعه من بلاد العدوة»[1].

ويظهر أن الحسن بن القاسم الإدريسي، الذي فر إلى قرطبة، عاد لمناوأة الفاطميين، وإعلان ولائه للخليفة الناصر ثم لابنه الحكم المستنصر من بعده، وقد ذكر السلاوي سبب هذا التقرب، فعزاه إلى خوف الحسن بن القاسم من الأمويين في الأندلس، لقرب المسافة من بلاده وبلادهم. وكان من أثر ذلك أن بعث الخليفة المعز الفاطمي قائده بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي ـ بعد أن سماه اسماً عربياً هو يوسف، ولقبه سيف العزيز بالله ـ الذي استطاع أن يعيد الخطبة للفاطميين في بقايا دولة الأدارسة، ويبطل الدعوة للأمويين منها[2].

ومع ذلك لم يستطع المعز القضاء على الأدارسة، لأن الحكم الثاني في الأندلس استغل ضعفهم، فعمل على بسط نفوذه في جميع بلادهم في إقليم الريف، وقد أرسل قائده ومولاه غالباً على رأس جيش كثيف لمحاربة الحسن بن القاسم فانتصر عليه، وأسره هو وأهل بيته. وقد أقاموا في الأندلس طوال عهد المعز تقريباً حيث عفا عنهم الحكم الثاني، إلا أنه لم يلبث أن غضب عليهم وطردهم من قرطبة، الذي رحب بهم، وأمد الحسن بجيش قصد به إفريقية وأعانه زيري بن مناد بجيش آخر، لاسترداد بلاده من الأمويين. إلا أن المنصور بن أبي عامر حاجب هشام الثاني المؤيد الأموي ٣٦٦هـ ـ ٣٩٩ ـ ٩٧٩م ـ ١٠١٢م أرسل جيشاً استطاع أن يحل به الهزيمة، وقتله في سنة ٣٧٥هـ ـ ٩٨٨م، حيث انقرضت دولتهم[3].

وبذلك عاد الوضع إلى ما كان عليه من حكم مباشر إلى حكم غير مباشر وضع بيد زيري بن عطية حليف الأمويين، فعمل على توسيع سلطاته في

---

(١) السلاوي: الاستقصاء، ج ١، ص ٨٦.
(٢) المصدر نفسه، ج ١ ص ٨٥.
(٣) ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس، ج ١ ص ٢٣١.

المغرب الأوسط بالسيطرة على تلمسات، وبناء وحدة ليتخذها عاصمة بدلاً من مدينة فاس[١].

اختلف الأمويون مع زيري بن عطية، لأنهم لمسوا عنده نزعة الاستقلال عنهم، فعملوا على طرده إلى الصحراء، ثم أعيد الحكم لابنه المعز بعد موته.

وفي عهد الخليفة الحاكم الفاطمي ظلت العلاقة متوترة بين الفاطميين والأمويين الذين كانوا يتحينون الفرص للقضاء على الخلافة الفاطمية في مصر وقد ظهر ذلك واضحاً في الثورة التي قام بها أبو ركوة الذي ينتمي إلى هشام بن عبد الملك بن مروان الأموي وكان يدعو لعمه هشام بن الحكم المستنصر الأموي بالأندلس. وتبعه كثير من الناس، وعظم أمره وسار على رأس جيش كبير إلى برقة، واستولى عليها بعد أن هزم جيش الحاكم، ولم يقتصر أمره على ذلك، بل جهز حملة جديدة واستحوذ على ما كان بدار الإمارة من الأموال.

اضطرب الحاكم من ثورة أبو ركوة اضطراباً شديداً وبعث إليه جيشاً كبيراً بقيادة ينال الطويل أحد قواد الأتراك غير أن هذا الجيش كان معظمه من قبيلة كتامة التي لم تكن راضية عن هذا القائد التركي. وهذا ما سهل على أبو ركوة الانتصار على ينال وأسره، ثم ما لبث أن قتله واستولى على الأموال التي كانت بحوزته، فقوي بذلك أمره وزاد خطره على مصر، فجهز جيشاً كبيراً من الشاميين والغلمان الحمدانية، فحلت الهزيمة بجيش الحاكم أولاً، ثم التقوا بأبي ركوة فهزموه وقتلوا نحو ثلاثين ألف من جنده، وسيروا رأس أبي ركوة إلى الحاكم، فأمر بصلب جسده[٢] وبانتهاء هذه الثورة وقائدها تقلص الدور الأموي في بلاد المغرب.

ولا يفوتنا أن نذكر هنا الوسائل التي استخدمتها الدولة الأموية والفاطمية في صراعهما على السلطة والنفوذ والتي تمثلت بالتشهير ببعضهم، فقامت الدعاية عند

---

(١) د. علي أحمد: تاريخ المغرب العربي الإسلامي، منشورات جامعة دمشق، ١٩٩١، ص ١٤٥.
(٢) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ٢١٦ ـ ٢١٧.

الفاطميين على أساس مذهبي، يتجسد بانتمائهم إلى بيت الرسول محمد عليه السلام، وأن صاحبهم مرتبط بالله، ولا بد من انتصاره حيث وعد الله بذلك، أما الحاكم الأندلسي فكان يرفض الإدعاء الفاطمي وينكر عليهم هذا النسب.

وقد أورد المؤرخون طرفاً من الرسائل التي تبودلت بهذا الشأن فيقول الثعالبي أن عبد الرحمن الثالث الأموي الأندلسي تلقى من العزيز كتاباً يسبه فيه ويهجوه، فكتب إليه عبد الرحمن: «أما بعد، فقد عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك»[١]. أوردنا هذا سابقاً.

ويقول ابن خلكان أن العزيز لم يرد على عبد الرحمن وأنه تألم لذلك أشد الألم[٢]. ولكن العيني ذكر أن الأموي كتب إلى الخليفة الفاطمي كتاباً هجاه فيه وطعن في أهله، وأنه دعي في نسبه، وأن جده القداح باطني وكتب في أول كتابه:

ألسنا بني مروان كيف تقلبت بنا الحال أو دارت علينا الدَّوائر

فرد عليه الفاطمي:

إذا ولد المولود منها تهللت له الأرض واهتزت إليه المنابر[٣]

أما الوسيلة الثانية اتي استخدمها الفاطميون والأمويون هي أعمال الجاسوسية فعمدت كل دولة إلى تحري وتسقط أخبار الدولة الأخرى، بواسطة أشخاص كانوا يدخلون إلى بلاد الطرفين على هيئات مختلفة لرصد تحركات الخصم، ونقل معلومات من قلب البلاط المعادي وقتل الخصوم وما إلى ذلك[٤].

يضاف إلى ذلك الإغراءات المالية التي كانت تبذل من قبل الطرفين لكسب ود هذه القبيلة أو تلك.

---

(١) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج ١، ص ٢٣٤.
(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ١٥٢.
(٣) العيني: عقد الجمان، مخطوط بدار الكتب المصرية، ج ١٩ ص ٣٩٦.
(٤) أحمد بدر، تاريخ الأندلس عصر الخلافة، ص ١٠٧ ـ ١١٠.

الفاطميون والصليبيون

تـوطئة:

شهد الشرق الأدنى في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي أخطر مرحلة من مراحله التاريخية تمثلت في الحروب المعروفة في التاريخ بالحروب الصليبية، التي شنها المسيحيون في غرب أوروبا على المسلمين في الشرق لانتزاع الأراضي المقدسة من أيديهم واعتبروها حرباً مقدسة، مندفعين كالسيل العارم يتملكهم الغزو والطمع والجشع وشهوة التسلط، متخذين من الدين حافزاً لسفك الدماء وللسلب والنهب والسيطرة على أراضي الغير بالقوة.

والسؤال ما هي الأسباب الحقيقية لهذ الحروب؟

مهما تعددت الأسباب وتباينت حول الحروب الصليبية فإن أسباباً دينية وسياسية واقتصادية تكمن وراء هذا العدوان.

- إنها امتداد لمطامع الغرب في الشرق، وحلقة بارزة في سلسلة الصراعت بين المسلمين والعالم المسيحي، وهي الصراعات التي بدأت بخروج المسلمين من شبه الجزيرة العربية في القرن السابع للميلاد ونجاحهم في اقتطاع أجزاء ثمينة تعتز بها المسيحية وتعتبرها صفحات رئيسية في كيانها وتراثها(*).

(*) المناطق التي كانت خاضعة للدولة البيزنطية واستولى عليها الإسلام.

- اعتادت أوروبا طوال العصور الوسطى أن تستورد من الشرق كثيراً من الحاصلات والمصنوعات وفي مقدمتها التوابل والبخور اللتين لا يمكن للغرب أن يستغني عنهما لما كان لهما في تلك الفترة من أهمية بالغة الأهمية في الكنائس والأديرة بالنسبة للأولى وفي قصور النبلاء والأمراء بالنسبة للثانية. لهذا كان لا بد للغرب الأوروبي من الحصول على غلات الشرق مهما كان الثمن، كما أن السيطرة على الطرق التجارية الكبرى بين الشرق والغرب هي حلمه الحقيقي.

- عرفت أوروبا في تلك العصور العديد من الصراعات الدينية والسياسية، فكان ثمة ضرورة تدفع الحكام إلى توجيه الفرسان لقتال المسلمين بدلاً من الانصراف إلى الحروب الداخلية، ومحاولة الاستيلاء على ما بيد المسلمين من ممتلكات، وهذا هو السر فيما نشب بين الفريقين من حروب في إسبانيا وفي جزر البحر المتوسط، وما عمد إليه البابوات من نقل هذا النضال إلى العالم الإسلامي في الشرق الأدنى والاستيلاء على الأراضي المقدسة.

- مطامع الأمراء والنبلاء الذين اشتركوا في هذه الحروب في تأسيس ممالك يتوجون عليها، وكشفت الحوادث عن أغراض بوهمند وتانكرد من النورمان وبلدوين من اللورين وريموند من تولوز بفرنسا، في تحقيق أغراضهم بما أقاموه من إمارات أنطاكيا والرها وطرابلس.

- انتشار الأوبئة والمجاعات في غرب أوروبا وقتذاك دفع العديد من المهاجرين الانضمام إلى المشتركين في هذه الحروب.

- شهدت المنطقة العربية في الفترة من سنة ١٠٦٠هـ - ١٠٩٢هـ - ٤٦٨هـ - ٥٠٠م ذروة الإحياء الديني وكان للسلاجقة اليد الطولى في إعادة الروح للمبادىء الإسلامية وكان هذا الحافظ سبباً رئيسياً لاندفاع السلاجقة غرباً وشمالاً، فانتزعوا من الفاطميين سنة ٤٧٩هـ - ١٠٧١م بيت المقدس، وفي نفس السنة أنزلوا هزيمة ساحقة بالإمبراطور رومانوس الرابع في موقع

مانزكرد، كان نتيجتها أن فقد البيزنطيون كل آسيا الصغرى تقريباً، وامتدت أملاك المسلمين حتى بلغت بحر مرمرة[(١)] فاستاء البيزنطيون من هذا الوضع واستنجد إمبراطورهم الكسيوس كومنين سنة ٥٠٢هـ ـ ١٠٩٤م بالبابا في روما فعقد مجمع كليرمونت Clermont في تشرين الثاني سنة ١٠٩٥هـ ـ ٥٠٣م برئاسة البابا ايربان الثاني Urban II، وبحضور أمراء من مختلف جهات أوروبا، وعدد كبير من رجال الدين، ومندوبين عن الإمبراطور البيزنطي وممثلين للمدن الإيطالية، استطاع البابا أن يثير حماس السامعين، وأن يدعو المسيحيين إلى مقاتلة المسلمين. فتجاوب في أرجاء المنجتمع هتاف بترديد عبارة «هكذا أراد الله» وبادر الحاضرون إلى اتخاذ الصليب شارة لهم. وتحددت سنة ٥٠٥هـ ـ ١٠٩٧م موعداً لرحيل الصليبيين، وتعينت القسطنطينية لاجتماع فئاتهم لترتيب خطة الهجوم على آسيا الصغرى وبلاد الشام وقام راهب فرنسي اشتهر باسم بيتر الناسك بالطواف في أرجاء فرنسا يصور للناس بأسلوب عاطفي ما يقاسيه الحجاج المسيحيون ويحثهم على الانخراط في حملة صليبية ضد المسلمين[(٢)].

وفي سنة ٥٠٤هـ ـ ١٠٩٦م اندفع جمع من المهاجمين إلى الشرق حمل في طياته عدداً كبيراً من المغامرين والدهماء والرهبان والهاربين من الأديرة، والأقنان الآبقين من ساداتهم.

استطاع الصليبيون في الفترة ما بين ٥٠٥هـ ـ ٥٠٧م و١٠٩٩ أن يستولوا على الرها، وإنطاكيا وبيت المقدس، ولم يمض إلا سنوات قليلة حتى صار في أيديهم الجانب الأكبر من فلسطين وساحل الشام.

---

(١) أرنست باركر، الحروب الصليبية، ص ١٨.

(٢) فيليب حتى: مختصر تاريخ لبنان، ص ١٢٨.

الفاطميون والحملة الصليبية الأولى:

الواقع أن موقف الدولة الفاطمية من الحملة الصليبية الأولى عند وصولها إلى أطراف بلاد الشام سنة ٥٠٥هـ ـ ١٠٩٧ كان سلبياً، ولعل السبب في ذلك هو عدم فهم ماهية الحركة الصليبية، بل ربما رأى بعض الخلفاء الفاطميين في الصليبيين درعاً يحميهم من خطر السلاجقة السنيين. وقد عبر موقف الوزير الأفضل شاهنشاه ابن بدر الجمالي صاحب السلطة الفعلية في مصر آنذاك عن جهلهم لنوايا الصليبيين الحقيقية، فما أن سمع هذا الوزير بأنهم وصلوا إلى الشام واشتبكوا مع الأتراك السلاجقة، حتى سعى أن يقيم تحالفاً مع الصليبيين، بحيث تكون انطاكيا للصليبيين وبيت المقدس للفاطميين، وربما استند الوزير في تفكيره هذا إلى بعض السوابق التاريخية، لأن الدولة البيزنطية أيام صحوتها في القرن العاشر لم تتعد أملاكها في بلاد الشام مدينة إنطاكيا. لذلك اعتبر الأفضل أن أولئك الصليبيين إنما أتوا ليفعلوا في بلاد الشام مثلما فعل الإمبراطور نقفور فوقاس والإمبراطور حنا تزيمكس في القرن العاشر.

أرسل الأفضل سفارة إلى الصليبيين وصلتهم وهم أمام إنطاكيا (كانون الثاني ـ شباط ٥٠٦هـ ـ ١٠٩٨م للتفاوض معهم على اتفاق يتعاون فيه الطرفان في القضاء على السلاجقة، على أن تقسم الغنيمة بعد ذلك بينهما، بحيث يكون القسم الشمالي من الشام (سوريا) للصليبيين، في حين يحتفظ الفاطميون بالقسم الجنوبي لفلسطين[١].

ولعل هذا الاتفاق بين الفاطميين والصليبيين هو الذي جعل العديد من المسلمين يعتبرون أن مجيء الصليبيين كان بإيعاز من الخلافة الفاطمية لحمايتهم من السلاجقة. وفي هذا الصدد يقول ابن الأثير: «وقيل أن أصحاب مصر من البلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية... خافوا، وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم

---

(١) سعيد عاشور، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى... ص ١٧٠ ـ ١٧١.

إلى الخروج إلى الشام ليملكوها ويكونوا بينهم وبين المسلمين»[١].

وطبقاً لهذه الوقائع تشير المراجع إلى أن الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين كان قد نصح الصليبيين عند مرورهم بالقسطنطينية في طريقهم إلى الشرق سنة ٥٠٤هـ ـ ٥٠٥م بأن يحاولوا محالفة الفاطميين في مصر، ليكونوا لهم عضداً ضد السلاجقة في الشام وشمال العراق.

مهما يكن من أمر صحة هذه النصيحة والاستجابة إليها [*] فقد رحب الصليبيين بالسفارة التي أرسلها إليهم الأفضل. ولعل هذه الأحداث كلها تعطينا فكرة جلية واضحة عن مدى انقسام العالم الإسلامي في ذلك الدور، بين سنة وشيعة وعرب وترك، وما سببه هذا الانقسام من خسارة للمسلمين جميعاً، الأمر الذي مكن الدخلاء من تحقيق مكاسب على الجميع. وعودة إلى المصادر الصليبية نرى كيف تصور لنا هذا الانقسام بوضوح، ومدى غبطة الفاطميين لما حل بالسلاجقة من كوارث على أيدي الصليبيين[٢].

استفاد الصليبيون فائدة كبرى من الاتفاق الذي عقدوه مع الفاطميين، فقد أكسبهم وضعاً سياسياً معترفاً به في ركن هام من أركان العالم الإسلامي وأخذوا يلعبون دورهم في مهارة فائقة، فلم يكتفوا ببث شعور الطمأنينة في نفوس الفاطميين، وإعطائهم صورة غير حقيقية عن مشروعاتهم في بلاد الشام وإنما حاولوا أيضاً كسب ود سلاجقة دمشق فأرسلوا إليهم يطمأنونهم إلى أنهم لا يطمعون إلا في استرداد الأماكن والبلدان التي كانت تابعة للبيزنطيين مثل الرها وإنطاكيا واللاذقية[٣].

---

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٤٩٠هـ.

(*) ورد في بعض المراجع الصليبية إشارات إلى أن الصليبيين استجابوا لنصيحة الإمبراطور البيزنطي وأرسلوا من نيفية سفارة إلى مصر.

(٢) سعيد عاشور: بحوث ودراسات، ص ١٧٢.

(٣) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٤٩١هـ.

على أن الحقيقة لم تلبث أن ظهرت وأدرك الفاطميون أن الغزاة الصليبيين لم يقفوا عند حد الاستيلاء على إنطاكيا وغيرها من المراكز في بلاد الشام، وإنما أخذوا في التوغل في جنوب الشام باتجاه فلسطين، وعندئذٍ أرسل الفاطميون إلى الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين عما إذا كانت تلك الحركة بمعرفته وتعمل لحسابه، فتنصل الإمبراطور وأنكر علاقته به. وعندما أدرك الأفضل أن بيت المقدس و الهدف الأساسي للصليبيين، أرسل إليهم سفارة وصلتهم قرب طرابلس تحمل الهدايا النفيسة والأموال الضخمة لكل واحد من زعماء الصليبيين، كما تحمل لهم عرضاً من الخليفة الفاطمي فحواه السماح للحجاج الصليبيين بالحج وزيارة كنيسة القيامة في بيت المقدس على شكل مجموعات من مائتي أو ثلاثمائة حاج، بشرط ألا يكونوا مسلحين، ولكن الصليبيين ردوا على السفارة الفاطمية بكل غطرسة وحماقة أنهم سيتمكنون من الحج فعلاً، ولكن بإذن الله وليس بإذن الخليفة الفاطمي. وكان معنى ذلك بداية الشرارة التي فجرت الصدام المسلح بين الفاطميين والصليبيين من أجل بيت المقدس.

أدرك الفاطميون غلطتهم ولكن بعد فوات الأوان، فجميع المناطق التي بسطوا سيادتهم عليها في فلسطين وساحل الشام جنوبي نهر الكلب لم يتركوا فيها قوات كافية لتدعيم نفوذهم والمحافظة على مكاسبهم في تلك الجهات، وذلك باستثناء حامية بيت المقدس وبعض المراكز الساحلية التي ظل الأسطول الفاطمي قادراً على إمدادها بالرجال والزاد. وكانت هذه المراكز الأخيرة أول ما تعرض لهجوم الصليبيين بحكم مرورهم فيها بعد أن غادروا طرابلس في طريقهم إلى بيت المقدس وعندما وصل الصليبيون إلى الرملة، وجدوها خالية، بعد أن هجرها أهلها، فعقدوا فيها مجلساً للحرب في أوائل سنة ٥٠٧هـ ـ ١٠٩٩م ناقشوا فيه عدة مسائل أبرزها: إن بدأوا بمهاجمة مصر باعتبارها مركز الثقل في العالم الإسلامي وأن استيلائهم على الدلتا يؤمن لهم الأمن والاستقرار في بيت المقدس.

أمام هذا الواقع لم تتخاذل الخلافة الفاطمية عن محاربة الصليبيين على أولى القبلتين وثاني الحرمين، فأرسلت جيشاً ولكنه وصل عسقلان بعد فوات الأوان، أي بعد أن استولى الصليبيون على بيت المقدس بعشرين يوماً، فما كان من الأفضل إلا أن بعث رسولاً إلى الفرنج يوبخهم على ما فعلوه[١].

وفي الوقت الذي كان الأفضل منتظراً في عسقلان، بادر الصليبيون بالهجوم لأنه خير وسائل الدفاع تساندهم قوة صليبية جاءتهم من الرملة وفي المعركة التي دارت بين الطرفين في ١٢ آب سنة ٥٠٧هـ - ١٠٩٩م حلت الهزيمة بالفاطميين، وتشتت شملهم، حتى أن بعضهم لم يجد مفراً سوى البحر فألقوا بأنفسهم في اليم حيث غرقوا. في حين احتمى البعض الآخر «بشجر الجميز، وكان هناك كثيراً، فأحرق الفرنج بعض الشجر حتى هلك من كان فيه». أما الوزير الأفضل فقد هرب مع رجاله في البحر قاصدين مصر[٢].

إن انتصار الصليبيين في عسقلان قضى على هيبة الفاطميين في بلاد الشام وأخذت مدن فلسطين تتساقط واحدة بعد الأخرى في قبضة الغزاة، دون أن تحرك الخلافة الفاطمية ساكناً. وليس أدل على ذلك من موقعتها من أرسوف بعد محاصرة الصليبيين لها وارتكاب أفظع الجرائم بحق أهلها من المزارعين الذين وقعوا أسرى بين أديهم حيث قطعوا أنوفهم وأقدامهم وأيديهم[٣]، ولم تجد جميع النداءات التي وجهها أهالي أرسوف إى الفاطميين لطلب المعونة واكتفى الوزير الأفضل بإرسال قوة صغيرة من ثلاثمائة جندي ما لبث أن قضي عليها بعد أن وقع في كمين نصبه الصليبيون في آذار سنة ٥١١هـ - ١١٠٠م عندئذٍ أدرك أهل أرسوف بعدم جدوى الحماية الفاطمية فدخلوا في تبعية الصليبيين، وحذا

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر... ص ٤٣٦.
(٢) المصدر نفسه ص ٤٦٤ - ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٧ - ابن الأثير. الكامل، حوادث سنة ٤٩٢هـ.
(٣) Grousset: Hed, der Croisades 111, P. 182

حذوهم حكام عسقلان وقيسارية وعكا متعهدين بدفع جزية كبيرة لهم رمزاً لهذه التبعية. وفي سنة ٥١٢هـ ـ ١١٠١م استولى بلدوين الأول ملك بيت المقدس على أرسوف ثم على قيسارية[١].

لعل المذابح التي اقترفها الصليبيون في بيت المقدس وأرسوف وعسقلان.. دفعت بعض مؤرخي الغرب الحديثين إلى الاعتراف بأن هذه الأعمال المروعة كانت لطخة عار في تاريخ الحملة الصليبية الأولى. وإذا كان المسلمون قسوا بتطرف في معاملة الصليبيين ـ فيما بعد ـ فإن هذا التطرف في المعاملة لم يكن إلا رد فعل على الجرائم النكراء التي ارتكبوها والتي ظلت ماثلة أمام المسلمين تثير الأسى في قلوبهم حتى تم لهم طرد آخر صليبي من هذه البلاد.

النهوض الفاطمي في وجه الصليبيين:

أمام هذه المخاطر والتحديات شعر الفاطميون بتخاذلهم فقام الوزير الفضل بإرسال ثلاث حملات كبيرة إلى فلسطين في السنوات ٥١٢هـ ـ ٥١٣هـ ـ ٥١٦م. وصلت الحملة الفاطمية الأولى بقيادة المملوك سعد الدولة القواس إلى عسقلان وأخذت تنتظر وصول إمدادات جديدة تأتيها من مصر، مما أتاح فرصة كافية لبلدوين استفاد فيها من جمع قواته ووضع خطته، وفي المعركة التي دارت بين الفاطميين والصليبيين في السهل الواقع إلى الجنوب الغربي من مدينة الرملة انتصر الصليبيون، وقتل من المسلمين عدد كبير كان من بينهم قائد الحملة الفاطمية سعد الدولة القواس، في حين تراجع الجيش الفاطمي إلى عسقلان[٢].

وصلت أنباء الهزيمة إلى الوزير الأفضل فاستشاط غضباً وأسرع إلى إعداد حملة كبيرة من العرب والسودان بلغت عشرين ألف رجل بقيادة شرف

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٦٧.
(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٨، حوادث سنة ٤٩٦هـ.

المعالي بن الوزير الأفضل وصلت إلى عسقلان في منتصف أيار سنة ٥١٣هـ ـ ١١٠٢م. عرف بلدوين بقدوم الحملة فحشد في يافا بضعة آلاف من الصليبيين، ولكن يبدو أنه اغتر بانتصاره السابق واستخف بأمر الفاطميين، فخرج من بيت المقدس في ١٧ أيار بمائتي فارس قاصداً الرملة، وفي الطريق انقض عليهم الفاطميون بغتة، فلم يستطع بلدوين وفرسانه الصمود «فانهزم الفرنج وقتل منهم مقتلة عظيمة»[١]. وفر بعضهم إلى يافا، فلما رأى بلدوين شدة الأمر وخاف القتل والأسر ألقى بنفسه في الحشيش واختفى فيه فلما أبعد المسلمون خرج منه إلى الرملة[٢]. ولو أن الفاطميين أسرعوا إلى مدينة الرملة لاستولوا عليها وقبضوا على غريمهم ملك بيت المقدس الصليبي، لكن تأجيلهم دخول الرملة إلى صباح اليوم التالي مكن بلدوين من الفرار ليلاً.

استولى الفاطميون على الرملة فأسروا وقتلوا من فيها من الصليبيين[٣] ثم تابعوا سيرهم وحاصروا يافا، وعندما علم بلدوين وهو في طريقه إلى يافا خبر حصار المدينة اتجه نحو أرسوف شمال يافا في ١٩ أيار سنة ٥٢٣هـ ـ ١١٠٢م. مبتدأً على وجه السرعة تجميع الجيوش الصليبية لمواجهة الجيوش الفاطمية، وتمكن بلدوين من دخول يافا عن طريق البحر، لتلحق به كثير من الإمدادات الصليبية وتشاء الصدف أن تصل إلى ميناء يافا مائتي سفينة تحمل عدداً كبيراً من الجند والحجاج في أواخر شهر أيار، شقت هذه السفن طريقها مخترقة حصار الأسطول الفاطمي، وبذلك حصل بلدوين إلى ما كان يسعى إليه من معونة عاجلة.

وفي ٢٧ أيار سنة ٥١٣هـ ـ ١١٠٣م خرج بلدوين من يافا على رأس قواته

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ٨، حوادث سنة ٤٩٦هـ، ص ٢١٨.

(٢) المصدر نفسه، حوادث سنة ٤٩٦هـ.

وانظر Runicam, A History of the Crusades Vol. 11. PP. 76 - 77.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج ٨، حوادث سنة ٤٩٦هـ.

مباغتاً القوات الفاطمية المحاصرة للمدينة، وإنزال فيهم الهزيمة فولت الجيوش الفاطمية الأدبار نحو عسقلان لتفادي إبادة قوتها من جهة ولتجمعها من جديد بانتظار وصول نجدة سريعة من الأفضل.

ما إن سمع الأفضل بهزيمة ابنه شرف المعالي حتى أسرع بإرسال حملتين، إحداهما برية ألفت من أربعة آلاف فارس بقيادة المملوك تاج العجم، والثانية بحرية برئاسة القاضي ابن قادوس[١].

بيد أن الفاطميين لم يكونوا في تلك الفترة بحاجة لكثرة الرجال، وإنما كانوا بأمس الحاجة لروح النظام والتعاون وإحكام الخطط الحربية، وليس أدس على ذلك من رفض تاج العجم مساعدة ابن قادوس حيث أخبره أنه لا يمكن أن يمد له يد العون دون أمر الأفضل وأدار له ظهره، مما اضطر القادوس أن يرسل إلى قاضي عسقلان وشهودها وأعيانها وأخذ خطوطهم تأكيداً على أنه أقام على يافا عشرين يوماً، واستدعى تاج العجم فلم يأته، ولا أرسل رجلاً لذلك وفي ظل هذا الغياب من التعاون والتنسيق آثرت الجيوش الفاطمية الانسحاب بعد هزيمتها أمام يافا، وخاصة بعد وصول نجدات قوية إلى الصليبيين. وأمام تلك المحنة لم يجد الأفضل بدءاً من طلب النجدة من شمس الملوك رفاق صاحب دمشق ضد الصليبيين، ولكن رفاق «اعتذر من ذلك ولم يحضر»[٢]. وهذا الموقف يصور لنا ما آلت إليه العلاقات بين حكام دمشق وحكام مصر حينئذٍ بسبب الخلاف المذهبي.

ولا مجال للشك أن هذه الصراعات كشفت للصليبيين عن حقيقة الدولة الفاطمية ومدى ضعفها، الأمر الذي حفزهم للاستيلاء على بقية الموانىء الفلسطينية والسورية.

---

(١) المصدر نفسه، ج ٨، حوادث سنة ٤٩٦هـ.
وانظر Runicam. Op Cit. 11. P. 80.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج ٨، حوادث سنة ٤٩٦هـ، ص ٢١٩.

سقوط مدينة عكا:

أدرك الفاطميون الأهمية الاستراتيجية للموانىء الشامية كقاعدة أساسية للانطلاق في طعن مملكة بيت المقدس عن طريق قطع الشريان الذي يربطها بالغرب الأوروبي لمنع وصول الإمدادات إليها، فبدأوا بتعزيز قواتهم في هذه الموانىء مما لفت انتباه الصليبيين وسارعوا إلى حصار مدينة عكا في ربيع سنة ٥١١هـ ـ ١١٠٣م وتضييق الخناق عليها. ولكن عكا ـ كما هو معروف عنها في جميع العصور التاريخية ـ من أحصن موانىء الشام. ولم تلبث أن وصلتها النجدات من سائر المدن الساحلية، صور، صيدا، الأمر الذي جعل الملك بلدوين يرفع الحصار عن عكا لافتقاره إلى القوة البحرية.

وفي ربيع سنة ٥١٥هـ ـ ١١٠٤م وصلت إلى الشام عمارة جنوية تتألف من عدد كبير من السفن فاستعان بها الملك بلدوين في مهاجمة عكا في أواخر أيار سنة ٥١٥هـ ـ ١١٠٤م، فدارت رحى معركة كبيرة استبسل بها المدافعون بقيادة حاكمها الفاطمي زهر الدولة الجيوشي[(١)].

وتشيد المراجع التاريخية ببطولة زهر الدولة وتقول عنه أنه قاتل حتى عجز، ولكنه لم يقو على مقاومة الحصار المحكم الذي فرضه الصليبيين من البر والبحر، فاضطر إلى التسليم، وملك الفرنج البلد بالسيف قهراً[(٢)].

وبسقوط عكا خسر الأسطول الفاطمي أهم قواعده بالشام، وأصبحت السيادة على شواطىء فلسطين للصليبيين، ولا شك أن ضياع عكا كانت خسارة فادحة للمسلمين، وظهر ذلك جلياً في أقوال المسلمين الذين أبدوا أسفاً عميقاً

(١) ابن الأثير الكامل، حوادث سنة ٤٩٧هـ.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٨٨.
أنظر: فيليب حتى: تاريخ لبنان وسوريا وفلسطين، ج ٢، ص ٢٣٠.
وانظر: Runciman: A history... Op. Cit. 11. P. 88.

لعجز الفاطميين عن حماية موانىء الشام التي أخذت تتساقط واحدة بعد أخرى في أيدي الصليبيين.

وفي هذا الصدد يقول أبو المحاسن عن الخليفة الآمر الفاطمي أنه كان: «يتباهى في العظمة ويتقاعس عن الجهاد.. وكان فيه تهاون في أمر الغزو والجهاد حتى استولت الفرنج على غالب السواحل وحصونها في أيامه.. ولم ينهض لقتال الفرنج البتة، وإن كان أرسل مع الأسطول عسكراً «فهو كلا شيء»[(١)].

الحملة الفاطمية الثالثة ٥١٦ ـ ١١٠٥م:

كان هاجس الوزير الأفضل إرسال حملة كبيرة من مصر لطرد الصليبيين من الشام فجمع في صيف ١١٠٥ بعسقلان جيشاً كبيراً بلغ خمسة آلاف جندي من المصريين والسودان فضلاً عن الفرسان العرب بقيادة ولده سناء الملك حسين[(٢)].

وفي الوقت نفسه استعد الأسطول الفاطمي لمساندة الجيش من ناحية البر، وصاحب هذا الاستعداد طلب الوزير الأفضل المساعدة من سلاجقة دمشق السنيين، على الرغم من الخصومة المذهبية معهم. فاستجاب طغتكين ـ الذي آلت إليه السلطة في دمشق بعد وفاة رفاق بن تاج الدين تنش في صيف ٥١٥هـ ـ ١١٠٤م لنداء الفاطميين وأرسل أحد رجاله أصبهيد صباوا ومعه ألف وثلاثمائة فارس. وربما كانت هذه أول محاولة عملية يشترك فيها المسلمون في مصر والشام ضد الصليبيين[(٣)].

---

(١) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٧٨.
وانظر سعيد عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ص ١٨٢.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج ٨، حوادث سنة ٤٩٨هـ، ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩.

(٣) المصدر نفسه، حوادث سنة ٤٩٩هـ.

وصلت هذه الأنباء إلى الملك بلدوين فترك يافا وخرج على رأس جيشه إلى الرملة يرافقه الدمار بطريق بيت المقدس مع عدد من رجاله، وفي ٢٧ آب ٦١٥ ـ ١١٠٥م بدأت المعركة بين المسلمين والصليبيين لتنتهي بفوز الصليبيين وتراجع القوات الفاطمية والدمشقية مع سقوط عدد من أمراء الجيش في ساحة المعركة من بينهم جمال الدين أمير عسقلان، هذا مع الإشارة أن خسائر الصليبيين أيضاً كانت كبيرة جداً في تلك الموقعة فقتل منهم كثيرون على رأسهم قائد قوات أرسوف وقائد قوات عكا(١).

أما الأسطول الفاطمي فقد عاد إلى قواعده في صور وصيدا وطرابلس، لكنه تعرض بعد ذلك أثناء عودته إلى مصر لعاصفة هوجاء قذفت نحو عشرين سفينة من سفنه إلى الموانىء الصليبية فتم أسرها(٢).

ويبدو أن حملة الفاطميين سنة ٥١٣هـ ـ ١١٠٥م كانت آخر محاولة كبرى قاموا بها ضد الصليبيين وإن ظلوا يهددونهم بين حين وآخر، ولكن في نطاق محدود، متخذين من مدينة عسقلان قاعدة لشن الغارات، من أشهرها إغارة سنة ٥١٨هـ ـ ١١٠٦م على قافلة من الحجاج الصليبيين بين يافا وأرسوف، كما أغارت سنة ٥١٦هـ ـ ١١٠٧م على الخليل، كما سجلت سنة ٥١٩هـ ـ ١١١٠م وصول الفاطميين إلى أسوار بيت المقدس(٣).

إزاء هذه الغارات، سعى بلدوين إلى تأمين حدود المملكة الصليبية بإطار ضروري يقيها مفاجآت الغارات والحروب من الفاطميين فحاول السيطرة على المنطقة الجنوبية في وادي عربة، وبالفعل تمكن من إخضاع جميع الأراضي التي تمتد من جنوبي البحر الميت إلى ميناء إيلات على خليج العقبة، وأمر ببناء حصن الشوبك بهدف تأكيد سيطرته على هذه البلاد من ناحية، وعزل مصر عن

---

(١) Runciman: A history... Op. Cit. 11. P. 89-90

(٢) Ibid, 11, P. 90-91

(٣) Ibid, 11, P. 91-92

بقية العالم الإسلامي من ناحية أخرى. فيسهل عليه عندئذٍ محاصرتها تمهيداً لمهاجمتها وغزوها في الفرصة السانحة والمناسبة[١].

وفي سنة ٥٣١هـ ـ ١١١٦م خرج بلدوين على رأس حملة باتجاه منطقة الصحراء حتى وصل إيلات على ساحل خليج العقبة، فوجد أهلها قد هربوا بقواربهم إلى البحر. طلباً للحماية والمقاومة وفي إيلات بنى بلدوين قلعة حصينة للتحكم في الطريق البري للقوافل بين مصر والشام، كما شيد قلعة أخرى في جزيرة فرعون الواقعة قبالة خليج العقبة، وبذلك تمكن الصليبيون من الإشراف على شبه جزيرة سيناء الواسعة، ولم يبق أمام بلدوين سوى أن يهاجم الفاطميين في عقر دارهم ليشعرهم بقوته.

وفي آذار سنة ٥٢٩هـ ـ ١١١٨م خرج بلدوين على رأس حملة غير كبيرة باتجاه رفح وأغار عليها بغتة في الظلام واستولى عليها ثم تقدم بعد ذلك إلى الفرما شرق بور فؤاد الحالية فهاجمها، وقتل جميع من فيها وأحرق مساجدها[٢] ثم سار إلى مدينة تنيس وأحرقها، ثم تابع سيره حتى وصل إلى مصب نهر النيل، ولكنه لم يستطع أن يوغل في الأراضي المصرية أكثر من ذلك[٣].

ما إن وصلت أخبار هذا العدوان الصليبي وما رافقها من أعمال تخريبية حتى أرسل الوزير الفاطمي الأفضل العساكر إلى والي الشرقية يطلب منه أن يتقدم بنفسه ومعه العربان على رأس هذه القوات للتصدي للصليبيين، ولكن بلدوين ما أن علم بقدوم القوات المصرية حتى أمر جنوده بالرحيل فوراً[٤].

---

(١) Ruciman: A History... Op. Cit p. 89 - 90.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ١٧١.

(٣) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥١٢هـ.

(٤) يبرر المؤرخون الصليبيون تراجع الملك بلدوين لصغر قوته ولمرض أصابه. ويقول ابن الأثير: مرض بلدوين لأنه سبح في بحيرة المنزلة فانتفض جرح كان به، الكامل، ج ٥، حوادث ٥١٢هـ. أما أبو المحاسن فيقول أن بلدوين مرض بسبب أكله سمك من بحيرة المنزلة وأن أصحابه شقوا بطنه وحنطوه ورموا بأحشائه في المكان الذي نسب إليه وما زال اليوم يعرف باسم سبخة البرداويل قرب بورسعيد الحالية: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٧١.

الأسطول الفاطمي يدعم الثغور الشامية

أولاً ـ بلدوين الأول ومدينة صيدا:

سعى الصليبيون إلى السيطرة التامة على جميع المدن الساحلية، لأن البحر بالنسبة إليهم هو الشريان الحيوي الذي يربطهم بالعالم الغربي، فيتمكنوا بواسطته من تأمين المواد التموينية والإمدادات البشرية التي هي حجر الزاوية في بقائهم واستمرارهم في هذه المنطقة، ولهذا بدأ بلدوين بمهاجمة صيدا سنة ٥١٧هـ ـ ١١٠٦م، ولم يسفر هذا الهجوم عن أي نصر ميداني أو جغرافي، إلا أنه أسفر عن نصر معنوي بخضوع حاكم صيدا وتعهده بدفع مبلغ كبير من المال. وفي آب سنة ٥١٩هـ ـ ١١٠٨م وصل إلى الشواطىء الفلسطينية عدد كبير من السفن الإيطالية فاغتنم بلدوين الفرصة لاستعمال تلك القوة في احتلال صيدا ضارباً بعرض الحائط عهد الوفاء بينه وبين حاكمها الفاطمي، وبالفعل شرع بلدوين في حصار صيدا براً وبحراً. ولكن الأسطول الفاطمي كان له بالمرصاد استطاع أن ينزل الهزيمة بالسفن الإيطالية[1]. وصاحب هذا الانتصار طلب حاكم صيدا من طغتكين إمداده بقوة برية تساعده على دحر الصليبيين مقابل تعهده بدفع مبلغ كبير من المال، فلبى طغتكين النداء وأرسل له نجدة كبيرة تقدر بخمسة عشر ألف مقاتل، وبفضل هذا التعاون بين حاكم دمشق وحاكم صيدا تقهقرت القوات الصليبية منسحبة إلى عكا[2].

بعد فك الحصار عن صيدا امتنع حاكمها عن دفع المبلغ الذي تعهد بدفعه لطغتكين، ورفض دخول الجيوش الدمشقية إلى المدينة خوفاً من أن تكون هناك

---

(١) عبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية، ص ٤٦٠، وانظر فيليب حتي: مختصر تاريخ لبنان، ص ١٣١.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦٢، وانظر سعيد عاشور: بحوث ودراسات، ص ١٨٣.

مؤامرة من جانب حاكم دمشق للاستيلاء على صيدا. عندئذٍ هدد سلاجقة دمشق باستدعاء الصليبيين لمهاجمة صيدا، فرضخ حاكمها ودفع مبلغاً يقرب من ثلث المبلغ المتفق عليه(١).

ثانياً ـ تأخر الأسطول الفاطمي وسقوط طرابلس:

حاصر الصليبيون مدينة طرابلس ما يزيد على سنتين دون جدوى، ولما أدرك وليم جوردن صعوبة احتلالها بدأ بتضييق الخناق عليها من البر والبحر، فاضطر صاحبها فخر الملك بن عمار اللجوء إلى بغداد في ربيع سنة ٥١٩هـ ـ ١١٠٨م لطلب النجدة من الخليفة العباسي وسلطان السلاجقة(٢). ولكن شدة الحصار كانت أقوى من أن ينتظر أهالي طرابلس عودة ابن عمار فأرسلوا إلى الوزير الأفضل الجمالي بالقاهرة يطلبون حماية الدولة الفاطمية لهم، ويعرضون عليهم تسليم المدينة له. فاستجاب الوزير الأفضل لتلك الدعوة، وأرسل إليهم شرف الدولة بن أبي الطيب والياً سنة ٥١٩هـ ـ ١١٠٨م ومعه المؤن وغيرها مما يحتاج إليه أهل البلاد في الحصار، فلما وصل طرابلس ألقى القبض على جماعة ابن عمار وأصحابه واستولى على ما وجده من الأمتعة والذخائر وغير ذلك وأرسل الجميع إلى مصر في البحر، ليعلن عودة طرابلس تحت الراية الفاطمية من جديد(٣).

لكن تصارع الأحداث قد أثبتت أن الفاطميين كانوا أضعف من أن يستطيعوا الدفاع عن طرابلس، وخاصة بعد أن وصلت إمدادات برية وبحرية من الغرب أعادت التفوق الصليبي ومكنتهم من إحكام الحصار على طرابلس، بالإضافة إلى تأخر الوزير الأفضل في إرسال النجدات السريعة من رجال وسلاح وتموين، إلى جانب الخلافات التي نشبت بين قادة الأسطول الفاطمي لتعرقل

---

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦٢.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٦٥. وانظر عبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية، ص ١٢٤.
(٣) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، ص ٥٣٦.

سيره[١] ولتسهم في سوء أحوال أهل طرابلس الذين اضطروا إلى الاستسلام.

وأخيراً أبحرت العمادة الفاطمية قاصدة طرابلس لتصلها بعد فوات الأوان فتعود من حيث أتت[٢].

يصور أبو المحاسن مأساة طرابلس ويلقي تبعة سقوطها على الفاطميين ويلومهم لعدم اكتراثهم بمحاربة الصليبيين فيقول لو أن النجدة تمت بأسرع ما يمكن، مع إرسال قوة كافية مع الأسطول وخروج الأفضل بنفسه على رأس العساكر المصرية، لكان النصر حليف المصريين[٣]. ومهما يكن من أمر فإن الصليبيين دخلوا طرابلس في ١٢ تموز سنة ١١٠٩م، وسمحوا للقائد الفاطمي بالخروج سالماً مع فريق من رجاله[٤].

ثالثاً ـ الأسطول الفاطمي يدعم صمود بيروت:

بعد سقوط طرابلس اتجه بلدوين الأول لمهاجمة بيروت بعنف سنة ٥٢١هـ ـ ١١١٠م، لكن استبسال أهلها في الدفاع عنها جعل الحصار الصليبي يستمر بضعة أشهر. حاول الفاطميين خلالها إرسال نجدات إليها، فجهز الأفضل تسعة عشر مركباً حربياً مزودة بالمؤن والرجال والسلاح. وصلت هذه السفن إلى بيروت واشتبكت مع مراكب الصليبيين، وتغلبت عليها واستولت على قسم منها، بعد ذلك أفرغ البحريون حمولة سفنهم من الأقوات والعدد والسلاح.. فارتفعت معنويات أهل بيروت وقويت عزائمهم، وبدأوا بشن سلسلة هجمات شديدة على القوات الصليبية المحاصرة، فاستنجد بلدوين بالأسطول الجنوي

---

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٨، سنة ٥٠٣، ص ٢٥٩.
(٢) المصدر نفسه، ص ٢٥٩.
(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٥ ص ١٧٩.
(٤) ابن الأثير، الكامل، ج ٨، أحداث سنة ٥٠٣هـ، ص ٢٥٩.
وانظر عبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية، ص ١٢١.
وانظر سعيد عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ص ١٨٥.

الذي لبى النداء وقدم أربعين مركباً مشحونة بالمقاتلين ونصبوا عليها مائة منجنيق، وأخذوا يمطرون مدينة بيروت بوابل من قذائف الحجارة المدمرة، وكل هذا لم يثن أهل بيروت عن الدفاع عن مدينتهم مظهرين بطولة نادرة أمام هجمات الصليبيين المتواصلة، يساندهم جنود البحرية الفاطمية بموقف بطولي شجاع ولكن أمام ضخامة الحشود الصليبية وشدة الضربات على المدينة وفرار صاحب بيروت في سفينة ليلاً إلى جزيرة قبرص اضطر أهل بيروت إلى الاستسلام للصليبيين الذين دخلوا المدينة وأحدثوا مذبحة رهيبة بين السكان[١].

ويقول ابن القلانسي حين يروي ضراوة المقاومة الإسلامية في بيروت «ولم يرَ الإفرنج فيما تقدم وتأخر أشد من حرب هذا اليوم»[٢].

رابعاً ـ سقوط صيدا:

لم يمض وقت طويل على سقوط بيروت حتى وصلت إلى عكا قوة من الصليبيين النروجيين[٣] فاستغل بلدوين تلك القوة للقيام بمحاولة جديدة للاستيلاء على صيدا، فحاصرها من البر والبحر. وكان بوسع صيدا أن تهزم هذا الحشد الصليبي وتفشل مغامرته الجديدة لو تلقت مساعدة الأسطول الفاطمي المرابط في مدينة صور. لكن مقدم الأسطول الذي هاله ضخامة الحشود الصليبية ارتأى عدم المشاركة في الدفاع خوفاً من أن تتعرض وحدات أسطوله للتدمير، وأمام هذا التخاذل الفاطمي يئس أهالي صيدا من وصول مساعدات إليهم، وأدرك قاضيها وشيوخها أنه لا أمل في النجاة إلا بالتسليم، فسلموا المدينة للملك بلدوين في كانون الأول سنة ٥٢١هـ ـ ١١١٠م[٤].

---

(١) عبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية، ص ١١٥ ـ ١١٦.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦٧ ـ ١٦٨.

(٣) سعيد عاشور: بحوث ودراسات... ص ١٨٥.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج ٨، أحداث سنة ٥٠٤هـ، ص: ٣٦٠.
وانظر ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٧١.
وانظر Runiciman: A History... Op. Cit. 11, P. 95.

بلدوين وعسقلان:

أمام المذابح والجرائم التي ارتكبها الصليبيون في طرابلس وبيروت وصيدا، خاف حاكم مدينة عسقلان شمس الخلافة أن يلقى نفس المصير، فأرسل إلى بلدوين طالباً عقد اتفاقية بين الطرفين، مع استعداده لدفع الجزية للصليبيين[1]. وما أن سمع الوزير الفاطمي الأفضل بتلك الأخبار حتى استنكرها أشد الاستنكار وأخذ منه الغضب مأخذه وذلك أن أهمية عسقلان الاستراتيجية بالغة الأهمية فهي مفتاح فلسطين بالنسبة للفاطميين، ومفتاح مصر بالنسبة للعدو الصليبي، لذلك أرسل الأفضل حملة إلى عسقلان بحجة محاربة الصليبيين وأعطى تعليمات سرية لقائد الحملة بعزل شمس الخلافة وتولي السلطة مكانه[2]. لكن شمس الخلافة أخذه الشك والحذر وأوجس خيفة من أهداف الحملة، فرفض أن يفتح لها أبواب عسقلان، كما رفض مقابلة قائد الحملة، فعادت أدراجها إلى القاهرة.

على أن شمس الخلافة أخذ يتشكك فيمن هو له من العرب، وبدأ يعمل لترسيخ سلطانه وقطع أية صلة مع الخلافة الفاطمية، «فأحضر جماعة من الأرمن، واتخذهم جنداً»، الأمر الذي أساء إلى شعور أهل عسقلان، فثاروا عليه وقتلوه ونهبوا داره سنة ٥٢٢هـ ـ ١١١١م، ولم تتردد القاهرة عن إرسال حامية على الفور لإعادة الأمور إلى نصابها[3] وعودة السيادة الفاطمية على عسقلان بشكل كامل.

أما بلدوين الذي كان يسعى دائماً للنيل من مدينة عسقلان، ما أن سمع بأخبار الثورة ضد شمس الخلافة حتى أسرع إلى عسقلان ولكنه وصلها بعد

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ٨، أحداث سنة ٥٠٤هـ، ص ٣٦٠.
(٢) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٧٢.
(٣) ابن الأثير، الكامل، ج ٨، أحداث سنة ٥٠٤هـ، ص ٣٦١.

فوات الأوان، فعاد بخفي حنين. وبذلك قدر لعسقلان أن تظل أربعين سنة أخرى تحت السيادة الفاطمية[1].

الأسطول الفاطمي يساند صور في وجه الصليبيين:

بدأ بلدوين في حصار مدينة صور بعد سقوط مدينة صيدا مباشرة رغبة في تحقيق غايته الاستيلاء على كافة المدن الشامية الساحلية، لكن صور وقفت أمام الصليبيين ببطولة ومقاومة ضارية فاستعصى سقوطها، إلا أن غارات الصليبيين المتواصلة وعجز الدولة الفاطمية عن مساعدتهم، جعلت أهل صور يشعرون بحرج موقفهم، فاتجهوا نحو طغتكين أتابك دمشق طالبين حمايته ومساندته بوصفه أكبر قوة إسلامية قريبة المنال[2] فاستجاب طغتكين لطلبهم وأرسل الوالي سيف الدين مسعود والي بانياس محملاً بالمؤن والأموال ومعه بضع مئات من الدماشقة، فارتاحت نفوس أهل صور وزادوا طمأنينة[3].

وفي تشرين الثاني سنة ٥٢٢هـ ـ ١١١١م وصلت بعض السفن البيزنطية أمام صور فاستغل بلدوين الفرصة وحاصر المدينة مجدداً، ولكن دون جدوى، لأن السفن البيزنطية كانت على درجة من القلة والضعف حالت دون قيامها بعمل حاسم، فضلاً عن موقف ظهير الدين طغتكين الشجاع، إذ قام بقطع الجسر الذي يربط بين صيدا وصور، إلى جانب إحراق عشرين مركباً للصليبيين كانت ترسوا في مياه صيدا، كما أصدر إلى أهالي صور الكتب يدعوهم فيها إلى الثبات والصمود في قتالهم، وأمام هذا الموقف الصلب من جانب حاكم دمشق استبسل أهل صور وأبدوا مقاومة عنيفة مستميتين في الدفاع عن مدينتهم فاضطر

---

(١) سعيد عاشور: بحوث ودراسات... ص ١٨٦.
وانظر Runiciman: A History... Op. Cit. 11, P. 95.

(٢) عبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الفاطمية، ص ٤٨٣ ـ ٤٨٤.

(٣) سعيد عاشور: بحوث ودراسات... ص ١٨٧.

الصليبيون إلى التراجع وفك الحصار في نيسان سنة ٥٢٣هـ ـ ١١١٢م[١].

لكن خوف أهل صور من عودة الصليبيين إلى محاصرتهم دفعهم إلى عقد اجتماع مع والي المدينة من قبل الوزير الفاطمي الأفضل عز الملك أنوشتكين وتم الاتفاق على تسليم المدينة إلى ظهير الدين طغتكين بحكم ما أسداه من جهود طيبة في الدفاع عن مدينتهم وما قدمه من مؤن وأموال. فقبل حاكم دمشق طلب أهل صور وذهب إليهم وتسلم المدينة، وقال لهم: «أنا ما فعلت إلا لله تعالى، ولا رغبة في حصن ولا مال، وحتى دهمكم عدو جئتكم بنفسي ومالي»[٢]. لكن طغتكين بقي محتفظاً بالإدارة الفاطمية وأبقى على تبعية صور للفاطميين، تاركاً الدعوة والسكة على ما كانت عليه لصاحب مصر، وبعث كتاباً إلى الأفضل بمصر مبرراً له تصرفه، مبدياً رغبته الخالصة في الحفاظ على صور بلدة إسلامية عن طريق دعم صمودها بالرجال وأبلغه قائلاً بأن بلدوين «قد جمع وحشد للنزول على صور، وأن أهلها استنجدوا بي عليه، والتمسوا مني دفعه عنهم، فبادرت بإنهاض من أثق بشهامته لحمايتها والمراماة دونها إلي» ثم قال بأنه على أتم الاستعداد لإجلاء قواته وإخراج نوابه عنها متى وصل إليها من مصر من يتولى أمرها والذود عنها وحمايتها، ثم أضاف يوصي الأفضل «وأنا أرجو أن لا يهمل أمرها وإنقاذ الأسطول بالغلة إليها، والتقوية لها»[٣].

وقد رد الأفضل على كتاب طغتكين معبراً له عن امتنانه وشكره طالباً منه أن تقوم حامية دمشقية في صور إلى جانب الحامية الفاطمية، ويتولى القيادة العامة للقوات المشتركة قائدٌ من قبل طغتكين[٤]. ثم شرع في تجهيز الأسطول

---

(١) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج ١٢، مجلد ٣، ص ٢٦٨.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨٢.

(٣) عبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الفاطمية، ص ١١٧.
وانظر سعيد عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٢٥١ ـ ٢٥٢.

(٤) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨٢.

المصري وشحنه بالمواد التموينية مع الأموال اللازمة للنفقات على الجند بالإضافة إلى المواد الضرورية التي يحتاجها الأهالي.

وصل الأسطول الفاطمي إلى صور سنة ٥٢٤هـ ـ ١١١٣م محملاً بالغلات والرجال بقيادة الأمير شرف الدولة بن أبي الطيب الدمشقي[*] فاستقبله الأهالي بمنتهى السرور والطمأنينة. وما أن نزلت الشحنات المحملة بالأسطول حتى هبطت الأسعار في المدينة ونعم السكان بحالة من الرخاء والرفاه.

وأمام استقرار الحال في صور وجد بلدوين نفسه مضطراً إلى طلب المهادنة من مسعود والي المدينة فعقدت هدنة بين الجانبين الإسلامي والصليبي، تحسنت على أثرها أحوال صور، ووفد عليها التجار من جميع الأقطار[١].

ظلت صور تستمد العون والمدد من الدولة الفاطمية طوال حياة الأفضل الذي لم يدخر وسعاً في الحفاظ عليها حتى في أقصى الظروف باعتباره أن هذه المدينة هي آخر الثغور الشامية الباقية في يد الفاطميين.

والحق أن الوزير الأفضل كان وراء صمود صور فترة أطول أمام الصليبيين إلا أن اغتياله في ليلة عيد الفطر سنة ٥٣٢هـ ـ ١٠٢١م قد عجل في نهاية صور وزاد من حرج موقفها لأن المأمون البطائحي الذي خلف الأفضل في الوزارة كان قليل الدراية بشؤون السياسة إلى جانب رعونته وسوء تصرفه، فما كاد يتولى الوزارة ويستبد بأمور البلاد، حتى أخذ يهدم ما بناه الأفضل من حسن علاقة وتحالف مع طغتكين أتابك دمشق السني، وكان أول بادرة ينوي المأمون القيام بها إزالة نفوذ السلاجقة من صور والإطاحة بالوالي مسعود رمز هذا النفوذ

(*) كان هذا الأمير والياً على طرابلس قبل استيلاء الصليبيين عليها.

(١) المقريزي: المواعظ، ج ١، ص ٣٤٠ وما بعدها.
وانظر ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨٤.

ووجوده، فأرسل في سنة ٥٣٣هـ ـ ١١٢٢م أسطولاً إلى صور قبض على مسعود وأحضره إلى القاهرة[١].

انتقد المؤرخ أبو المحاسن هذا التصرف من جانب الفاطميين لأنه حرم صور من الرجل القوي الذي «فعل ما فعل مع الفرنج من قتالهم وحفظ سور المدينة هذه المدة الطويلة»[٢].

أتاحت أوضاع صور المتردية الفرصة أمام الصليبيين ليستغلوا الموقف السيء الذي أمست فيه المدينة من ناحية، والخلاف بين دمشق والقاهرة من ناحية أخرى، فشرعوا يعدون العدة للاستيلاء عليها متأهبين بإحكام الحصار مقدمة لاستسلامها[٣]. وعندئذٍ أدرك والي صور الجديد عجزه عن دفعهم لقلة ما لديه من الجند والذخيرة فأرسل إلى الخليفة الآمر بأحكام الله رسالة يضعه فيها بحقيقة الموقف، فأحالهم الخليفة إلى طغتكين، إذ رد عليهم قائلاً: «قد رددنا أمرها إلى طغتكين ليتولى حمايتها والذب عنها»[٤]. وهكذا عادت صور إلى صاحب دمشق ليتولى أمرها والدفاع عنها.

وبالرغم من الجهود التي بذلها طغتكين إلا أنه فشل في إنقاذ صور، ذلك أن البندقية كانت قد أعدت حملة صليبية ضخمة من ثلاثمائة سفينة تحمل خمسة عشر ألف جندي لمساعدة الصليبيين في الشام، وصل هذا الأسطول إلى الشام في أيار سنة ٥٣٤هـ ـ ١١٢٣م، واتجه إلى عسقلان حيث دمر الأسطول هناك[٥] مما أعطى الصليبيين حرية العمل في أحكام الحصار على مدينة صور، التي لم تستطع الصمود طويلاً رغم حصانتها القوية بسبب نفاذ الميرة والأقوات منها

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ٨، أحداث سنة ٥١٨هـ، ص ٣١٥.
وانظر عبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية، ص ١١٩.

(٢) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٨٢.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج ٨، أحداث سنة ٥١٨هـ، ص ٣١٦ ـ ٣١٨.

(٤) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٨٢ ـ ١٨٣.

(٥) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٠٤.

وتلكؤ الدولة الفاطمية عن إرسال المعونة نتيجة التمزق والتردي في الأوضاع السياسية والاقتصادية التي كانت تعاني منها، فاضطرت صور إلى التسليم في أوائل تموز سنة ٥٣٣هـ ـ ١١٢٢ بعد أن أشرف أهلها على الهلاك(١).

سياسة الخلافة الفاطمية المسالمة للصليبيين:

كان لسقوط مدينة صور في أيدي الصليبيين واقع الأثر في نفوس الفاطميين، إذ ارتفعت الأصوات تتهم الخليفة الآمر بأحكام الله بتخاذله في تقديم المساعدة لمدينة صور، وتطالب الخلافة الفاطمية باتخاذ سياسة إيجابية في محاربة الصليبيين وزاد الأمر سوءاً أن عزل الخليفة الآمر وزيره ابن البطائحي واستعان بمستشارين غير مسلمين مثل بهرام الأرمني(٢) وكان من الطبيعي أن يميل هؤلاء المستشارون إلى مسالمة الصليبيين، وقوي هذا الاتجاه بعد اغتيال الآمر وتولية ابن عمه الحافظ الذي كان من أشد المتحمسين لوقف الحرب مع الصليبيين(*).

إن هذا الوضع المتردي في سياسة الخلافة الفاطمية وجنوحها إلى المسالمة لم يرض بها المتحمسون للجهاد، فجمعوا صفوفهم بزعامة رضوان بن الولخشي، وأطلقوا سراح أحمد بن الوزير الأفضل وعينوه وزيراً في حفل كبير(٣)، فسار على سياسة والده وأخذت الجيوش الفاطمية في عسقلان بالإغارة على الصليبيين في إقليم يافا، حتى وصلوا إلى مشارف أرسوف(٤) لكن الوزير أحمد ما لبث أن اغتيل فعين الخليفة الحافظ بهرام الأرمني مكانه فلم يدخر هذا الوزير جهداً في تشجيع سياسة المعايشة السلمية مع الصليبيين بالشام وخارجها،

---

(١) ابن ميسر، تاريخ مص، ج ٨، ص ٧٥ ـ ٨١.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٣٦٩.

(*) اتهم الحافظ بأنه هو من دبر مؤامرة اغتيال الوزير الأفضل الذي كان متحمساً لمحاربة الصليبيين.
ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٠٤.

(٣) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٠٤.

(٤) ابن ميسر، تاريخ مصر، ج ٢، ص ٧٥ ـ ٨٨.

فقامت ثورة بزعامة رضوان ابن الولخشي الذي خطب في الناس يحرضهم على الجهاد. وكان إن فرَّ بهران وتولى الوزارة ابن الولخشي[(١)] فأنشأ ديواناً للجهاد[(٢)] وأخذ يندد بسياسة الاستكانة التي اتبعها الخليفة الفاطمي تجاه الصليبيين بالشام، مما أوغر صدر الحافظ ومستشاروه فاضطر الوزير رضوان إلى الهرب واللجوء إلى الأتابكي عماد الدين زنكي في الموصل ليستعين به على محاربة الصليبيين[(٣)] لكن هذه المحاولة باءت بالفشل ودخلت الدولة الفاطمية في مرحلة ركود.

سقوط عسقلان:

استغل الصليبيون ضعف الخلافة الفاطمية وعجزها عن الاحتفاظ بكيانها فرصة لاحتلال مصر، ومهدوا لذلك بالاستيلاء على عسقلان وهي القاعدة الوحيدة التي بقيت للفاطميين في فلسطين، فقام بلدوين الثالث ملك بيت المقدس بعدة ترتيبات هامة حربية وسياسية. فعلى الصعيد الحربي بدأ في أواخر سنة ٥٦٠هـ ـ ١١٤٩م وأوائل سنة ٥٦١هـ ـ ١١٥٠م بإعادة تحصين غزة، هادماً أسوارها القديمة وبانياً على أنقاضها سوراً جديداً مشيداً بها قلعة قوية عهد بحراستها إلى الداوية[(*)]. وفي الجانب السياسي عمل بسياسة السلف إذ شرع قبل أن يبدأ بمهاجمة عسقلان بالتفكير بتأمين ظهر مملكة بيت المقدس من جانب دمشق هذه المرة، وهذا الأمر لم يكن صعب المنال إذ كان الدماشقة في عداء مع نور الدين الذي كان يسعى لتحقيق جبهة إسلامية متحدة ضد الصليبيين وفعلاً استطاع الصليبيون من تحييد دمشق. وفي ذلك يقول ابن القلانسي أن أهل

---

(١) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج ٣، ص ١٨.

(٢) ابن ميسر، تاريخ مصر، ج ٢، ص ٨٢.

(٣) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ٣٧ ـ ٣٨.

(*) «الداوية» الفرسان، جمعية عسكرية رهبانية تأسست سنة ١١١٨، اشتهر أعضاؤها أيام الحروب الصليبية في فلسطين، ألغاهم البابا كليمنصو الخامس سنة ١٣١٢ ـ لويس معلوف: المنجد في اللغة والأدب والعلوم... ص ١٨٩ و٥٦٠.

دمشق «عاهدوا الإفرنج أن يكونوا يداً واحدة على من يقصدهم من المسلمين» في حين يقول أبو شامة أن حكام دمشق «راسلوا الفرنج (وأخبروه عن نور الدين) وقرروا معهم الاتحاد عليه»[١].

وهكذا استفاد بلدوين الثالث من الصراع السائد في العالم الإسلامي، فاسحاً المجال أمام الصليبيين من توجيه جهودهم كلها ضد الفاطميين في عسقلان بعد أن أمنوا جانب أتابكة دمشق[٢].

وفي أواخر كانون الثاني شرع بلدوين في حصار عسقلان، منتهزاً فرصة الاضطرابات الداخلية في مصر[٣]. وقد استمر الحصار بضعة أشهر، حاول الفاطميون خلالها أن يمدوا أهل عسقلان بالمعونة، فأرسلوا أسطولاً كبيراً من سبيعين سفينة محملة بالسلاح والمؤن استطاع أن يخترق الحصار الذي فرضته الأساطيل الصليبية على عسقلان من ناحية البحر، وكان وصول هذه النجدة لحامية عسقلان حافزاً لها على مواصلة المقاومة بشجاعة نادرة وصبر عظيم، ولكن أمام طول مدة الحصار وازدياد الهجمات الصليبية، لم تجد حامية عسقلان بداً من الاستسلام فسقطت المدينة ودخلها الصليبيون في التاسع عشر من آب سنة ٥٦٤هـ ـ ١١٥٣م ليحولوا جامعها الكبير إلى كنيسة تحمل اسم القديس بولس[٤].

وبسقوط عسقلان يكون الصليبيون قد أتموا سيطرتهم على ساحل الشام وفلسطين برمته من اسكندرونة في الشمال حتى غزة في الجنوب، الأمر الذي

---

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٠٩، وانظر أبو شامة: كتاب الروضتين، ص ٧٠.

(٢) Grousset: Hist. De Croisades. T. 2, PP. 342-351

(٣) تاريخ أسامة بن منقذ، ص ١٣ ـ ١٤.

(٤) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٢١.
وانظر أبو شامة: كتاب الروضتين، ج ١، ص ٩٠.
وانظر سعيد عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ص ٢٠٠ ـ ٢٠١.

حرم الفاطميين من أهم قاعدة بحرية استخدموها في مهاجمة الاحتلال الصليبي لفلسطين، إلى جانب أن الدولة الفاطمية بعد خسارة عسقلان لم يتبق لها ممتلكات ذات أهمية في فلسطين، ولم تعد مصدر خطر على الصليبيين، بعد أن وصلت إلى درجة من الضعف والانحلال منعها من القيام بأي عمل حربي ضد الصليبيين[1].

(١) Runciman, A History; Op. Cit., 11, P. 340

الباب الثاني

النظم والحضارة في العصر الفاطمي

الفصل الأول

النظم السياسية والإدارية
في العصر الفاطمي

أولاً: الخلافة

قامت الخلافة الفاطمية على أساس فكرة تقديس الإمام وعصمته ولتدعيم ذلك عمدوا إلى تأسيس المدارس الخاصة لتعليم عقائد المذهب الذي يقوم على تقديس الأئمة وكان من أثر هذه الجهود أن راجت هذه الفكرة في كثير من أرجاء العالم الإسلامي كمصر واليمن وفارس والهند، بل توغلت هذه التعاليم في بلاد الأندلس نفسها التي كانت إذ ذاك تحت نفوذ الأمويين السنيين[(١)].

لقد لقيت نظرية الحق الملكي المقدس التي كانت سائدة عند الساسانيين في بلاد الفرس قبولاً عند الخلفاء الفاطميين، وأصبح الإمام في نظر العامة ظل الله على الأرض، كما أصبح شخصاً مقدساً، وفي كثير من الأحيان تعرض الناس للموت إذا أظهروا سخطاً أو تذمراً أو قاوموا أوامر الخليفة ونواهيه، لأنها صادرة عن الله الذي أملاها على الإمام المعلم، أو بمعنى أوضح تلقى علمه من الله عن طريق الوحي.

وقد انتشرت فكرة تقديس الخليفة الفاطمي في جميع أرجاء المغرب حتى

---

(١) Dosy, The Mostems in Spain. PP. 413-415

أصبحت قبلة إيمان أهل إفريقية فقالوا: «وحق عالم الغيب والشهادة مولانا المهدي الذي برقاده»(١).

وكان الخلفاء الفاطميون يرون في تقديس الناس لهم إعلاءً لشأنهم واعتبروا أنفسهم هداة لهم، فلقبوا أنفسهم بألقاب كثيرة منها: الخليفة الفاطمي أو العلوي أو أمير المؤمنين. إلا أن أفضل الألقاب المحببة إليهم لقب إمام وصاحب الزمان والسلطان والشريف القاضي. وكان السنيون يطلقون عليهم العبيديين نسبة إلى عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين ببلاد المغرب، كما أطلق عليهم العلويون نسبة إلى علي بن أبي طالب، والفاطميون نسبة إلى السيدة فاطمة الزهراء(٢).

أخذ الفاطميون منذ قيام دولتهم بمبدأ نظام الوراثة الذي ينص على أن الإمامة يجب أن تنتقل من الأب إلى الابن عن طريق التعيين بالنص، لكن بعض الأحداث حملتهم على الخروج عليه. فحاول الخليفة الحاكم بأمر الله أن يحرم ابنه أبا الحسن الذي ولي الخلافة من بعده باسم الظاهر من ولاية العهد، وعهد بها لابن عمه عبد الرحيم بن الياس، غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل وخلفه ابنه الظاهر، كذلك خولف هذا النظام بعد وفاة الخليفة الآمر حين ولي الخلافة بعده عمه الحافظ، كما أنه بعد وفاة الفائز ولي الخلافة ابن عمه العاضد لدين الله(٣).

وكان الخليفة الفاطمي يعين ولي عهده قبل وفاته ولهذه الطريقة ميزاتها إذا كان ولي العهد كبير السن واسع التجربة كفؤاً لتولي ذلك المنصب فالقائم بن عبيد الله المهدي كان قبل توليته الخلافة ماهراً في الحرب حاذقاً في السياسة.

---

(١) ديوان ابن هانيء... ص ٩٦.

(٢) الحمادي: كشف اسرار الباطنية.. ص١٩
وانظر ابن النديم: الفهرست... ص٢٦٥.
وانظر ابن الأثير: الكامل...، ج ٨، ص ٨ و٩.
وانظر ابن خلدون: المقدمة، ص ١٢١.

(٣) مجموعة الوثائق الفاطمية، ص ٢٠ ـ ٢١.

كما أثبت العزيز جدارته في قيادة الجيوش وإدارة الدولة في حياة أبيه وبعدها. أما الخلفاء الذين كانت تنقصهم التجارب والكفاءة أثاروا المتاعب في وجه الخلافة الفاطمية وكانوا من عوامل ضعفها فيما بعد قتل الظاهر والمستنصر(١).

لم يكن يحق للخليفة الفاطمي أن يعهد بالإمامة من بعده لأكثر من واحد وهذا ما يميز ولاية العهد عند الفاطميين عن ولاية العهد عند الأمويين والعباسيين الذين كانوا يعهدون بالخلافة لأكثر من واحد، مما أدى إلى قيام المنافسة بين أفراد البيت، وكان من أسباب انهيار الدولتين في النهاية.

ثانياً ـ الوزارة:

إن أهم ما يميز العصر الفاطمي انقسامه إلى مرحلتين:

أ ـ العصر الفاطمي الأول أو مرحلة السلطة والقوة امتدت من سنة ٣٥٨هـ ـ ٩٧١م حتى سنة ٥٦٤ ـ ١٠٧٥م.

ب ـ العصر الفاطمي الثاني أو مرحلة الضعف والتدهور امتدت من سنة ٤٦٦هـ ـ ١٠٧٦م حتى سنة ٥٦٧ ـ ١٠٧٦م.

الوزارة في العصر الفاطمي الأول

كانت الوزارة في هذا العصر وزارة تنفيذ(*) لأن الخلفاء كانوا على جانب

(١) إن عدم تعيين الخليفة لولي عهده في حياته يؤدي إلى وجود فترة انتقالية قد يخلوا العالم فيها من إمام وهذا ما ترفضه العقيدة الفاطمية.

(*) حدد الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية الفرق بين وزارة التفويض ووزارة التنفيذ بأربعة أوجه، يسمح فيها لوزير التفويض بينما تحظر على وزير التنفيذ وهي: مباشرة الحكم والنظر في المظالم، الاستبداد بتقليد الولاة، الانفراد بتسيير الجيوش وتدبير الحروب، التصرف في أموال بيت المال بقبض ما يستحق له وبدفع ما يجب فيه. ويلحق هذه النقاط الأربعة أربعة شروط معتبرة في وزارة التفويض وغير معتبرة في وزارة التنفيذ وهي الحرية، الإسلام، المعرفة بالأحكام الشرعية، المعرفة بأمري الحرب والخراج. وفيما عدا هذه النقاط فإن الوزارتين استويا في الشروط والحقوق. ـ الماوردي ـ الأحكام السلطانية ـ ص ٢٦.

كبير من القوة بحيث استأثروا بإدارة شؤون الدولة[١] وحرص الخلفاء الفاطميون على اختيار وزرائهم من المختصين بتدبير الأموال، كما كان لحكام الولايات وكبار موظفي الدولة على اختلاف درجاتهم الحق في تقلد منصب الوزارة إذا توافرت عنده الكفاية اللازمة لهذا المنصب. وبلغ من حسن دراية الفاطميين أن عهدوا إلى بعض ذوي الشأن من غير ملتهم بتولية الوزارة. فعندما فتح جوهر الصقلي مصر أقر الوزير جعفر بن الفرات، في وزارته حتى لا يحدث عزله ارتباكاً في سير الأعمال الإدارية، ولم يقدم على عزل أحد الموظفين السنيين وإحلال المغاربة وغيرهم من أنصار الفاطميين[٢] وإنما أشرك مع كل موظف مصري آخر مغربياً ليتدرب على الإدارة ويستلم الوظيفة فيما بعد. كما عمل جوهر على إضعاف سلطة الوزير ابن الفرات، فعين له خادماً يلازمه في داره ويسير في ركابه ليكون عيناً عليه يراقب حركاته وسكناته[٣]. وساء ابن الفرات أن يكون وزيراً بالاسم فقط، فاغتنم فرصة قدوم الخليفة المعز إلى مصر واعتذر له عن البقاء في منصب الوزارة، لكن الخليفة أصر عليه الاستمرار في عمله إلا أنه رفض، وبذلك انتهت مدة وزارته وعهد الخليفة المعز إلى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن المغربي في إدارة شؤون الدولة الفاطمية المدنية والحربية[٤].

وعندما تولى العزيز الخلافة عين ابن كلس في الوزارة، ولقبه بالوزير الأجل، وأمر أن لا يخاطبه أحد ولا يكاتبه إلا به. وخلع عليه، وأخذ ابن كلس يجلس للمظالم كل يوم بعد صلاة الصبح، فيدخل عليه الناس بظلاماتهم، واتخذ في قصره عدة دواوين، خص بعضها بالنظر في شؤون الجيش والمالية

---

(١) عبد المنعم ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، ٩٢، ٩٣.
(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا. . . ص ١٦٧ ـ ١٦٨.
(٣) المصدر نفسه، ص ١٨٠.
(٤) ابن منجب الصيرفي: الإشارة إلى من نال الوزارة، ص ٢١ ـ ٢٢.

والسجلات وما يتعلق بجباية الخراج، وعين لكل ديوان ما يحتاج إليه من الموظفين[1].

بعد وفاة ابن كلس ضعفت الوزارة، وتحولت إلى ما يسمى الوساطة خشية ازدياد نفوذ الوزراء، ففي أوائل عهد الحاكم عزل عيسى بن نسطورس لإسناده مناصب الدولة إلى أهل ملته من النصارى، ثم تقلد الحسن بن عمار زعيم الكتابيين الوساطة ولقب «بأمين الدولة» لكن محاباته للكتابيين حملت الخليفة على عزله وتعيين برجوان [*] مكانه[2]. ولما شعر الحاكم أن سلطته مسلوبة مع هذا الوزير، عمل على التخلص منه فقتله في السادس والعشرين من ربيع الثاني سنة ٣٩٠هـ[3] وأحل محله الحسين بن جوهر القائد ولقبه «الرئيس»[4].

ومن أشهر وزراء العصر الفاطمي الأول أبو الحسن علي بن جعفر بن فلاح الذي «لقب وزير الوزارة ذي الرياستين الآمر المظفر قطب الدولة». وأبو القاسم علي بن أحمد الجرجرائي الذي تقلد منصب الوزارة في عهد الخليفتين الظاهر والمستنصر، ولما توفي خلفه في الوزارة أبو منصور صنعة بن يوسف الفلاحي[5]. غير أن هذا الوزير لم يتمتع بما تمتع به غيره من نفوذ بسبب اتساع سلطة أبي سعيد التستري اليهودي الذي تقرب من الخليفة المستنصر بالله وعظم شأنه في عهد.

والخلاصة أن سلطة الوزير في العصر الفاطمي الأول كانت محدودة، إذ كان بقاؤه في مركزه يتوقف على رضا الخليفة وكسب ثقته.

---

(١) د. حسن ابراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٢٧٢.

(*) كان برجوان الخادم أستاذ الخليفة الحاكم والوصي عليه.

(٢) أبو شجاع: ذيل كتاب الأمم لمسكويه، ج ٣، ص ٢٧.

(٣) ابن منجب: الإشارة إلى من نال الوزارة، ص ٢٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٧.

(٥) المصدر نفسه، ص ٣٨ ـ ٣٩.

الوزارة في العصر الفاطمي الثاني

أصبحت الوزارة في هذا العصر وزارة تفويض بعد أن تقلدها أرباب السيف والقلم، وأصبح الخلفاء في حماية الوزراء الذين استفحلت قوتهم وازدادت ثروتهم وأصبح في أيديهم أمر تعيين الخلفاء وعزلهم. وكان بعضهم يؤثر اختيار أحد أمراء البيت الفاطمي الضعاف حتى يكون ألعوبة في أيديهم.

ومن وزراء هذا العصر أبو على الحسن بن أبي سعيد بن سهل التستري، وأصله يهودي ثم أسلم(١). وأبي منصور بن أبي اليمن، وكان نصرانياً(٢) والوزير بدر الجمالي الذي كان والياً على عكا، ثم استدعاه المستنصر لينقذ عرش خلافته ويصلح الأمور في مصر بعد أن اشتدت الفتن والحروب الأهلية. فلما قدم إلى القاهرة فوض إليه جميع سلطاته، فقد جاء في سجل توليته الوزارة: «وقد قلدك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره، وناط بِكَ النظر في كل ما وراء سريره»(٣). وبذلك أصبح بدر الجمالي صاحب الحل والعقد له أن يولي كبار موظفي الدولة ويعزلهم. فأعاد النظام ووجه همه إلى إصلاح حال البلاد وقضى على المفسدين(٤).

ثم الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي الذي كان يتمتع بسلطة مطلقة في عهد الخليفة المستعلي، فأصبحت في قبضة يده موارد الدولة الواسعة. وقد نقل الدواوين إلى داره التي بناها سنة ٥٠١هـ ـ ١١٠٨م، كما جلب إليها كثيراً من الذخائر النفيسة.

وقد بلغ من ازدياد سلطة الوزير في العصر الفاطمي الثاني أن أضاف إلى ألقابه ألقاباً تدل على هذا المعنى مثل أمير الجيوش، الناصر للدين، غياث

---

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص ٣٢.
(٢) المصدر نفسه، ص ٣٣.
(٣) المقريزي: خطط. . . ج ١ ص ٤٤.
(٤) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص ١٣ ـ ٢٢، ٣٤.

المسلمين، الوزير الأجل المكرم، سيد الوزراء، تابع الأصفياء، قاضي القضاة، داعي الدعاة، ثم أضيف إليها لقب ملك بعد أن ولي الوزارة رضوان بن الولخشي في عهد الخليفة الحافظ. وفي ذلك يقول المقريزي: «وأول من لقب بالملك منهم مضافاً إلى بقية الألقاب رضوان بن الولخشي عندما وزر للحافظ لدين الله، فقيل له: السيد الأجل الملك الأفضل وذلك في سنة ثلاثين وخمسمائة، وفعل ذلك من بعده، فتلقب طلائع بن زويك بالملك المنصور»[١].

النظـام الإداري

أولاً ـ الـولاة

كانت سلطة الدولة الفاطمية على ولاياتها التي شملت بلاد المغرب ومصر والشام وفلسطين وبلاد الحجاز واليمن متفاوتة بين ولاية وأخرى. فبعضها كان يدين بالتبعية المطلقة مثل الشام وفلسطين حيث كانوا يولون عليها العمال ويجبون الضرائب، وكثيراً ما كان أهل هذه البلاد يشعلون نار الفتنة للخروج على الخلفاء الفاطميين[٢].

وثمة ولايات كانت تتمتع بنصيب وافر من الاستقلال الذاتي مع التبعية الإسمية للخليفة الفاطمي التي تتمثل في ذكر اسمه في الخطبة ونقشه على السكة. وكان أمراء هذه الولايات يتوارثون الملك ويتخذون ولاة العهود. فإذا تولى أمير جديد بعثوا إلى الخليفة الفاطمي يطلبون منه سجل التقليد والاعتراف بشرعية حكمه ويلتمسون الخلع والألقاب. ومن هذه الولايات إفريقية، صقلية، الحجاز واليمن[٣].

---

(١) المقريزي: خطط. . . ج ٢، ص ٣٠٥.
(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٦٤.
(٣) زامبارو: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ج ١، ص ١٠٧ ـ ١٨٣.

أما مصر وهي قاعدة الدولة الفاطمية فكانت مقسمة إلى أربع ولايات كبيرة وهي:

أ - ولاية قوص وكانت أعظم ولايات مصر، لأن عاملها يحكم جميع بلاد الصعيد، ويتولى إقليم الأشمونين بالإضافة إلى عمله الأصلي.

ب - ولاية الشرقية وتشمل على وجه التقريب الأراضي الواقعة شرقي فرع دمياط.

ج - ولاية الغربية وتشمل جميع البلاد الواقعة بين فرعي رشيد ودمياط من الشمال إلى الجنوب

د - ولاية الإسكندرية ويضاف إليها إقليم البجيرة كله[(١)].

وقد منحت الحكومة الفاطمية كل وال من ولاة هذه الأقاليم الأربعة الحرية في تعيين العمال على المدن والنواحي والقرى الداخلة في نطاق ولايته، كما أجازت لهم العناية بمرافقة إقليمهم دون الرجوع إليها[(٢)].

وكان على القاهرة وال، كما تولى على الفسطاط والٍ آخر، وتمتع كل منهما بمركز ممتاز عند الخليفة، غير أن مرتبة والي القاهرة كانت أعلى من مرتبة والي الفسطاط، كذلك كان لكل من تنيس وعيذاب والٍ يحكمهما لأهميتهما التجارية[(٣)].

وكان يخلع على الولاة من خزانة الكسوة بالبدنة، وهو الثوب الذي يلبسه الخليفة يوم الاحتفال بفتح الخليج[(٤)].

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٨، ص ٤٩٧ - ٤٩٨.

(٢) د. حسن ابراهيم حسن وطه شرف: المعز لدين الله، إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في مصر، القاهرة ١٩٢٨، ص ١٦٠ - ١٦١.

(٣) ابن حماتي، القاضي الوزير شرف الدين أبو المكارم الأسعد: كتاب قوانين الدواوين. القاهرة ١٢٩٩، نشره عزيز سوريال عطية: القاهرة، ١٩٤٣، ص ٨٥ - ١٠٠.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٨، ص ٤٩٨.

وقد ذكر ابن الأثير الصفات التي يجب أن تتوفر فيمن يرشح لولاية الأقاليم وقال: لا يصلح لهذا الأمر إلا من تحلى ببعض الخصال منها:

ـ حزم يتقي به عند موارد الأمور حقائق مصدرها.

ـ علم يمنعه من التهور والتغرير في الأشياء إلا مع إمكان فرصتها.

ـ شجاعة لا تفتر عزيمتها عند الملمات.

ـ سرعة مكافأة الإحسان إلى صالح الأعوان.

ـ الاستعداد للحوادث.

ـ الحكم بالسوية بين القوي والضعيف[1].

ثانياً ـ الدواوين:

كان يشرف على شؤون الإدارة في العصر الفاطمي عدة دواوين، على رأس كل منها موظف كبير، نذكر من بينها: ديوان الإنشاء، ودواوين الإدارة المالية التي تقوم بجباية الأموال وإنفاقها، ودواوين الإدارة المحلية التي تحكم الولايات. وتنقسم الدواوين الرئيسية بدورها إلى عدة دواوين، يختص كل منها بعمل معين. فمثلاً ديوان الجيش، وكان يختص بشؤون الأجناد وخيولهم وما إلى ذلك. وديوان الكسوة والطراز، ويتولاه أحد كبار الموظفين من أرباب الأقلام. ديوان الأحباس ويشبه وزارة الأوقاف في وقتنا الحاضر. وديوان الرواتب ويهتم باستثمارات الرواتب[2]. يضاف إلى هذه الدواوين أيضاً ديوان الشام وديوان الحجاز، وقد تولاها في عهد العزيز الفاطمي أبو طاهر النحوي الذي كان يعرف بالكاتب، وكانت مهمته إخبار الخليفة مما تشكوه العامة من

---

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٧، ص ٦٦.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٩٥.
وانظر ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٥٥ ـ ٥٩.
وانظر ابن الميسر: تاريخ مصر، ص ٥٤.

النصارى[١] وديوان الخاصة للخليفة ابن نسطورس[٢].

كان الموظفون في العهد الفاطمي يتقاضون الرواتب الكبيرة ويمنحون الملابس والهدايا الثمينة في الأعياد والمواسم؛ وأصبحوا بفضل هذه الرواتب والمنح في رغد من العيش مما سهل عليهم القيام بواجباتهم على أحسن وجه، وقد حرص الفاطميون على أن يكون موظفو الإدارة من بين ذوي الخبرة، كما اهتموا بتدريب كتاب الدواوين على جميع الأعمال الكتابية[٣].

ولما كان الأقباط على دراية واسعة بالأعمال الكتابية والحسابية والتحرير في ديوان الخليفة، فقد عينوا مع بعض النصارى الملكيين في كافة فروع الإدارة، وتدرجوا في المناصب حتى أسندت إليهم الوزارة، ولكن هذه السياسة التي حازت القبول من الوجهة العملية، إلا أنها أشعلت الكراهية في نفوس المسلمين عندما أصبح منهم كل جباة الضرائب والقائمون على أموال الدولة[٤].

ويقول اوليري Oleary: «إن استخدام النصارى واليهود في المناصب المدنية هو عرف شائع قليلاً أو كثيراً في البلاد الإسلامية، وقد بالغ الفاطميون أنفسهم في استعماله أكثر مما جرت به العادة من قبل»[٥].

كان ديوان الإنشاء أهم دواوين الإدارة في عهد الفاطميين وهو يلي الوزارة في الأهمية، وقد أطلق عليه ابن منجب الصيرفي «ديوان الرسائل» وازدادت أهمية ديوان الإنشاء في ذلك العهد عما كان عليه في العهود السالفة (الدولة الطولونية، الدولة الاخشيدية) لأن مصر أصبحت مركزاً للخلافة الفاطمية بامتدادها الواسع من بلاد المغرب إلى بلاد الشام وجزيرة العرب، وصارت في حاجة للقيام بدعاية واسعة لخلفائها مما يتطلب من هذا الديوان مجهوداً كبيراً.

---

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٥٩.

(٢) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص ٥٤.

(٣) ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، ج ١، ص ٩٥ ـ ٩٦، ١٠٣.

(٤) المقريزي، خطط . . .، ج ٢، ص ٣١. وانظر ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٥٦.

(٥) O. Leary: A short of the Fatimid Khalifate. Op. Cit. P. 114

وكان يتولى شؤون هذا الديوان كاتب يقال له صاحب ديوان الإنشاء، ويطلق عليه صاحب الدست الشريف لكتابته على الدست، ومن واجباته تسلم المكاتبات الواردة ثم عرضها على الخليفة لبحثها واعتمادها. وكان صاحب الإنشاء يتقاضى راتباً شهرياً قدره مائة وخمسون ديناراً، ويتقاضى كل كاتب من الكتاب الذين يعملون تحت إدارته ثلاثين ديناراً[1]. ويلي صاحب الإنشاء في الرتبة صاحب القلم الدقيق الذي كان يوقع على المظالم ويجالس الخليفة، وكان يتقاضى مائة دينار كل شهر، ثم صاحب القلم الجليل ومهمته تسلم رقاع المظالم من صاحب القلم الدقيق وعرضها على الخليفة[2].

ثالثاً ـ البريد:

اهتم الفاطميون بالبريد اهتماماً كبيراً، وصار أصحابه يعرفون في أيامهم بأصحاب الأخبار، وكانوا يوافونهم بكل ما يصل إليهم من الأحداث، وكان يتولى في بعض الأحيان صاحب ديوان الإنشاء إدارة البريد.

ويذكر المقريزي أن الخليفة الحاكم بأمر الله قلد الحسين بن جوهر البريد والإنشاء[3].

وقد اعتمد الفاطميون على حمام الزاجل حيث ذكر القلقشندي أن الفاطميين «اهتموا بالحمام كوسيلة من وسائل نقل الرسائل، وحافظوا عليه، وبالغوا حتى أفردوا له ديواناً وجرائد بأنساب الحمام»[4]. وقد ساعد ذلك على سرعة ورود الأخبار. ففي عهد الخليفة المستنصر «وجه الوزير اليازوري المغربي الحمام من تونس في إفريقية فجاء إلى مصر، والعهدة عليه في

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٩٠.
(٢) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٩١ ـ ٤٩٢.
(٣) المقريزي: خطط. . .، ج ٢، ص ١٤.
(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٣٩٠.

ذلك»[1]. وبذلك لم يعد يخفى عليهم شيء من أمور دولتهم.

رابعاً ـ الشرطة

كانت الشرطة من النظم الإدارية التي عني بها الفاطميون، مهمتها حفظ النظام واستتباب الأمن، ويتولى رئيسها الذي يعرف بصاحب الشرطة تنفيذ أحكام القضاة. وكان حكام الولايات المصرية يقومون بأعمال صاحب الشرطة يعاونهم بعض الجند.

قسمت الشرطة في مصر إلى قسمين: الشرطة العليا في القاهرة والشرطة السفلى في مصر (الفساط والعسكر). ومن أشهر من تولى رئاسة الشرطة كان جبر وعروبة ابن إبراهيم وشبل المعرضي[2].

خامساً ـ النظام المالي

لم يحدث الفاطميون أي تغيير على النظام المالي الذي كان سائداً في مصر منذ العهد العباسي فكان مال الضرائب ينقسم إلى قسمين: خراجي وهلالي.

أ ـ الخراجي: ما يؤخذ على الأرض التي تزرع حبوباً ونخلاً وعنباً وفاكهة، وما يؤخذ من المزارعين على سبيل الهدية مثل الغنم والدجاج.

ب ـ الهلالي: ما يؤخذ من الضرائب على الكلأ وما يصطاد من السمك وكان يعرف الهلالي بالمرافق والمعاون.

وقد ذكر المقريزي أن خراج مصر بلغ في السنة الأولى من ولاية جوهر ثلاثة ملايين وأربعمائة ألف دينار[3].

ولما جاء المعز لدين الله الفاطمي مصر في أواخر سنة ٣٦٢هـ ـ ٩٧٥م،

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٣٩١.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ص ٩٥.

(٣) المقريزي: خطط... ج ١ ص ٩٩.

أمر يعقوب ابن كلس وعسلوج بن الحسن بوضع نظام جديد للضرائب، فجمعت أقسامه المختلفة في مكان واحد، وعمل نظام جديد لتقدير الأملاك وتحديد الضرائب التي تفرض على كل منها فزادت الضرائب بفضل هذه السياسة الرشيدة التي قضت بفحص الشكايات، وبفضل ما سلكته الدولة من حزم في تنفيذ هذا النظام الجديد(١).

سادساً: النظام الحربي

أ ـ الجيش:

وجه الفاطميون عنايتهم إلى إعداد جيش قوي يحمي دولتهم ويساعدهم على امتداد نفوذهم في أراضي الدولة الإسلامية، فكوّنوا جيشهم من عدة أجناس لم يكن بعضها معروفاً في مصر، فأخذ المعز منذ أن استقرت إليه الأمور في البلاد المصرية يعتمد على المغاربة بشكل أساسي(*)، ولما ولي العزيز بالله الخلافة استخدم الأتراك والديلم، وفي عهد الحاكم بأمر الله ظهر عنصر السودان الذي تضاعف عدده في خلافة المستنصر بالله حتى زاد عن الخمسين ألفاً، وظل هذا العنصر يكون فرقة كبيرة في الجيش الفاطمي حتى زالت الدولة الفاطمية. وقد أدى تعدد العناصر في الجيش إلى قيام صراع حاد بين طوائف الجند وليس أدل على ذلك مما حدث في عهد المستنصر من خلاف بين طائفتي الأتراك والسودانيين كان له أسوأ الأثر في حالة مصر الداخلية(٢).

كما ضم الجيش الفاطمي العديد من العناصر الأرمنية، وفدوا إلى مصر مع بعض من تقلدوا الوزارة، ففي عهد بدر الجمالي حضر قسم منهم من بلاد

---

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص ٤٦.

(*) كان المغاربة يشملون عدة طوائف من البربر منهم الكتامية، الباطنية، المصامدة، الجودرية. المقريزي: خطط. . . ، ج ٢، ص ٨ وانظر: نظم الفاطميين ورسومهم، ج ١. ص ١٩٥.

(٢) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص ١٣ ـ ٢٣٢، ٣٤.

الشام، وعمل بهرام الأرمني أثناء توليه الوزارة على استقدام عدد كبير منهم إلى مصر كانوا في تل باشر وأرمينة، وما لبث أن بلغ عددهم أكثر من ثلاثين ألفاً بعد زمن قصير[١].

كذلك جاء الأكراد إلى مصر مع أسد الدين شيركوه وصلاح الدين يوسف بن أيوب[٢]. وبالرغم من اعتماد الفاطميين على العناصر الأجنبية إلا أنهم رفضوا إشراك المصريين في جيشهم، غير أنه في أواخر العصر الفاطمي حين أصبحت مصر مهددة من جانب الصليبيين اشترك المصريون في الدفاع عن بلادهم، فأصبح يتكون الجيش الفاطمي من جنود وأمراء مصريين فضلاً عن الطوائف الفاطمية الأخرى.

أما الأمراء وهم القادة وطوائف الجند، ولكل من هاتين الطبقتين مرتبة لا تتجاوزها إلى غيرها. ويتميز الأمراء بعضهم عن بعض بعلامات في الأعياد والمواكب الرسمية، فالأمراء الكبار يحملون حول أعناقهم أطواق الذهب، ويقود كل منهم ألف جندي، أما البعض الآخر يعرفون بأصحاب القضب الفضية[*] ويقود كل منهم مائة جندي[٣].

أما طوائف الجند فكانت تتكون من عناصر الجيش كالغز والمغاربة والديلم، والأكراد والأتراك والمصامدة والسودان... الخ ولكل طائفة من هؤلاء قائد يراقبهم ويقوم بترتيبهم في مواقفهم. وكان بعض هذه الوظائف ينسب إلى الخلفاء كالحافظة والآمرية، والبعض الآخر ينسب إلى الوزارة كالجيوشية والأفضلية، وكان قائد الجيش يسمى اسفهسلار العسكر[٤].

---

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص ٧١، ٧٩ ـ ٨٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ١١، ص ١٢٠، ١٢١، ١٢٦، ١٣٦.

(*) القضب وهي عبارة عن رماح فضية يحملونها في أيديهم.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٨٠.

(٤) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٨٢.

وكان الفاطميون لا يألون جهداً في سبيل تجهيز جيشهم بكل ما يحتاج إليه من أسلحة فأنشأوا خزانة السلاح، وكانت تحتوي على سيوف ورماح وخوذ وسهام ودروع وأقواس وما شابه ذلك. وهناك خزائن أخرى تمد الجيش بمعداته منها خزانة الخيام، وبها عدة أنواع من خيام الجند، وخزائن لصناعة السروج اللازمة للدواب في الحرب(١).

ويذكر المقريزي أن الخليفة الآمر بأحكام الله عندما استعد لمهاجمة بغداد أعد في هذه الخزائن سروجاً مجوفة ومبطنة بصفائح من قصدير يوضع بداخلها الماء ليشرب منها الفارس(٢).

وقد برع الجند الفاطمي في استخدام أسلحة الحرب كالرماح والسيوف والمنجانيق كما زود الجيش بفرقة من النفاطين الذين يقومون بإعداد القوارير المملوءة بالنفط ورميها على الأعداء لتمنع تقدمها(٣).

وقد اتخذ الفاطميون للجيش أحياء خاصة، فأنزل جوهر الصقلي عساكر المعز وكانت أغلبيتها من المغاربة في أماكن بالقاهرة عرفت بالحارات، وخصص لكل طائفة حارة، يقيم فيها الجند وأسرهم، وبها دكاكين وأسواق، ويرجع السبب في ذلك لمنعهم من مضايقة سكان القاهرة.

ثانياً ـ البحرية:

أمام هجمات البيزنطيين المتكررة لبلاد الشام التي كانت تابعة لمصر، واستيلائهم على بعض المدن مثل انطاكيا وحلب، وجد الفاطميون أنفسهم في حاجة ماسة إلى أسطول قوي(٤) فأنشأ المعز لدين الله مركزاً لإنشاء السفن

---

(١) المقريزي: خطط...، ج ١، ص ٤١٧ ـ ٤٢٠.
(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤١٨.
(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣.
(٤) الجوذري: سيرة الأستاذ جوذر، ص ٩٧، ١٠٢، ١٠٣.

الحربية في مدينة مصر (الفسطاط والعسكر) وجزيرة الروضة، والإسكندرية، ودمياط، والمقس.

وقد استطاع الفاطميون تأمين الخشب اللازم لبناء السفن الحربية من مناطق الغابات المزروعة في كثير من جهات الوجه القبلي. وقد احتكر الفاطميون أجود أنواع الخشب برسم الأسطول والمراكب الديوانية. ولما كان إنتاج البلاد من الخشب لم يكن كافياً، كما أن بعض أنواعه لا تمتاز بالصلابة اللازمة، لذلك عمدوا إلى استيراد الخشب من تجار البندقية، وكثيراً ما تدخل الأباطرة البيزنطيين لمنع المدن الإيطالية من تزويد مصر بما تحتاج إليه من هذه المادة.

كان الأسطول الفاطمي يتألف من أنواع عديدة من السفن الحربية منها: الشواني التي امتازت بأبراج للدفاع والهجوم واحتوت على أهراء لخزن القمح وصهاريج لخزن الماء العذب[١]. ثم الحراريق وهي المراكب الحربية الكبيرة المخصصة لمهاجمة سفن العدو بالنفط الذي يرمي بالمنجانيق أو بالسهام[٢]. وسفن الطرائد التي كانت تستخدم في نقل الخيول، والشلنديات وهي مراكب مسطحة يستعان بها في حمل العتاد والجند، والحمالات وتستخدم في حمل الذخيرة[٣].

وكان من اهتمام الفاطميون بقواتهم البرية والبحرية، الاحتفال بتوديعها عند رحيلها لمحاربة الأعداء وخاصة ما كان مرسلاً منها إلى بلاد الشام، فكان يجلس الخليفة بمنظرة باب الفتوح ويؤذن لقائد الحملة بالمثول بين يديه، فيخلع عليه خلعة مزركشة بالذهب، ثم يأمر الجيش بالمسير[٤]. وفي حالة خروج

(١) المقريزي: خطط...، ج ٢، ص ٤٢٨.
(٢) ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم، ج ١، ص ٢٢١.
(٣) المرجع نفسه، ص ٢٢٣.
(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٥٢٣ ـ ٥٢٤.
وانظر المقريزي: خطط...، ج ١، ص ٤٨١ ـ ٤٨٢.

الأسطول يحضر الخليفة إلى منظرة المقس يرافقه الوزير والأعيان حيث يكون مقدم الأسطول في انتظاره، وبعد أن يستعرض الخليفة المراكب الحربية يأذن للمقدم بالمثول بين يديه فيخلع عليه ويودعه، فيبدأ الأسطول بالمسير. وعند عودة الأسطول مظفراً يحضر الخليفة وأعيان الدولة إلى المكان نفسه في المقس ليشهدوا احتفال النصر(١).

سابعاً ـ النظام القضائي

احتل القاضي في الدولة الإسلامية مركزاً مرموقاً غير قابل للعزل كغيره من موظفي الدولة، وقد بلغ من محبة الناس للقاضي أن أصبح الولاة في مصر يخشون عزلهم حتى لا يتعرضون للكراهية، وكانت مراسيم تعيينهم وتحديد رواتبهم ودفعها من اختصاص الخليفة وحده. وعندما وصل الفاطميون إلى مصر في سنة ٣٥٨هـ ـ ٩٦٥م كان أبو الطاهر قاضي القضاة، فرأى جوهر الصقلي أن عزله وإحلال قاضي من الشيعة مكانه قد يثير غضب المصريين، فأقره في منصبه لغرض سياسي فقط، وعمل في الوقت نفسه على الحد من نفوذه(٢).

لكن ما أن وصل الخليفة المعز إلى القاهرة وبدأ يجمع في يديه جميع السلطات حتى أخذت سلطة القاضي أبا الطاهر تتضاءل، وألزم على إصدار أحكامه طبقاً لأصول المذهب الشيعي، كما فرض عليه مشاركة قاضيين من المغاربة في سلطته(٣).

---

(١) المقريزي: خطط. . .، ج ١، ص ٤٨٢.

(٢) الكندي: كتاب القضاة، ص ٥٤٨.

(٣) يذكر ابن ميسر أن أبا سعيد عبد الله بن أبي ثوبان، الذي صحب المعز إلى مصر، تقلد في شوال سنة ٣٦٢هـ النظر في المظالم الخاصة بالمغاربة. ولم تلبث أن ازدادت سلطة ابن أبي ثوبان هذا، فلم تقتصر على النظر في قضايا المغاربة وحدهم، أو في القضايا المشتركة بينهم وبين المصريين، بل آل إليه النظر أيضاً في قضايا المصريين أنفسهم، وبدأ يطلق عليه اسم قاضي مصر والإسكندرية. أنظر ابن ميسر: تاريخ مصر، ص ٤٤.

ـ الكندي: كتاب القضاة، ص ٣٨٧.

وكان من شدة فرض الخناق على أبي الطاهر أن قدم استقالته إلى الخليفة العزيز الذي قبلها على الفور وعين علي بن النعمان الشيعي مكانه[1]. وفي هذا الصدد يقول ابن حجر: «ولى ابن النعمان القضاء على مصر وأعمالها، والخطابة والإمامة والقيام في الذهب والفضة»، ثم يستطرد فيقول أن مقاليد الدعوة الإسماعيلية أسندت أول مرة لقاضي القضاة، وأصبح ابن النعمان يطلق عليه «قاضي القضاة وداعي الدعاة»[2].

وظل أولاد النعمان يقلدون هذا المنصب حتى سنة ٣٩٨هـ ـ ١٠١١م. ولما كان من الصعب العثور على فقيه من الشيعة لتولي مركز القضاء، فقد كان يضطر الخلفاة الفاطميين في بعض الأحيان إلى إسناد هذا المنصب إلى أحد السنيين. ففي سنة ٤٠٥هـ ـ ١٠١٥م قلد الحاكم بأمر الله أبا العباس بن العوام الحنبلي المذهب. ويذكر ابن حجر ذلك فيقول: «ولما وقع اختيار الحاكم على أبي العباس، فقيل له: ليس هو على مذهبك، ولا على مذهب من سلف من آبائك، فقال: هو فقيه مأمون مصري، عارف بالقضاء وبأهل البلد، وما في المصريين من يصلح لهذا الأمر غيره»[3].

وقد رفع الفاطميون رواتب القضاة على غرار ما كان يفعل العباسيون حتى يحولوا بينهم وبين أخذ الأموال بغير حق. فأمر الحاكم بأمر الله أن يضاعف رزق الحسين بن علي ابن النعمان وصلاته وإقطاعاته، وشرط عليه ألا يتعرض لدرهم واحد فما فوقه من أموال الرعية»[4].

أما بالنسبة للمظالم فقد حافظ الفاطميون على النظام الذي كان سائداً في

---

(١) الكندي: كتاب القضاة، ص ٥٨٥.
(٢) ابن حجر: رفع الإصر...، ورقة ١٩٤ب.
(٣) المصدر نفسه، ورقة ٤٣ب وما يليها.
(٤) إن راتب قاضي القضاة بلغ مائة دينار في الشهر ما عدا المخصصات الأخرى.
ـ القلقشندي: صبح الأعشى...، ج ٢، ص ٥٢٦.

مصر قبل احتلالهم لها، حيث كان يوجد ديوان خاص يعرف بديوان المظالم، وهو هيئة قضائية عليا تشبه محكمة الاستئناف في الوقت الحاضر. ويسمى رئيس هذا الديوان «صاحب المظالم»، وسلطته أعلى بكثير من سلطة القاضي[١]. وكانت محكمة المظالم تنعقد برئاسة الخليفة أو من ينوب عنه. ويعين صاحب المظالم يوماً يقصده فيه المتظلمون إذا كان من الموظفين ليتفرغ لأعماله الأخرى أما إذا انفرد بالمظالم، نظر فيها طوال أيام الأسبوع. وكانت محكمة المظالم تنعقد في المسجد، ويحاط صاحب المظالم بخمس جماعات لا ينتظم عقد جماعاته إلا بحضورهم، الحكام، الحماة والأعوان، الفقهاء، الكتاب، الشهود وفي الحق أن الضرورة تحتم وجود مثل هذا النظام، إنصافاً للمظلومين وإغاثة للمستضعفين[٢].

ولم تكن محكمة المظالم تنظر في قضايا الأفراد وحدهم، بل تعدى اختصاصها إلى الفصل في شكاوى الشعوب عامة.

ثم المحتسب ووظيفته النظر فيما يتعلق بالنظام العام والجنايات مما يستدعي الفصل فيها إلى السرعة.

وكان القضاة والحسبة يسندان في بعض الأحيان إلى رجل واحد، بالرغم ما بين العملين من التباين، فعمل القاضي مبني على التحقيق والأناة في الحكم، أما عمل المحتسب فمبني على الشدة والسرعة في العمل[٣].

وكانت أعمال المحتسب متعددة مختلفة، فكان يعهد إليه النظر في الأسواق، والمحافظة على الآداب والفضيلة، وإدارة الشرطة، والأمانة، وإيقاف مضايقة الجمهور، والإشراف على الموازين والمكاييل، وعلى استيفاء الديون،

(١) ابن خلدون: المقدمة. . .، ص ١٩٣.
(٢) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ٧٣ ـ ٧٩.
(٣) المصدر نفسه، ص ٦١ ـ ٧٢.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحيلولة دون بروز الحوانيت مما يعوق نظام المرور[١].

ويقول المقريزي أن نظام الحسبة ارتقى في عهد الفاطميين، فكان المحتسب يختار من وجوه المسلمين وأعيان المعدلين، لأن وظيفته كانت دينية إلى حد كبير. وكان ينوب عنه في القيام بأعماله المتعددة المنوطة إليه نواب في القاهرة ومصر وغيرهما من المدن. وكان يجلس للحكم في جامعي القاهرة ومصر يوماً بعد يوم، ويطوف نوابه على أرباب الحرف والتجار، ليحولوا دون مضايقة الجمهور. . . ويلزمون رؤساء المراكب بألا يحملوا أكثر مما يجب حمله من السلع، ويشرفون على معلمي الكتاتيب، وينظرون الموازين والمكاييل. وللمحتسب النظر في ضرب العيار، وكان يخلع عليه ويقرأ سجله بمدينة الفسطاط والقاهرة على المنبر[٢] فغدت سلطته من الاتساع بحيث لا يحال بينه وبين ما يريد، كما كان له أن يستعين بالشرطة على تنفيذ أحكامه للمحافظة على الآداب والنظام. وكان يتقاضى راتباً قدره ثلاثون ديناراً في كل شهر[٣].

ثم يذكر المقريزي أن المحتسب كان مصرياً سنياً حتى الفتح الفاطمي حيث أقيل في ربيع الثاني سنة ٣٥٩هـ وحل محله رجل من المغاربة[٤].

(١) المصدر نفسه، ص ٢٢٧، ٢١٩، ٢٣٠.
(٢) المقريزي: خطط، ج ١، ص ٤٦٣ ـ ٤٦٤.
(٣) ابن خلدون: المقدمة، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦.
(٤) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ص ٨٧.

الفصل الثاني

الحالة الاقتصادية

أولاً ـ الزراعة:

أ ـ توزيع الأراضي واهتمام الدولة:

اهتم الفاطميون بالزراعة على اعتبار أنها أهم مصادر الثروة في مصر، وبلغت مساحة الأراضي المزروعة في عهد المعز لدين الله الفاطمي ٢٨٥,٧١٤ فداناً. وفي عهد وزارة بدر الجمالي نحو هذا القدر[١]. أما في العصر الفاطمي الثاني تضاءلت الزراعة أو كادت تنعدم، والسبب في ذلك يعود إلى عدم اهتمام الحكام بتنمية الزراعة وما تتطلبه من شق الترع وحفر الخلجان وإقامة الجسور وغير ذلك.

يضاف إلى ذلك المشاكل التي كان يعاني منها الفلاح نتيجة النظام الإقطاعي الذي كان سائداً في مصر منذ العهد الراشدي[٢] أو أن المقطع أو الملتزم يعمل على الإثراء وجمع الأموال الضخمة، ولا يتردد في إرهاق الأهالي وإثقالهم بأنواع الضرائب المختلفة ليستطيع أن يؤدي إلى الحكومة ما عليه من

(١) المقريزي: خطط، ج ٢، ص ٨٠ ـ ٨٣.

(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩٧.

مال الخراج ويحفظ ما زاد لنفسه، والأهالي في ذلك مغلوبون على أمرهم، نادراً ما تصل شكاياتهم إلى السلطة المركزية؛ فقد كان بعض الجباة يسلكون معهم أشد أنواع التعذيب[1].

ثم أن التعديلات الكبيرة التي أدخلها الفاطميون على النظام الإقطاعي ساهمت في عمارة الأرض والعناية بها، فزاد الإنتاج الزراعي، ففي عهد وزارة الأفضل بدر الجمالي شكا صغار المقطعين من قلة دخل إقطاعاتهم، على حين تضاعفت إقطاعات الأمراء وكثر ارتفاعها وزاد دخلها؛ فأمر الوزير الأفضل بحل جميع الإقطاعات وإعادة توزيعها؛ ولم يتعرض للأرض المملوكة، بل أبقاها في أيدي ملاكيها. ومن قوله في هذا الشأن: «أن كل من كان له ملك فهو باق عليه لا يدخل في الإقطاع وهو محكم إن شاء باعه وإن شاء أجره»[2].

وكان أكثر المقطعين في ذلك الوقت من الأجناد وقد سمح لهم الأفضل بن بدر الجمالي بأن يستغلوا إقطاعاتهم مدة ثلاثين سنة، فكانت هذه السياسة من الأسباب التي أدت إلى زيادة خراج مصر في تلك الفترة إلى أكثر من ثلاثة ملايين دينار[3].

وفي أواخر العصر الفاطمي كان يدفع ضريبة منتظمة عن كل فدان قدرها ديناران وخمسة قراريط، وإذا انقطعت مدة الإقطاع، عليه أن يرد الأرض المقطعة كما تسلمها، ولا ينقل شيئاً من المنشئات التي أقيمت عليها[4].

وقد أظهر الفاطميون عناية كبيرة بنظم الري، من صيانة الترع والمحافظة على الجسور، لتنظيم الانتفاع بماء النيل، وتجنباً لغرق الأراضي الزراعية في

(١) أبو يوسف: كتاب الخراج، ص ١٨، ٦١، ٧٠ ـ ٧١.

(٢) المقريزي: خطط، ج ٢، ص ١٠٠.

(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٨٣.

(٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٨٣.

وقت الفيضان، وكثيراً ما كان يسخر الأهالي في إقامة الجسور وصيانتها[١].

كما اهتم الفاطميون بمقاييس النيل، لأنها أشبه بميزان الرخاء أو الكساد. فإذا ارتفع منسوب المياه إلى ستة عشر ذراعاً استبشر المصريون بوفرة المحصول وضمنت الدولة زيادة الخراج، أما إذا بلغ ثمانية عشر ذراعاً كان ذلك نذيراً بحلول كارثة الفيضان؛ وفي حال نقص الماء عن أربعة عشر ذراعاً، يعني ذلك حلول القحط وما يصحبه من أزمات اقتصادية، كما حدث في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي سنة ٤٥٧هـ، حيث حل بالبلاد المصرية الشدة العظمى[٢].

وقد جرت العادة منذ العهد العباسي أن تذاع نتائج المقياس على الناس، فيخرج المنادي في طرقات القاهرة وسائر مدن مصر. ولكن المعز لدين الله الفاطمي أمر بكتمان أمر المقياس، لأن الناس إذا أحسوا بانخفاض مياه النيل، تسرب القلق إلى نفوسهم، فأخفوا الغلات، فيحدث الغلاء. وإذا شعر الناس بزيادة النيل هبطت الأسعار هبوطاً فاحشاً وأصيب كبار التجار بأفدح الأضرار، لذلك كان في كتمان الزيادة عن العامة فائدة تامة وكثيراً ما كان يحتفل الخليفة الفاطمي عند زيادة منسوب مياه النيل، فتفتح الخلجان والترع مبشرة بموسم الرخاء وخصب البلاد. وفي ذلك يقول ابن المقريزي: «إذا فاض الماء غمر القيعان والبطاح فتعود أرض مصر أرضاً عامراً»[٣].

وبلغ من عناية الفاطميين بالزراعة أن أنشأوا إدارة خاصة تشرف على أمورها، كما قاموا بمشروعات زراعية عظيمة الأهمية نخص بالذكر منها الخليج الذي أشرف على حفره أبو المنجا متولي ديوان جهات الدلتا الشرقية في عهد وزارة الأفضل بن بدر الجمالي ـ وكان هذا الخليج يخرج من النيل لري الأراضي الواقعة في شرق فرع دمياط[٤].

---

(١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٠١

(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٩.

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٨.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦.

وقد عامل الفاطميون الفلاحين معاملة تنطوي عل التسامح والرعاية فلم يتركوا تقدير الخراج للمقطعين[1] بل حددوا مقداره، كما حرصوا منذ وصولهم إلى مصر على عدم انتزاع الأراضي من أيدي أصحابها[2].

أما الأراضي التي تمتلكها الدولة، فأخذوا في توزيع أجزاء منها على بعض أعوانهم والمختصين بهم. وكانت هذه الأراضي إذا نزلت عنها الحكومة صارت ملكاً للمقطعين، ولكن إذا منحت الأرض لبعض الأفراد مقابل دفع مبلغ معين من المال تصبح إقطاع استغلال. وهذا النوع من الإقطاع كان يعطى للأجناد في العصر الفاطمي.

ب ـ المحاصيل الزراعية:

تنوعت المحاصيل الزراعية في مصر في العصر الفاطمي، وكان أهمها القمح وهو يؤلف المحصول الرئيسي في البلاد، وزراعته تشغل الجزء الأكبر من الأراضي المصرية الخصبة التربة وعلى الأخص أنحاء الدلتا والوجه القبلي. ثم زراعة الشعير وتأتي في المرتبة الثانية بعد القمح. أما الذرة فلم تكن معروفة في مصر في ذلك العهد.

وكان الكتان يزرع في الأراضي المنخفضة التي تظل مغمورة بالمياه مدة طويلة، لذلك انتشرت زراعته في الدلتا والفيوم. أما قصب السكر فقد توسع المصريون في زراعته في العصر الفاطمي وليس أدل على ذلك من قول ناصر خسرو الذي زار مصر حوالي سنة ٤٤٠هـ «وتنتج مصر عسلاً كثيراً وسكراً»[3]. هذا بالإضافة إلى زراعة الحمص والعدس والبرسيم، والبصل والثوم والترمس

---

(١) المقريزي: خطط، ج ٢، ص ٨٣.

(٢) متن: الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ٢٦١.

(٣) محمد سرور: الدولة الفاطمية، ص ١٥٢.

وانظر ابن حماتي (القاضي شرف الدين أبو المكارم الأسعد) قوانين الدواوين، ص ٢٠١ ـ ٢٠٤.

والكمون والسمسم والبطيخ والقطن والقلقاس والباذنجان. . . وهذه الزراعات كانت تعرف بالمحاصيل الشتوية، أما المحاصيل الصيفية فقد اقتصرت زراعتها على الأراضي المحاذية لنهر النيل وذلك نظراً لجفاف الترع. وكانوا يرفعون الماء بالسواقي والقواديس وغيرها، لذلك لم تكن هذه المحاصيل من الوفرة بحيث تسد حاجة الأهلين[1].

كما اشتهرت مصر في العصر الفاطمي بإنتاج أنواع مختلفة من الفواكه، ومن أهمها: الكروم، وتزرع في نواحي مريوط والجيزة والفيوم وقليوب، وبعض جهات الوجهين القبلي والبحري. وكذلك كان شجر النخيل مغروساً في مختلف المناطق. وقد ذكر الأدفوي: «أنه كان يغرس بالصعيد أشجار النخيل إلى شاطىء النيل من الجانبين الشرقي والغربي. وأن محصول التمر قد بلغ في إحدى السنوات أربعين ألف أردب. وكانت أسوان أكثر نخيلاً من غيرها من جهات الصعيد. وقد بلغ مجموع محصولها من التمر في سنة واحدة ستة وثلاثين ألف أردب»[2].

وكذلك ازدهرت أشجار الكرمة والتين والتفاح والتوت واللوز والخوخ والمشمش والنخل والموز. كما عنوا بزراعة الورود كالنرجس والياسمين والمرسين والريحان والمنثور والخيار شمبر[3].

وقد اهتمت الحكومة الفاطمية بغرس أشجار الغابات حتى يتسنى لها الحصول على الأخشاب اللازمة لبناء أسطولها الحربي ومراكبها التجارية. ومن أشهر مناطق الغابات في العصر الفاطمي أسيوط والبهنسا والآشمونين وقوص وآخيهم.

---

(١) البراوي: حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، ص ٦٧.

(٢) الأدفوى (كمال الدين ابن علي الأدفوى الشافعي): الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء مصر، ص ١٠ ـ ١١.

(٣) ابن حماتي: قوانين الدواوين، ص ١٧١ ـ ٢٧٢.

وعلى الرغم من اهتمام الفاطميين بالزراعة، كانت البلاد تتعرض لكثير من الأزمات الاقتصادية نتيجة لانخفاض ماء النيل، أو إهمال العناية بالترع والجسور، أو انتشار الفتن والقلاقل، واضطراب حبل الأمن.

ثانياً ـ الصناعة:

إن استقرار الأمور في البلاد في العصر الفاطمي ـ باستثناء فترات الأحداث ـ فضلاً عن حياة البذخ والترف التي عرفتها بعض المدن المصرية وبخاصة القاهرة والفسطاط ساعد على ازدهار الإنتاج الصناعي، فأصبح عمل المصانع ليس مقصوراً على إمداد الجيش والأسطول الفاطمي بالسلاح والعتاد الحربي والملابس لطوائف الجند، بل تنوعت المنتوجات لسد حاجة الخلفاء والوزراء ورجال الدولة وغيرهم.

وكان من أشهر الصناعات التي اشتهرت في مصر الصناعة الكتانية بسبب وفرة الكتان في منطقة الفيوم ودمياط وشرق الدلتا. ومن المراكز الرئيسية لهذه الصناعة: الفيوم وتنيس ودمياط وشطا ودبيق التي ينسب إليها أجود أنواع الأقمشة وهو المسمى بالدبيقي، وهو من النوع الثقيل الجيد النسج، ومنه كانت تصنع «الثياب المثقلة والعمائم الشرب الملونة الطويلة التي يبلغ طول الواحدة منها مائة ذراع، وفيها رقمان منسوجة بالذهب»[١] كما كانت تنيس تصدر من الأقمشة الكتانية إلى العراق سنوياً ما يتراوح قيمته ثلاثين مليون دينار[٢].

وفي ذلك يقول الثعالبي «إن القطن لخرسان والكتان لمصر»[٣].

كما اشتهرت صناعة الأقمشة الصوفية وبلغت درجة عالية من الرقي، فامتازت بلدة القيس بعمل المنسوجات الصوفية، كما ازدهرت قرية طحا في

---

(١) متز ـ الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ٢٩٦.

(٢) المقريزي: خطط، ج ١، ص ٢٢٦.

(٣) متز ـ الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ٣٠٠ ـ ٣٠١.

الصعيد بصناعة الثياب الصوفية الرفيعة[١]. وكانت بعض هذه المنسوجات تصدر إلى بلاد الفرس حيث عرفت هناك باسم «المصري»[٢].

وكانت القاهرة في عهد الفاطميين من أهم مراكز صناعة المنسوجات الحريرية، فقد بنى المعز لدين الله فيها دار الكسوة حيث كانت تفصل الثياب لموظفي الدولة على اختلاف مراتبهم، وفي هذه الدار أمر الخليفة المعز بصنع كسوة الكعبة الشريفة «فجاءت مربعة الشكل، مصنوعة من ديباج أحمر، سعتها مائة وأربعون شبراً، وفي حافاتها اثنا عشر هلالاً ذهبياً، بداخل كلٍّ منها خمسون درة مرصعة بالياقوت الأحمر والأصفر والأزرق، ونقشت في حافاتها الآيات التي وردت في الحج»[٣] بحروف الزمرد الأخضر، وزينت هذه الكتابة بالجواهر الثمينة، وعطرت بمسحوق المسك، ووضعت في القصر بحيث يراها الناس من داخله وخارجه[٤]. كما كان يصنع بدار القاهرة الخلع التي يمنحها الخلفاء للوزراء والأمراء والأشراف في عيد الفطر، حتى سمي هذا العيد بعيد الحلل.

كذلك عمل الفاطميون على النهوض بصناعة النسيج إلى أرقى مستوى، فأنشأوا عدة مصانع لإنتاج الأنواع الفاخرة. وكانت دار الديباج منذ عهد الأفضل بن بدر الجمالي تنتج نوعاً من الحرير يعرف بالحرير الديباج[٥]. كما أن خزانة البنود التي بناها الخليفة الظاهر الفاطمي كان بها ثلاثة آلاف صانع لصنع أفخر أنواع الثياب[٦].

كذلك تقدمت الصناعة الخشبية، فبالإضافة إلى بناء السفن ـ تكلمنا عنها سابقاً ـ ازدهرت صناعة الحفر على الخشب حتى بلغت الغاية في العصر الذهبي

---

(١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٩٦.
(٢) ناصر خسرو: كتاب «سفرنامه» ص ٧٠.
(٣) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص ٤٣.
(٤) المصدر نفسه، ص ٤٤.
(٥) المقريزي: خطط، ج ١، ص ٤٦٤.
(٦) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٣٣.

للدولة الفاطمية، إذ أبدع الفاطميون في نقش الفروع النباتية وأوراق الأشجار ورسوم الحيوانات والطيور. ويرجع الفضل في ذلك إلى الأقباط الذين مهروا في صناعة النجارة والحفر على الخشب. ويبدو أن تسامح الفاطميين مع الأقباط قد أتاح لهم الإبداع والتجديد في هذه الصناعة. ومن أهم هذه الآثار الخشبية التحف التي وجدت بكنيسة بربارا بمصر القديمة، والألواح التي عثر عليها بماريستان قلاوون الذي قام على أنقاض القصر الغربي الفاطمي. وهذه الألواح غنية بزخارفها فريدة في إتقان صنعتها، ومنبر حرم الخليل بفلسطين. وقد نقشت عليه كتابة تاريخية بخط كوفي جميل، كما امتازت زخارف هذا المنبر بالفروع النباتية بدقة الصنعة وجمال الزخرفة.

ومن روائع التحف الخشبية الفاطمية المحاريث الثلاثة المحفوظة بدار الآثار العربية في القاهرة، وأقدمها كان بالجامع الأزهر، والثاني بجامع السيدة نفيسة، والثالث بجامع السيدة رقية(١).

وكان الصناع الفاطميون يستعملون الأخشاب المحلية من الجميز والسنط والنبق والسرو. ولما كانت هذه الأخشاب تفتقر إلى المتانة والصلابة اضطروا إلى استيراد الأخشاب من كرواتيا ودلماشيا، كما جلبوا خشب الأرز والصنوبر من بلاد الشام (لبنان) وآسيا الصغرى، والأبنوس من السودان، والتلك من بلاد الهند وشبه جزيرة الملايو(٢).

أما الأخشاب المحلية فكانت تستخدم في صناعة الأثاث والسواق وآلات رفع الماء، وكذلك في صنع الطواحين والمحاريث والنوارج والمعاصر والأنوال والمغازل(٣).

---

(١) زكي محمد حسن: كنوز الفاطمين ـ ص ١٩٨.
وانظر د. حسن إبراهيم حسن: الدولة الفاطمية، ص ٥٨٨ ـ ٥٨٩.
(٢) زكي محمد حسن: كنوز الفاطميين ـ ص ١٩٨.
(٣) البراوي: حالة مصر الاقتصادية في عصر الفاطميين، ص ١٧١.

ومن الصناعات التي راجت في العصر الفاطمي صناعة الورق، وكان أشهرها ورق البردى الذي اشتهر بمصر منذ عهد بعيد، وانتشرت صناعته في طبرية ودمشق وطرابلس[١].

ومن أهم مراكز صناعة الورق بمصر في هذا العصر كانت مدينة الفسطاط التي عرفت نوعاً من الورق أطلق عليه الورق المنصوري[٢] وكان أجود أنواع الورق[٣].

ولم يكن الورق يباع بسعر واحد، بل كانت أسعاره تختلف بحسب جودته، فالورق الأبيض أغلى ثمناً من الورق الأسمر، ويرجع السبب في ذلك إلى المادة المستعملة في صناعته، فقد كان يصنع من الكتان الممزوج بالقطن، كما يصنع من الخرق البالية[٤].

وقد صحب انتشار صناعة الورق تقدم فن تجليد الكتب، واستخدم الصناع جلود العجول، كما استخدموا الحرير والديباج والأطلس في تجليد المصاحف بصفة خاصة[٥]، وتقدم فن الخط والتذهيب[٦].

كذلك تقدمت صناعة الزجاج والخزف في العصر الفاطمي. وكانت الفسطاط من أكبر مراكز صناعة الزجاج. ومن البلاد التي اشتهرت بهذه الصناعة أيضاً الفيوم والأشمونين والشيخ عبادة (المينا الآن)، والإسكندرية، وكانت مصر تصدر هذه الصناعات إلى بلاد النوبة، وإلى أقطار الشرق والغرب.

أما الخزف فقد أشار ناصر خسروا إلى أن المصريين كان يصنعون أنواعاً مختلفة منه، وبلغ من انتشار استعماله في مصر أن البقالين وغيرهم من التجار

---

(١) الجاحظ: التبصر بالتجارة، ص ٤١.
(٢) المقريزي: خطط، ج ١، ص ٣٦٧.
(٣) ابن دقماق: الانتصار، ج ٤، ص ١٠٨.
(٤) البراوي: حالة مصر الاقتصادية، ص ١٦٢ ـ ١٦٣.
(٥) Arnold and Grohman, the Islamic book. Opt, P. 51
(٦) Ibid, P. 97

كانوا يضعون ما يبيعونه في أوان من الخزف بدلاً من الورق[1].

وبرع صناع مصر في العصر الفاطمي في صناعة المعادن والعاج والفسيفساء، فعرفت مدينة الفسطاط بصناعة الحديد المستورد من أوروبا وصقلية وشمالي إفريقية، كما عرفت مدينة تنيس بصناعة المقصات والسكاكين وراجت صناعة الذهب والفضة اللتين استخدما في صنع الحلى والسيوف ووشي الملابس الفاخرة[2] بالإضافة إلى صناعة البرونز والنحاس[3].

كما راجت صناعة السكر رواجاً عظيماً، فانتشرت مطابخه في الفسطاط والمينا والفيوم وترنوط وأسيوط وقفط وسمهود. ويذكر ابن دقماق أن مطابخ السكر في الفسطاط وحدها بلغت ٥٨ مطبخاً[4].

واشتهر الفاطميون بصناعة الزيوت من الزيتون والسيرج والسمسم، وكانت أهم معاصر الزيت في الفسطاط والفيوم ومدن صندقا[5]. ورافق صناعة الزيت صناعة الشمع والصابون في الفسطاط والقاهرة والإسكندرية[6].

ثالثاً ـ التجارة:

ازدهرت التجارة في العصر الفاطمي على الصعيدين الداخلي والخارجي، وأصبحت بعض المدن المصرية مراكزاً تجارية مهمة يفد إليها التجار وتقصدها المراكب وتقام بها الأسواق لبيع السلع. ومن هذه المراكز مدينة «الفرما»، وكانت تعد مفتاح الديار المصرية، ووصفهاالمقدسي بأنها مجمع الطرق، ومدينة

(١) ناصر خسرو: كتاب «سفر نامه»، ص ١٥١.
(٢) المقريزي: خطط، ج ١، ص ٣٦٧.
(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤١٨ ـ ٤١٩.
(٤) ابن دقماق: الانتصار، ج ٤، ص ٤١ ـ ٤٢.
(٥) المقريزي: خطط، ج ١، ص ٤٦٢.
(٦) ابن دقماق: الانتصار، ج ٤، ص ١٠٨.

بلبيس التي اشتهرت بأنها مستودع الحبوب والدقيق[١] ثم مدينة المحلة الكبيرة وتعرف في وقتنا الحاضر بالمحلة الكبرى، وكانت عامرة بالأسواق التجارية، وبلغ من شهرتها أن شبهها المقدسي بمدينة واسط ببلاد العراق[٢]. كما اشتهرت مدينة الإسكندرية وأتتها المراكب حاملة سلع الشرق والغرب.

أما مدينة الفسطاط فكانت من أهم مراكز مصر التجارية في ذلك العصر لتوسطها بين الوجهين القبلي والبحري، واتصالها بكافة البلاد المصرية عن طريق النيل، فضلاً عن كونها نقطة انطلاق لطرق برية تسير فيها القوافل متجهة نحو الحجاز وبلاد الشام والمغرب.

ويصفها المقدسي فيقول: «ناسخ بغداد ومفخر الإسلام ومتجر الأنام وأجل من مدينة السلام، خزانة المغرب ومطرح المشرق وعامر الموسم. ليس في الأمصار آهل منه، ولا أحسن نجماً من أهله، ولا أكثر مراكب من ساحله. آهل من نيسابور، وأجل من البصرة، وأكبر من دمشق»[٣].

وكانت الفسطاط تتمتع في العصر الفاطمي برخاء عظيم، فكثرت بها المتاجر والأسواق، فكانت ترد إليها تجارة الشام والمغرب والعراق والمشرق، كما كان يأتي إليها كثير من مراكب الجزيرة والروم[٤].

وقد وصف ناصر خسرو مدينة الفسطاط بعد المقدسي بنحو نصف قرن فقال: كانت بها الأسواق التي تباع فيها جميع أنواع السلع كسوق القناديل الزاخر بالتحف النادرة، وبها أيضاً كثير من الخانات[٥].

وظلت الفسطاط عامرة ولم يؤثر إنشاء القاهرة على مركزها التجاري، لأن

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ١٩٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٩٦.

(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ١٩٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٠٣.

(٥) ناصر خسرو: كتاب «سفر نامه» ص ١٤٩، ١٥٣.

المدينة الجديدة ظلت أشبه بمعسكر يقيم فيه الجنود والموظفون، كما أن موقعها بالنسبة للنيل كان دون موقع الفسطاط مما جعل الأسعار في الفسطاط أقل منها في حاضرة الخلافة الفاطمية(١).

وتلي مدينة الفسطاط في الأهمية مدينة دمياط التي تميزت عن غيرها من المدن بازدهار التجارة والصناعة فيها وأصبحت الميناء المصري الوحيد في الجزء الشرقي من البحر المتوسط. كذلك كانت مدين قوص من مراكز التجارة الداخلية؛ فقامت بها الأسواق الكبيرة لوقوعها عند نهاية طريق القوافل بين البحر الأحمر والنيل. كما احتلت أسوان مكانة بارزة بسب ورود تجارة النوبة والسودان إليها(٢).

كما ازدهرت مدينة عيذاب(*) في العصر الفاطمي، ولا سيما في أيام الشدة العظمى التي تعرضت لها الدولة الفاطمية في عهد الخليفة المستنصر، ولعل تقدمها ونموها يرجعان إلى تحول طريق التجارة الفاطمية باتجاه الجنوب، نتيجة لاشتداد النزاع بين الفاطميين والسلاجقة سلاطين بغداد، ولاستيلاء الصليبيين على أيله في سنة ٥١٠هـ ـ ١١١٧م(٣).

أما على الصعيد الخارجي احتلت التجارة الفاطمية مكانة مرموقة فقد اتسع نطاقها مع البلاد الآسيوية والأوروبية، فكانت مصر تستورد الكثير من غلات الهند والصين، كما أن حاجاتها إلى المواد الخام كالخشب والحديد حملها على استيرادها من بعض الدول الأوروبية. وأصبحت الإسكندرية من المراكز الرئيسية للتجارة، فتنقل منها البضائع الآسيوية إلى أوروبا وترد إليها السفن الأوروبية محملة بالسلع اللازمة للصناعة المصرية، ولم تكتف مصر بأن تكون طريقاً

---

(١) البراوي: حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، ص ١٩٩.
(٢) د. حسن إبراهيم حسن: الدولة الفاطمية، ص ٦٠٠ ـ ٦٠١.
(*) مرفأ على ساحل البحر الأحمر الإفريقي في جنوبي مصر قرب الحدود السودانية تجاه جدة.
(٣) د. حسن إبراهيم حسن: الدولة الفاطمية، ص ٦٠٢.

لمرور الغلات الآسيوية، بل كان لديها ما تصدره إلى البلاد الأوروبية كالنطرون والشب والمنسوجات على اختلاف أنواعها[١].

وكان نتيجة للعلاقات التجارية بين مصر وأوروبا أن أقدمت المدن الإيطالية وبخاصة جنوة والبندقية على التعامل مع الدولة الفاطمية، فأخذت سفن البندقية تنقل الخشب والحديد إلى الموانىء المصرية، على الرغم من المعارضة البيزنطية الشديدة لمنع وصول هذه المواد إلى أسواق مصر حتى لا يشتد ساعد الأسطول الفاطمي الذي كان يقف للبيزنطيين بالمرصاد، لكن جمهورية البندقية رفضت أي طلب لا يتفق ومصلحتها الخاصة وأرسلت إلى مصر بعثات استطاعت أن تحصل على امتيازات مغرية، حيث استجاب بعض الخلفاء الفاطميين لرغبة هؤلاء السفراء وسمحوا للتجار في الحصول على أمان لهم ولسفنهم تشجيعاً لهم على الاتجار مع بلادهم، فأدلت البندقية بدلوها في تجارة الهند الرابحة، كما استطاعت سفنها أن تنقل منتوجات آسيا إلى أسواق أوروبا[٢].

كما حرصت جنوه على الفوز بود الدولة الفاطمية في النصف الأخير من القرن الحادي عشر، وصارت مراكبها تبحر إلى موانىء مصر والشام[٣].

وبالرغم من العلاقات السيئة التي كانت بين مصر والدولة البيزنطية بسبب النزاع من أجل السيادة على البحر المتوسط فإن العلاقات التجارية بين الدولتين لم تتوقف فكان البيزنطيون بحاجة إلى المنسوجات المصرية من مصانع تنيس ودمياط[٤]. كما كانت مصر تستورد بعض منتجات الدولة البيزنطية وبخاصة الغلال كما حدث في سنة ٤٤٦هـ ـ ١٠٥٦م، عندما أرسل الخليفة المستنصر

---

(١) البراوي: حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، ص ٢١٢ ـ ٢٤٣.

(٢) Heyd: Hist.. du Commerce de Levant au moyen age, tome t, P. 114, 392

(٣) Ibid, tome, t, p. 391

(٤) Heyd: Hist., du Commerce... Tome, t, P. 58

الفاطمي إلى الإمبراطور البيزنطي يطلب المدد، فأرسل إليه أربعمائة ألف أردب[(١)].

وقد ذكر الرحالة الفارسي ناصر خسرو أن كثيراً من السلع التي رآها وأعجب بها في أسواق الفسطاط كانت من واردات بلاد الروم. . . ثم يقول أنه سمع أن أحد الأباطرة عرض على الخليفة الفاطمي مائة مدينة مقابل استحواذه على مدينة تنيس وحدها[(٢)].

وكانت العلاقات التجارية بين مصر وصقلية وثيقة في العصر الفاطمي، لأن هذه الجزيرة ظلت تابعة للفاطميين وقتاً طويلاً، كما أن موقعها المتوسط بين الشرق والغرب جعل أكثر السفن المتجهة من مصر إلى إيطاليا وجنوبي فرنسا تمر بمدن صقلية لتبيع ما تحمله من منتوجات، وتشتري ما تحتاجه مصر من قمح صقلية وفاكهتها ومعادنها، ولم تنقطع هذه العلاقات بعد استيلاء النورمنديين على هذه الجزيرة في سنة ٤٨٣هـ ـ ١٠٩٣م[(٣)]. فكان تجار صقلية يعاملون معاملة ممتازة، فقد عقد الخليفة الفاطمي معاهدة تجارية مع رودجر صاحب صقلية، كما كانت السفن المصرية ترد إلى موانىء قبرص لتحمل الشمع والعسل وكانت العلاقات بين مصر وبلاد النوبة ودية إلى حد كبير، فكان ملوك النوبة يرسلون الهدايا إلى الخلفاء الفاطميين ويعقدون معهم المعاهدات[(٤)]. كما أن صلة مصر بالعراق وإيران لم تنقطع بعد انتقال قاعدة دولتهم إلى مصر فقد ظلت السفن المغربية تأتي إلى الموانىء المصرية لنقل الحجاج المغاربة أو لتبتاع غلات بلاد العرب والحبشة والهند. وكانت السفن المصرية تفد إلى المهدية لشراء منتوجات بلاد المغرب من الزيت والفاكهة[(٥)]. كانت سياسة الدولة الفاطمية

---

(١) ابن ميسر: أخبار مصر. . .، ص ٦ ـ ٧.

(٢) ناصر خسرو: كتاب «سفر نامه». ص ١٠٧ ـ ١١١.

(٣) حسن أحمد محمود: بنو زيري وسياستهم الداخلية، مخطوط، ص ٩٠.

(٤) ناصر خسرو: كتاب «سفر نامه» ص ١٧٥.

(٥) البكري المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص ٣٠، ٤٧، ٤٩، ٨٢.

الخارجية تحرص على ألا تخسر الأسواق التجارية في الشرق والغرب. فسمحت للتجار الإيطاليين وغيرهم من الأوروبيين بإقامة الفنادق الخاصة بهم في الموانىء الهامة. فكان لكل جالية أجنبية بالإسكندرية فندق تقيم فيه وتحفظ فيه بضائعها، ويضم الفندق كنيسة صغيرة لإقامة الشعائر الدينية، بالإضافة إلى فرن وحمام ودار لصنع النبيذ. وتختار الجالية عادة أحد أفرادها للإشراف على تنظيم الإقامة في الفندق، وهو مسؤول أمام الحكومة(١).

ولم تكن هذه الفنادق منتشرة في الموانىء فحسب، بل تعدتها إلى داخل البلاد فقد ذكر ابن حوقل أنه كانت هناك فنادق بمحلة صرد والبيجوم والكريون(٢). وكان أشهرها: فندق بلال المغيثي حيث تباع صناديق الذهب والفضة، وفندق الصالح، وفندق ابن قريش، وفندق دار التفاح، وفندق طرنطاي وينزل به تجار الزيت الوافدون من الشام(٣).

كذلك أقيمت في مصر في ذلك العصر الوكالات وهي كالفنادق ينزل فيها التجار القادمون من بلاد المشرق الإسلامي، وتكون همزة وصل بينهم وبين التجار المصريين(٤).

ويذكر ابن ميسر أن الوزير البطائحي أمر سنة ٥١٦هـ ببناء وكالة بالقاهرة لمن يصل من العراق والشام من التجار(٥).

وإلى جانب هذه الفنادق والوكالات أنشئت في مصر أبنية أخرى أطلق عليها اسم القياسر(٦). وهي عبارة عن مجموعة من المباني العامة، على هيئة

---

(١) ابن حوقل: الممالك والمسالك، ص ٩٠ ـ ٩١.
(٢) المقريزي: خطط، ج ٢، ص ٩٢ ـ ٩٣.
(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩٣.
(٤) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص ٦٢.
(٥) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص ٢٤١.
(*) ان كلمة قياسر مأخوذة من الكلمة اليونانية.
ـ ابن جبير: رحلة ابن جبير . . . ص٢٤١ Pandokeion
ـ وانظر المقريزي: خطط. . . ج٢، ص٨٦ ـ ٩١.

رواق من أروقة الدير، تحتوي على حوانيت ومصانع ومخازن ومساكن، وكان في بعض القياسر مسجد لتجار المسلمين ويعلوها رباع يقيم فيها الصناع والتجار بأجر زهيد. ومن أشهر هذه القياسر: قيسارية ابن قريش، وقيسارية ابن أبي أسامة، وقيسارية بيبرس، وقيسارية الجامع الطولوني، وقيسارية عبد الباسط وبها مارستان ووكالة[١]. كما كثرت الخانات بمصر في هذا العهد، وارتفعت إيجاراتها، وأهمها: خان مسرور حيث كانت تباع مهمات الأساطيل والرقيق، وخان السبيل لإيواء أبناء السبيل والمسافرين بدون أجر، وخان الخليل[٢].

وبالإضافة إلى تقديم التسهيلات في بناء هذه المنشآت كانت الدولة الفاطمية تفرض رقابة محكمة على العمليات التجارية، وتحدد الأسعار، وتقاوم الغش والتدليس، وتراقب المكاييل والموازين، وتحمي التجار والفقراء من استغلال الباعة والصناع، وتحرس الطرق والمسالك، وتوفر للتجار جميع أسباب الراحة.

أما عن نظم المعاملات التجارية فلم تكن موحدة في الدولة الإسلامية، ففي البلاد التي كانت تابعة للدولة البيزنطية قبل استيلاء العرب عليها (مصر والشام) شاع استعمال الدنانير الذهبية، أما سائر البلاد الإسلامية الشرقية (الفرس والعراق) فعملتها الجارية الدراهم الفضية. وكان الدينار يساوي أربعة عشر درهماً، غير أن ذلك كان يختلف بين بلد وآخر[٣].

واستمر الدينار في مصر قاعدة التعامل حتى بعد الفتح الفاطمي، غير أن القائد جوهر بادر إلى سك دنانير جديدة أطلق عليها المعزية، وأبقى التعامل بالدينار الراضي (نسبة إلى الخليفة العباسي الراضي).

وفي أوائل سنة ٣٦٣هـ ـ ٩٧٦م عهد الخليفة المعز إلى يعقوب بن كلس

---

(١) المقريزث: خطط، ج ٢، ص ٨٦ ـ ٩١.

(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩٢ ـ ٩٤.

(٣) متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج ٣، ص ٣١٦ ـ ٣٢٨.

وعسلوج ابن الحسن بالإشراف على الخراج، فصار يجبيان بالدينار المعزي، فانحطت بذلك قيمة الدينار الراضي، ومن ذلك يتضح لنا كيف استطاعت الحكومة الفاطمية أن تفرض التعامل بنفوذها[١].

وفي عهد الخليفة الحاكم بأمر الله أصدرت الحكومة الفاطمية دراهم جديدة، وقررت أن يكون كل ثمانية عشر درهماً بدينار، فصارت مصر تتعامل بالدنانير الذهبية والدراهم الفضية[٢].

---

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص ٤٦.

(٢) الكرملي (أنستاس ماري): النقود العربية وعلم النميات. القاهرة ١٩٣٩ ص ٥٨ ـ ٥٩.

الفصل الثالث

الحالة الاجتماعية في العصر الفاطمي

أولاً ـ طبقات المجتمع :

كان المجتمع في العصر الفاطمي ينقسم إلى عدة طبقات هي :

أ ـ أهل السنة وكانوا يؤلفون السواد الأعظم من المصريين وكانوا في عداء مستمر مع الشيعة أنصار الفاطميين.

ب ـ المغاربة وكانوا يشكلون عصب الدولة الفاطمية وقوتها، كما كانوا مصدر الفتن والقلاقل وإثارة الشغب بين الأهالي مما اضطر الخليفة المعز إلى إجلائهم عن القاهرة، وإسكانهم في منطقة خاصة بهم على مقربة من عين شمس[(١)].

ج ـ الشيعة من المصريين وكان عددهم قليلاً، غير أنهم كانوا أقوياء بالمغاربة الذين كانوا يشدون أزرهم، وبوجود حكومة شيعية تعضدهم[(٢)].

د ـ أهل الذمة وهم النصارى واليهود وقد عاملهم الفاطميون معاملة تنطوي على

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ص ٨٧، ٩٣ ـ ٩٤.
وانظر ابن ميسر: تاريخ مصر، ص ٤٥.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٤ ـ ٤٥.
وانظر أبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم، ص ٢٢٢.

العطف والرعاية والمحاباة، وتقلدوا أرقى المناصب وأعلاها، كما تمتعوا بقسط وافر من سياسة التسامح الديني تجلى في بناء عدد من الكنائس في تلك الفترة أو إعادتها إلى ما كانت عليه[١].

هـ ـ الأتراك الذين أتوا إلى مصر في عهد الدولة الطولونية وظهر أمرهم في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله حيث بدأ التطاحن بينهم وبين المغاربة[٢].

و ـ السودانيون الذين كثر عددهم في مصر منذ عهد كافور الإخشيدي، برزوا في الدولة الفاطمية عندما استعان بهم الخليفة الحاكم بأمر الله لمحاربة الأتراك، كما ظهر أمرهم بشكل فعال في عهد الخليفة الظاهر الذي تزوج بسيدة سودانية، وتفاقم خطرهم في عهد المستنصر حيث بلغ عددهم خمسين ألفاً. وقد أدى صراعهم مع الأتراك إلى فقدان الأمن والاستقرار في جميع أنحاء البلاد[٣].

ثانياً ـ مظاهر البذخ والترف:

سادت الحياة الاجتماعية بمصر في العصر الفاطمي مظاهر خاصة من البذخ والترف قل أن نجدها في أية دولة إسلامية أخرى، وفي هذا يقول لينبول: «إن الخلفاء الفاطميين كانوا أكثر الملوك الذين حكموا مصر حباً للمظاهر.. وإن ثرواتهم كما دونها المؤرخون ليس من الممكن تصديقها بدون تردد..»[٤]. وفي هذا الصدد يقول المقريزي: «كان للمعز ابنتان واحدة اسمها رشيدة تركت ما يقرب من مليون ونصف من العملة الذهبية. والثانية إسمها عبدة تركت كثيراً من خزائن الحلى والصناديق التي تحتوي على خمسة أكياس من الزمرد، وثلاثمائة قطعة فضية، وثلاثين ألف ثوب صلى، وغير ذلك من الذخائر، حتى كان الشمع

---

(١) أبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم، ص ١٨٦.

(٢) ابن منجب: الإشارة، ص ٢٧.

(٣) د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٦٢٥ ـ ٦٢٦.

(٤) Lane - poole: A History of Egypt, Op. Cit., P. 133

الذي استخدم في الختم على هذه الثروة أربعين رطلاً . .»[١] .

ويصف أبو المحاسن ثروة الحاكم بأمر الله فيقول: «إنها عظيمة ولا غرو، فقد كان من بين الخلفاء الفاطميين مشهوراً بحب العظمة». ثم يذكر ثروة ست الملك أخت الحاكم «بأنها اشتملت على ثمانمائة جارية، وثمان جرات ملأى بالمسك، وكثير من الأحجار الكريمة، وكانت مخصصات هذه الأميرة السنوية خمسين ألف دينار، وكانت مشهورة بالكرم والحلم»[٢] .

ويمدنا المقريزي ببيان واضح عن بذخ الخلفاء فأورد لنا صورة عن خزائن الفرش والأمتعة والجواهر والخيم والشراب، والقصور الفخمة التي بنوها مساكن لهم ولأفراد أسرتهم، ومن أشهرها القصر الشرقي الكبير، وكان به عدة أبواب، منها باب الذهب وتعلوه منظرة. وباب العيد وأمامه رحبة متسعة، يقف فيها الجنود في يومي العيدين، وتعرف برحبة العيد، وباب الديلم وقد أسس العزيز بهذا القصر قاعة الذهب التي يجتمع فيها مجلس الملك، وكانت مؤثثة بأفخم الأثاث ومزينة بالستور والطنافس الحريرية[٣] .

ويذكر المقريزي ممتلكات الخليفة المستنصر الكثيرة التي لا تقوم بمال، من سيوف وأحجار كريمة، وجواهر وخواتم بيع ثلاثة منها مرصعة بالأحجار الكريمة باثني عشر ألف دينار[٤] .

وليس أدل على مقدار ضخامة الثروة التي خلفها العاضد آخر الخلفاء الفاطميين من الوصف الذي أورده الذهبي عن الهدية التي قدمها صلاح الدين لنور الدين سنة ٥٦٩هـ من الذهب والزمرد وأثواب الحرير، والخيل والغلمان والجواري، والسلاح، وخمسة أجمال من المال[٥] .

---

(١) المقريزي: خطط . . ، ج ١، ص ٤١٥.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ١، ص ١٧.

(٣) المقريزي: خطط، ص ٣٨٥ ـ ٣٨٦.

(٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤١٤.

(٥) د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٥٥٣ ـ ٥٥٤.

وكتب غليوم رئيس أساقفة صور عن زيارة رسولي أملريك ملك بيت المقدس للقصر الفاطمي في عهد الخليفة العاضد قال: «. . سار السفراء يقودهم الوزير شاور بنفسه إلى قصر له رونق وبهجة وفيه زخارف أنيقة. وكان هؤلاء المبعوثون متأثرين بما حولهم. . فوجدوا في هذا القصر أروقة ذات أعمدة، وأرضية مرصوفة بأنواع من الرخام متعددة الألوان. وكان في وسط الفناء نافورة يجري الماء الصافي منها في أنابيب من الذهب والفضة إلى أحواض وقنوات مرصوفة بالرخام. . وعندما وصلا إلى القصر الكبير حيث يقيم الخليفة. وقد فاق هذا القصر كل ما رأوه قبل ذلك. . ثم أدخلا في قاعة واسعة تقسمها ستارة كبيرة من خيوط الذهب والحرير المختلف الألوان[١].

لم تقتصر حياة البذخ والإسراف على الخلفاء الفاطميين بل تعدتهم إلى كبار رجال الدولة الذين أظهروا ميلاً شديداً للأبهة والعظمة وهذا ما يدلنا على ضخامة ثروتهم. ويقول ابن أياس «أن برجوان وزير الحاكم ترك مائتي مليون دينار ذهباً وخمسين أردباً من الدراهم الفضية[٢]. ومع تحفظنا على صحة هذه الأرقام إلا أنها تؤكد لنا الغنى الفاحش لدى هذا الوزير.

ويقول ابن منجب: «لما مات برجوان وجد في خزائن ملابسه ألف سروال دبيقي، وألف تكة حريرية، وكمية كبيرة من الملابس الأخرى والأثاث والآلات الموسيقية والكتب والطرائف المختلفة. . وأربعة آلاف من الغلمان الشبان، ومن الجواهر الثمينة ما قدرت قيمته بأربعمائة ألف دينار[٣].

كذلك كان الوزير الأفضل بن بدر الجمالي مترفاً في حياته، فاتخذ مسكنه

---

(١) Lane - pool: Saladin and the fall of the kingdom of Jerusalem. London, 1893. P.84-86

(٢) ابن اياس: تاريخ مصر، ص ٥١ ـ ٥٢.

(٣) ابن منجب: الإشارة، ص ٢٨.

وانظر المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٢٤٠.

في دار الملك التي بناها سنة ٥٠١هـ ـ ١٠٠٨م «وجعل فيها أمكنة خاصة تقام فيها الأسمطة في الأعياد. واتخذ في إحدى زواياها مجلساً يجلس فيه للعطاء. وقد وجد في هذه الدار بعد وفاته ما لا يحصى من الأدوات، وتسعون ألف ثوب حريري وثلاثة خزائن ممتلئة بالثياب الدبيقية من صنع تنيس ودمياط، وخزانة للطيب. أضف إلى ذلك كان للأفضل مجلس شراب به ثمانية تماثيل لثمان جوار متقابلات، منهن أربع بيض من كافور، وأربع سود من عنبر وكن مرتديات أفخر الثياب ومتزينات بأثمن الحلى. وكان الأفضل إذا دخل من باب هذا المجلس نكسن رؤوسهن إجلالاً له، فإذا ما أخذ مكانه في صدر المجلس استوين قائمات»[١].

ويذكر المقريزي أن الأفضل كان يحتفظ في دار العطاء بثمانية أكياس من حرير، في سبعة منها خمسة وثلاثون ألف دينار، كما جعل في قاعة اللؤلؤ بجوار الخشبة التي كان يجلس عليها كيسين في أحدهما دنانير، وفي الآخر دراهم ينفق منها إذا كان في الحرم. أما ما كان في مجلس العطاء، فكان يعطي منها للمستجدين بحي القرافة، وللشعراء في جوامع مصر المتقاربة من قصر الوزير[٢].

وكان الوزير الأفضل بن بدر الجمالي مولعاً بالبساتين، فبنى لأحدها سوراً يشبه سور القاهرة، وحفر به بركة كبيرة، كما بنى في وسط هذا البستان منظرة على أربعة أعمدة من الرخام، وأحاطها بشجر من النارنج، وجلب إليه كثيراً من الطيور المسموعة وسرح فيه كثيراً من الطواويس[٣].

إن ما ذكره ابن ميسر والمقريزي يبين لنا ما كان يتمتع به الوزير الفاطمي في العصر الفاطمي الأخير من القوة والثروة، والحياة الاجتماعية، والحياة

---

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص ٥٨.
(٢) المقريزي: خطط، ج ١، ص ٤٨٣ ـ ٤٨٤.
(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص: ٣٧٩.

الخاصة التي عاشها الوزراء وغيرهم من أصحاب المراكز الكبيرة، لقد كان الوزير في هذا العهد يتمتع بالسلطة المطلقة، كما كان في قبضة يده خراج الدولة، وكانت داره المحور الذي تدور عليه أعمال تلك الدولة الواسعة التي لم تكن تابعة لخلفاء الإسلام فقط. وأن كثيراً من ثروات هؤلاء الوزراء كانت تصادر عند وفاتهم إلا أن بعضها كان يرد إلى من يخلفهم من أبنائهم. فقد ذكر أبو المحاسن أن أبا علي بن الأفضل لما آلت إليه السلطة بعد أبيه، حبس الخليفة الحافظ سنة ٦٢٤هـ ـ ١١٣١م واستولى على ما في القصر زاعماً أن ذلك كان لأبيه، غير أن الخليفة قد استرد هذه الثروة بعد وفاة الوزير وجعلها في قصره[1].

ثالثاً ـ الأعياد والمواسم:

اهتم الفاطميون بالاحتفال بالأعياد الدينية في شيء كثير من الأبهة والعظمة منها: عيد الفطر، وعيد الأضحى، ورأس السنة الهجرية، ومولد النبي ﷺ، مولد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ومولد ولديه الحسن والحسين، ومولد السيدة فاطمة الزهراء، وغدير خم، ويوم عاشوراء، وليالي الوفود، وعيد النوروز وليلة أول رجب، وليلة نصفه، وليلة أول شعبان، وليلة نصفه، وأيام السبت والثلاثاء وأيام الجمع:

أ ـ الاحتفال بشهر رمضان وعيدي الفطر والأضحى:

كان من عناية الفاطميون بشهر رمضان أن أدخلوا عليه ظاهرة غريبة مخالفة لسنة الرسول، فبعد أن كان صيام شهر رمضان عند السنيين يبدأ بمجرد رؤية هلال شعبان وذلك عملاً بقوله ﷺ: «صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته، فإن غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوماً» لكن جوهر الصقلي لم يقبل السير وفق هذه الطريقة التي لا تتفق مع أصول المذهب الشيعي. ففي سنة ٣٥٨هـ أبطل الصوم بعد اليوم التاسع والعشرين من رمضان، وصلى العيد قبل رؤية الهلال.

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٣.

لكن أهل الفسطاط أنكروا ذلك واتبعوا قاضيهم الذي تلمس الهلال وأعلن انتهاء شهر الصوم. ولما بلغ ذلك جوهر أنكر على القاضي ما فعل وتهدده[١].

وقد اعتبر الفاطميون شهر رمضان من أهم المواسم الدينية، فكانوا يحتفلون في أول يوم منه بركوب الخليفة من القصر الشرقي الكبير ويصحبه وزيره، وحوله حرسه الخاص، فيخترق موكبه شوارع القاهرة ومصر حتى جامع عمرو بن العاص الذي كان يعرف إذ ذاك بالجامع العتيق، فإذا وصل إلى بابه وجد الخطيب في انتظاره، وبيده المصحف المنسوب خطه إلى علي بن أبي طالب؛ فيتناوله الخليفة ويقبله عدة مرات، ثم يأمر بتوزيع الأموال على خطيب المسجد ومؤذنيه، وإذا ما انتهى الخليفة من أداء الصلاة بالمسجد، استأنف سيره إلى دار الملك.

وكان ركوب الخليفة في غرة رمضان يقوم عند الفاطميين مقام الاحتفال برؤية الهلال عند أهل السنة. وكان يهدي في أول شهر رمضان للأمراء وأرباب الدولة أطباق من الحلوى بوسط كل منها صرة من ذهب، كما كانت ترسل مثل هذه الأصناف إل أفراد أسرهم.

وفي الجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان كان الخلفاء الفاطميون يحرصون على الركوب إلى جوامع الحاكم بأمر الله والأزهر وعمر بن العاص على التوالي لصلاة الجمعة. ويشرف صاحب بيت المال في كل يوم من هذه الأيام الثلاثة على تأثيث المسجد الذي يصلي فيه الخليفة صلاة الجمعة. وكانت توضع في المقصورة ثلاثة طنافس دبيقية أو سامانية بيضاء بعضها فوق بعض وكان ينصب على جانبي المنبر ستران، يكتب على الأيمن البسملة والفاتحة وسورة الجمعة، وعلى الآخر البسملة والفاتحة وسورة المنافقين كتابة واضحة[٢].

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ص ٧٦.
وانظر الكندي: كتاب الولاة والقضاة، ص ٨٥٤.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٥٠٣ ـ ٥٢٠.

وكان الخليفة يرتدي في هذا اليوم ثوباً من الحرير الأبيض، ويتعمم بعمامة من هذا النوع من الحرير ويحمل قضيب الملك بيده، ويصل إلى الجامع في موكب حافل يحف به بعض الأشراف وعدد كبير من حرسه الخاص ومن الجنود الآخرين، ويتبع هؤلاء جم غفير من الناس. ويدخل الخليفة المسجد ثم يستريح قليلاً في قاعة الخطابة.. وبعدها يدخل إليه قاضي القضاة للسلام عليه.. ثم يصعد الخليفة المنبر ويلقي خطبة قصيرة.. يختمها بالدعاء للوزير وبنصر الجيش وخذلان الكفار والمخالفين.. وإذا ما انتهى الاحتفال يعود الخليفة بموكبه إلى مقره على الهيئة التي اتخذها في ذهابه إلى الجامع. وكانت هذه الرسوم تتكرر في صلاة الجمعتين الأخيرتين من رمضان[١].

وفي ليلة عيد الفطر كان يقام بالإيوان الكبير الذي يواجه مجلس الخليفة سماط ضخم، يبلغ طوله نحو ثلاثمائة ذراع في عرض سبعة أذرع، وتنثر عليه صنوف الفطائر والحلوى الشهية، فإذا ما انتهى الخليفة من أداء صلاة الفجر، عاد إلى مجلسه، وفتحت أبواب قصره والإيوان على مصاريعها، وهرع الناس من جميع الطبقات إلى السماط الخلفي، وتناولوا عليه من الطعام بمرأى من الخليفة ووزرائه[٢]. وعند بزوغ الشمس يخرج الخليفة في موكبه إلى الصلاة وفي ذلك يقول المقريزي: «وفي يوم العيد ركب الخليفة العزيز بالله لصلاة العيد وبين يديه الجنائب والقباب والعسكر في زيه من الأتراك والديلم والعزيزية والإخشيدية والكافورية، وأهل العراق بالديباج المثقل والسيوف والمناطق الذهب، وعلى الجنائب السروج الذهب بالجوهر والسروج بالعنبر وبين يديه الغيلة، وعليه الرجالة بالسلاح، وخرج بالمظلة الثقيلة بالجوهر وبيده قضيب جده عليه السلام، فصلى على رسمه وانصرف». وإذا ما عاد الخليفة من الصلاة

---

(١) المقريزي: خطط، ج ٢، ص ٢٨٠ ـ ٢٨١.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ٩٧.

كان سماط شهر رمضان تتعدى نفقاته ثلاثة آلاف دينار، وثمن الكسوة في عيد الفطر تزيد على عشرين ألف دينار: المقريزي: خطط ج ١، ص ٣٩٨ و٤٥٣.

وجد سماطاً آخر، فيجلس وأمامه مائدة من فضة، يقال لها المدورة. وكان توضع عليه أواني الذهب والفضة الزاخرة بألوان الطعام، وقبالتها سماط ضخم يتسع لنحو خمسمائة مدعو، نثرت عليه الأزهار والرياحين، وصفت على جانبيه الأطباق الحافلة بصنوف الشواء والطيور والحلوى وكان يجلس إليه رجال الدولة والعظماء.

أما في عيد الأضحى، فكان يحتفل في أول يوم منه بركوب الخليفة إلى الصلاة على النحو الذي اتبع في عيد الفطر، غير أنه يمتاز بخروج الخليفة إلى المنحر ثلاث مرات متواليات في أيامه الثلاثة الأولى واشتراكه في إجراءات النحر، وكان الخليفة إذا انقضى اليوم الثالث خلع على وزيره ثوبه الأحمر الذي كان يرتديه يوم العيد(١).

ب ـ عيد رأس السنة الهجرية:

كان الاحتفال بأول العام الهجري مثال الروعة والعظمة، فقد أورد المقريزي وصفاً لمراسم الاحتفال بهذا العيد، فيقول أنهم كانوا يعدون العدة للاحتفال به منذ العشر الأخير من شهر ذي الحجة في كل سنة، حيث يبدأ المستخدمون والعمال في إعداد آلات وموكب الخلافة من الأسلحة وغيرها. وإذا ما أصبح اليوم التاسع والعشرون من هذا الشهر، تأهب الخليفة لعرض الخيل، فيخرج راكباً من قصره، وينزل بمكان يقال له السد حيث يجلس في مكان محجوب بالستائر.

أما الوزير فيركب في هذا اليوم (٢٩) من داره وبصحبته الأمراء، فإذا وصل إلى باب القصر ترجل الأمراء وظل الوزير راكباً حتى باب الدهاليز بقصر الخليفة حيث ينزل هناك ويسير محاطاً بحاشيته وغلمانه وأولاده وأقاربه، ثم يجلس في المكان المعد له، وحينئذ ترفع الستائر التي بجانبه فيرى الخليفة

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٥١١ ـ ٥١٢.

جالساً، فيقف الوزير ويسلم عليه، ثم يتلو القراء بعض آيات مناسبة لأول العام الهجري وبعد أن يتموا تلاوتهم، يشرع الخليفة في عرض الخيل. وإذا ما فرغ من عرضها، عاد القراء إلى تلاوة بعض آيات الذكر الحكيم إيذاناً بانتهاء الحفل[(١)].

وفي أول المحرم يركبون في الاحتفال فيصحب الخليفة وزيره، وحوله حرسه الخاص، وكانوا يسمون صبيان الركاب، ويمر الموكب بالطرق الرئيسية حتى يصل إلى الجامع الأقمر بالقماحين، فيسارع الوزير إلى الوقوف بين يديه، فيحييه الخليفة بإشارة خفية، ثم يعود الموكب الخلافي إلى القصر[(٢)].

ج ـ ليلة مولد النبي:

اهتم الفاطميون بالاحتفال بليلة مولد النبي ﷺ احتفالاً باهراً يليق بمكانته العظيمة في نفوس المسلمين. وكان الاحتفال بمولد النبي بدعة في نظر المتمسكين بالعادات الإسلامية، لكن أهل الصلاح والورع من المسلمين رغبة منهم في تكريم النبي رأوا منذ بداية القرن الرابع الهجري أن يحتفلوا بمولده. ومن المظاهر الدينية المألوفة في هذا العيد قراءة السير النبوية في المساجد[(٣)].

د ـ غدير خم:

عنى الخلفاء الفاطميون بعيد الغدير عناية فائقة، فأصبح الاحتفال بهذا العيد من كل سنة من أهم الاحتفالات الدينية، التي كانت تهتز لها جوانب القاهرة فرحاً وسروراً، فيهنىء الفاطميون بعضهم بعضاً، وينحرون فيه أكثر مما ينحرون في عيد الأضحى[(٤)].

ويقول المقريزي: «في عيد الغدير، تجمع خلق من أهل مصر والمغاربة

---

(١) المقريزي: خطط، ج ١، ص ٤٤٦ ـ ٤٥٠.

(٢) المصدر نفسه، ج ١ ص ٤٥١. وانظر القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٨٤ ـ ٤٨٥.

(٣) متز: الحضارة الإسلامية، ص ٢٥٠.

(٤) المقريزي: خطط، ج ١، ص ٣٨٨.

ومن يتبعهم للدعاء لأن رسول الله ﷺ عهد إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فيه واستخلفه، فأعجب المعز ذلك من فعلهم»[1].

وفي هذا العيد كان الفاطميون يحتفلون بركوب الخليفة وكبار رجال الدولة إلى الإيوان الكبير بالقصر الخلافي حيث يسبقه الوزير. فإذا وصل موكب الخليفة، أسرع الوزير فأخذ مكانه في الموكب الذي يصل إلى الإيوان فيجلس الخليفة في الشباك، ويتجه القاضي إلى كرسي الدعوة.. فيأخذ مجلسه وأمامه الشهود والأمراء والأجناد والمتشيعون وغيرهم، كذلك يجلس الوزير وحاشيته على مقربة من كرسي الدعوة. ثم يتلو قاضي القضاة قول الرسول ﷺ لعلي بن أبي طالب يوم غدير خم، فإذا فرغ نزل عن الكرسي وصلى بالحاضرين ركعتين، ثم ينهض الوزير ويسير إلى الشباك ليقدم فروض الولاء للخليفة، ثم ينفض الحاضرون بعد تبادل التهاني ويتوجه الوزير لذبح الأضاحي، حيث يقام سماط ضخم، توزع فيه الأطعمة والكسى»[2].

هـ ـ يوم عاشوراء:

وهو يوم العاشر من شهر محرم، كان يجله المسلمون ويصومونه. فقد روى عن الرسول ﷺ أنه لما هاجر إلى المدينة، رأى اليهود يصومون هذا اليوم، فسألهم عنه، فأخبروه أنه اليوم الذي أغرق الله فيه فرعون وآله، ونجى موسى ومن معه، فقال عليه الصلاة والسلام: «نحن أحق بموسى منهم»، فصام وأمر الصحابة بصومه[3].

وقد سار الخلفاء الراشدون على سنة الرسول الكريم، فكانوا يحترمون هذا اليوم حتى كان عهد يزيد بن معاوية بن أبي سفيان واستشهاد الحسين بن

---

(١) المقريزي: خطط، ج ١، ص ٣٨٩ ـ ٣٩٠.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٨٩ ـ ٣٩٠.
وانظر ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، ج ٢، ص ١٢٦ ـ ١٢٨.

(٣) البيروني: الآثار الباقية، ص ٣٣٠.

علي في موقعة كربلاء في العاشر من محرم سنة إحدى وستين للهجرة، فتركت هذه المأساة في نفوس أنصار علي بن أبي طالب وأولاده حزناً عميقاً، فاتخذوا من هذا اليوم مأتماً، تعطل فيه الأسواق، ويخرج المنشدون إلى الجامع ليلقوا الأناشيد في رثاء الحسين[١].

وقد جعل الفاطميون يوم عاشوراء ذكرى تحتفل بها الحكومة والشعب جميعاً احتفالاً يتفق وما له من مكانة في نفوس المسلمين، فيسير الناس إلى الجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص)، ويخرجون إلى الطرقات بعد الصلاة وهم ينوحون ويبكون.

ويقول المقريزي: «إذا حل اليوم العاشر من شهر المحرم، احتجب الخليفة الفاطمي عن الناس، فإذا علا النهار، ركب قاضي القضاة والشهود، وقد لبسوا ملابس الحداد، ثم يسيرون إلى المشهد الحسيني، فيتخذون مجلسهم إلى جانب القراء حتى يصل الوزير، فيجلس في صدر المكان، والقاضي عن يمينه، والداعي عن شماله، ثم يتناوب القراء تلاوة القرآن، وينشد الشعراء القصائد في رثاء أهل بيت النبي».

وفي نفس اليوم يقام سماط يسمى «سماط الحزن» في بهو بسيط، وكان يقدم فيه خبز الشعير والعدس والجبن، ويحضره الخليفة ورجال حاشيته وهم ملثمون حفاة مرتدين الثياب القاتمة، مبدين أبلغ مظاهر الحزن والأسى[٢].

و ـ الاحتفال بفتح الخليج:

كان الخلفاء الفاطميون يحتفلون بوفاء النيل بأبهة عظيمة، فكانوا يركبون إلى المقياس بالروضة إذا ما بلغ المنسوب الفيضان ستة عشر ذراعاً.

---

(١) المقريزي: خطط، ج ١، ص ٤٣١ وانظر البيروني: الآثار الباقية، ص ٣٢٩.
(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٣١. وانظر د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٦٥٥.

ويقول ناصر خسرو: كان هذا الاحتفال من أعظم الاحتفالات التي كانت تقام في مصر في كل عام. وكان الاحتفال بفتح الخليج يقترن بفتح جميع السدود. ويحضر الخليفة هذا العيد وفي ركابه عشرة آلاف فارس، يمتطون الخيول المطهمة ويلبسون الدروع المحلاة بالذهب والأحجار الكريمة المكسوة بديباج مطرز باسم الخليفة، ويلي هؤلاء صفوف من الجمال عليها هوادج مزركشة تقودها طائفة من الجند[١].

وكان موكب الخليفة يخترق شوارع القاهرة ومصر، يحف به أفراد الشعب حتى يأتي منظرة «دار الملك» بالقرب من المقياس، فيركب منها في العشارى بصحبة وزيره وكبار رجال حاشيته قاصداً المقياس، فإذا دخله صلى هو والوزير ركعتين، ثم يأمر بفتح الخليج، ويقذف المزراق في سد النيل، ومن ثم ينطلق الناس يعملون في هذا السد بمعاولهم، فينساب الماء، وعندئذ يهرع الناس إلى زوارقهم فرحين مسرورين، يتقدمهم زورق يحمل جماعة من الصم والبكم تيمناً وتفاؤلاً[٢]. وبعدها يعود الخليفة بموكبه إلى القصر[٣].

ومن مظاهر الاحتفال بفتح الخليج كان يقام سماط عظيم في سرداق رحب على شاطىء النيل، على مقربة من المنظرة المعروفة بمنظرة السكرة التي كان يجلس عليها الخليفة. وكان يأكل على هذا السماط من يدعوهم الخليفة ومن يتبعهم وعدد كبير ممن كانوا يسيرون من وراء المواكب[٤].

ز ـ مجالس الغناء والطرب:

عني الفاطميون بالغناء والموسيقى فأقبل وجوه القوم في مجالسهم الخاصة ومآدبهم على سماع المغنين والمغنيات، وكان معظم المغنيات من الجواري،

---

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٦٦٩.

(٢) ناصر خسرو: كتاب «سفر نامه»، ص ١٣٥ ـ ١٤٢.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٥١٢ ـ ٥١٣.

(٤) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٥٢٠.

ويذكر أن الأمير تميم بن المعز لدين الله اشترى جارية من بغداد تجيد الغناء، فغنت له ولجلسائه، ولم يزل غناؤها يزيدها طرباً حتى قال لها تمني ما شئت، فتمنت أن تغني ما غنت ببغداد، فلبى الأمير طلبها وأعادها إلى بغداد. وكانت مجالس الطرب والغناء واللهو تقام على شواطىء الخليج بالقاهرة ولكن كثرة الانحلال الاجتماعي من جراء هذه المجالس، جعلت الخليفة الحاكم الفاطمي يصدر بين سنتي ٣٩٨هـ ـ ٤٠١هـ ١٠٠٨ ـ ١٠١١م قوانين تحرم الاجتماعات للهو واللعب على شواطىء الخليج، أو أن تفتح الأبواب والنوافذ على هذه الشواطىء وتلتها قوانين أخرى يمنع بعضها سماع الموسيقى والاستمتاع بالألعاب وما إليها، ويمنع البعض الآخر سماع المغنيات[١].

ويذكر ابن خلكان «أن النساء قبعن في بيوتهن سبع سنين حتى ولي الظاهر بن الحاكم الخلافة»[٢]. فعادت المجالس الغنائية إلى الظهور، وكان الخليفة المستنصر بالله يميل إلى سماع المغنيات.

وقد ذكر المؤرخون أن أبا الحارث البساسيري عندما أقام الخطبة للخليفة المستنصر في بغداد وقفت إحدى المغنيات تحت قصر الخليفة الفاطمي وأنشدت هذين البيتين:

يا بني العباس صدوا ... ملك الأمر معد
ملككم كان معاراً ... والعواري تسترد

فأعجب المستنصر بغنائها وأقطعها أرضاً لا تزال تعرف إلى اليوم في مدينة القاهرة، باسم أرض الطبالة[٣].

أما مجالس الشرب فقد كثرت في العصر الفاطمي وتعددت. ويصف لنا ابن ميسر أحدها فيقول: كان حين يجلس الأفضل للشرب يجعل في مجلسه

(١) المقريزي: خطط، ج ٢، ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨.
(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ١٢٧.
(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٢.

صواني الذهب مصفوفة، وفيها الأواني المملوءة بالجوهر، فإذا أمر جعل ما في الآنية على الصينية فيملؤها، ويجعل بدله الشراب(١).

ح ـ وسائل التسلية:

كان سباق الخيل من أحب ألوان التسلية عند الخلفاء والولاة وكبار رجال الدولة في العصر الفاطمي. وقد أباح الفقهاء هذا اللون من الرياضة، على ألا يكون وسيلة للحصول على المال، لما فيه من تهيئة الناس لركوب الخيل عند وقوع الحرب. وبلغ من شغف الناس أن كان الفائز يستولي في بعض الأحيان على الحصان المسبوق(٢).

كما اشتهرت لعبة الشطرنج بين الناس، فكانوا يلعبون على قطعة مربعة حمراء من أدم(٣).

كذلك كان النرد من الألعاب التي اعتاد الناس أن يتلهوا بها. ويستعمل في اللعب به ثلاثون حجراً وفصان، على رقعة رسم اثنا عشر منزلاً أو أربعة وعشرون منزلاً.

وقد أولع بعض الخلفاء الفاطميين بالصيد ولعاً شديداً، فكان الخليفة العزيز مشغوفاً بجوارح الطير الغريبة، وجلب لذلك الطيور والحيوانات من السودان وكان محباً للصيد، وخاصة صيد السباع(٤).

كذلك اهتم الفاطميون بعرض الخيل قبل سيرها في المواكب، فيجلس الخليفة على مرتبة عالية في الشباك في المبنى المعروف باسم السدلى(*) ويجلس

---

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص ٥٨.
(٢) متز: الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ٢١٥.
(٣) المسعودي: مروج الذهب، ج ٢، ص ٥٢١ ـ ٥٢٢.
(٤) المقريزي: خطط، ج ١، ص ٤٧٧.
(*) هو بناء مغلق من ثلاث جهات ومفتوح من الجهة الرابعة التي قد يوضع فيها حاجز من حديد. المقريزي: خطط، ج ١، ص ٤٧٧.

الوزير على كرسي كبير تحت الشباك. فإذا استقر في جلوسه رفع كل من زمام القصر وصاحب بيت المال الستر من جانبه، فيشاهد الحاضرون الخليفة وهو جالس في الشباك في أتم أبهة وأعظم هيئة. عند ذلك يقف الوزير ويسلم على الخليفة بأن يلمس بيديه الأرض ثلاث مرات، فيأمره الخليفة بالجلوس على كرسيه، ثم يستفتح قراء الحضرة بآيات قرآنية تناسب المقام، ثم يسلم سائر رجال الدولة على الخليفة الذي يأخذ في عرض الخيول والدواب(١).

كما كان اللعب بالتماثيل والسماجات معروفاً في هذا العهد، فيخرج الناس في بعض الأعياد ويطوفون شوارع القاهرة، واحترف بعضهم التقليد والمحاكاة، وبلغ من حذق بعض الناس المحاكاة أنهم كانوا يقلدون طوائف السكان على اختلاف نزعاتهم وأجناسهم. وكان الناس يقبلون على سماع نوادرهم(٢).

وكانت المجالس الاجتماعية تعقد في قصور الخلفاء والوزراء والأعيان حيث يجتمع العلماء والأدباء للمناظرة والمناقشة. كما كانت المجالس الخاصة تعقد في داخل المنازل لسماع النوادر والأحاديث التي تتجلى فيها اللباقة العقلية(٣).

إن ولع الخلفاء الفاطميين دفعهم إلى إنفاق الكثير، وزادوا في البذخ حتى انتهى حكمهم وقد كان القصد من ذلك العمل على نجاح أعمالهم السياسية الدينية وأن في اشتراك جماعات كبيرة في الاحتفال بتلك الأعياد، وفي الأبهة والعظمة التي كانت تنطق عن نفسها في مواكبهم الملكية وولائمهم الضخمة وهباتهم الوفيرة من الملابس والنقود والطعام التي ينال منها كل الأهلين تقريباً والجماعات الغفيرة التي كانت تجتمع تحت المنظرة وتترقب التيمن بالخليفة

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٥٠٥ والمقريزي: خطط، ج ١ ص ٤٤٧.
(٢) المقريزي: خطط، ج ١ ص ٢٠٧.
(٣) متز: الحضارة الإسلامية، ج ٢ ص ٢١٤ ـ ٢١٥.

المقدس، إن في هذا كله لدليلاً محسوساً على مبلغ نجاحهم في سياستهم غير أن ذلك النجاح وما يتطلبه صار عبئاً ثقيلاً مع الأيام، حتى أدى إلى سرعة انحلال خلافتهم وسقوطها.

رابعاً ـ المرأة في العصر الفاطمي

لم يظهر بين طبقة العامة في العصر الفاطمي نساء كان لهن أثر في الحياة السياسية أو في ترقية المجتمع، بل كان النشاط في هذه النواحي محصوراً في نساء الخلفاء والأمراء، وغيرهن من نساء الطبقة الحاكمة التي احتلت مكانةً كبيرةً في الدولة الفاطمية، فكن يتدخلن في شؤون الدولة، كما اشتهر كثير منهن بالثراء والبذخ. فقد ذكر المقريزي أن تغريد زوجة الخليفة الفاطمي المعز كانت تملك ثروة ضخمة، أنفقت قسماً كبيراً منها على بناء مسجدها بالقرافة في سنة ٧٦٦هـ ـ ٧٦٧هـ (١٣٦٧ ـ ١٣٦٨م)، قام برسم المسجد الحسن ابن عبد العزيز الفارسي المحتسب، وتولى زخرفته ونقشه جماعة من الفنانين من أهل البصرة فجاءت نقوشه في غاية الإبداع.

كما بنت هذه السيدة قصراً فخماً في القرافة يسر الناظرين، ويتردد عليه أهله طلباً للراحة. وكان بهذا القصر قنطرة مقامة على قبو يستظل به المسافرون من الشمس[١].

ويقول المقريزي: كان للمعز ابنتان تركتا ما يعد ولا يحصى من الأموال والذخائر[٢].

وتزوج الخليفة العزيز من مسيحية على المذهب الملكاني، فولدت له ابنه

---

(١) المقريزي: خطط، ج ١، ص ٤٨٦.

(٢) «تركت ابنة المعز الرشيدة ما يقرب من مليون ونصف من العملة الذهبية. وتركت ابنته عبدة كثير من خزائن الحلي والصناديق التي تحتوي على خمسة أكياس من الزمرد، وثلاثمائة قطعة فضية، وثلاثين ألف ثوب صلى..» ـ المقريزي: خطط، ج ١، ص ٤١٥.

الحاكم وابنته ست الملك، وكان لها أخوان رفعهما العزيز إلى رتبة بطريق عين واحداً منهما على بيت المقدس والآخر على الإسكندرية.

وكان لهذه السيدة نفوذ عظيم على العزيز، فقد حملته على انتهاج سياسة التسامح مع المسيحيين والمشاركة في أعيادهم وإعادة بناء ما تهدم من كنائسهم[١].

وقد امتازت ست الملك بالكرم والحلم والتسامح الديني، فقد استطاعت بحزمها ورجاحة عقلها أن تحمل الخليفة العزيز على العفو عن عيسى بن نطورس عندما أمر بالقبض عليه وسجنه[٢].

وعندما شعرت ست الملك أن أخاها الحاكم ينتقد مسلكها ويحد من حريتها تآمرت على قتله مع سيف الدولة بن داوس أحد شيوخ كتامة[٣].

ويصف المقريزي ثروة ست الملك فيقول: «كانت ضخمة اشتملت على ثمانمائة جارية، وثمان جرات ملأى بالمسك. وكثير من الأحجار الكريمة، وكانت مخصصات هذه الأميرة السنوية خمسين ألف دينار[٤].

ومن النساء اللاتي اشتهرن في هذا العصر زوجة الظاهر، وكانت أمة سودانية تزوجها الخليفة فأنجبت المستنصر واشتهرت بالعطف على أبناء جلدتها السودانيين الذين كثر عددهم وازداد بطشهم في عهد المستنصر، حتى بلغ عددهم خمسين ألفاً، مما أدى إلى تنافس بينهم وبين الأتراك كان له أسوأ الأثر في حالة مصر الداخلية[٥].

أما الخليفة الحاكم بأمر الله فقد عامل النساء بالقسوة والعنف، وأصدر في

---

(١) يحيى بن سعيد الإنطاكي: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق. . ص ١٤٤ ـ ١٤٥.
(٢) أبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم، ص ١٨٧.
(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ١٨٦ ـ ١٨٧.
(٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٧ وانظر المقريزي: خطط، ج ١، ص ٤١٥.
(٥) د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٦٢٥ ـ ٦٢٦.

سنة ٣٩٥هـ ـ ١٠٠٨م قانوناً منع فيه ظهورهنَّ سافرات[١]، وألا يتبعن الجنائز أو يظهرن للناس في حالة منافية للآداب والحشمة، كما حرم عليهن دخول الحمامات دون إزار[*].

والحق أن الدافع وراء إصدار هذه القوانين أن كثيراً من النساء انغمسن في هذا العصر في حمأة الملاهي والرذائل، وأكثرن من خروجهن في الليل. ولهذا يقول ابن خلكان: «إن النساء قبعن في بيوتهن سبع سنوات».

وقد ذكر الذهبي أن الحاكم أمر بمنع النساء من الخروج من المنازل ومن الظهور في أعلاها، ومن دخول الحمامات العامة، كما منع أيضاً صانعو الأحذية من صنع أحذية خاصة بهن، وزاد على ذلك أنه فرض شروطاً خاصة بوفاة المرأة: «فإذا ماتت امرأة جاء وليها إلي قاضي القضاة يلتمس غاسلة، فيكتب إلى صاحب المعونة، فيرسل غاسلة مع اثنين من عنده، ثم تعاد إلى منزلها»[٢]. ولعل ما فرضه الحاكم من تضييق للحرية يقع في كثير من الأحيان على عاتق النساء أنفسهن.

---

(١) يحيى بن سعيد: التاريخ المجموع، ص ٢٠٨.

(*) إزار وتعني تستر. وانظر المقريزي: خطط، ج ٢، ص ٨٥.

(٢) الذهبي (٧٤٨هـ/ ١٣٤٩م): الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد: تاريخ الإسلام. مخطوط في المكتبة الملكية بالقاهرة رقم ٤٢ ، ورقة ١٤٧ أ.

الحياة الثقافية
في العصر الفاطمي

ازدهرت الحياة الثقافية في العهد الفاطمي ازدهاراً يدعو إلى الإعجاب بفضل كثرة التآليف والترجمة، وتشجيع الخلفاء والأمراء، رجال العلم والأدب. بالإضافة إلى ظهور كثير من الفرق التي اتخذت الثقافة والعلم وسيلة لتحقيق غاياتها السياسية والدينية، وخير مثال لذلك الآثار التي خلفها المعتزلة ودعاة الإسماعيلية من العلماء والمتصوفين وغيرهم، وكان للجدل والنقاش الذي قام بين هذه الفرق من ناحية وبينها وبين العلماء من السنيين من ناحية أخرى، أثر بعيد في هذه النهضة العلمية التي يتميز بها العصر الفاطمي.

أولاً ـ مراكز الثقافة في مصر في العصر الفاطمي

أ ـ الأزهر:

بدأ الأزهر كغيره من المساجد لإقامة الشعائر الدينية، فكان مركزاً لفقهاء المذهب الشيعي يحاضرون الناس في عقائد المذهب الإسماعيلي، وقد ظهرت فكرة الدراسة به في أواخر عهد المعز لدين الله الفاطمي حين قام قاضي القضاة أبو الحسن علي بن النعمان المغربي بشرح كتاب «الاقتصار» الذي وضعه أبوه،

ويشتمل على مسائل فقهية استمدها من أئمة أهل البيت[١].

وفي أوائل عهد العزيز باللَّه جلس الوزير يعقوب بن كلس[*] بالجامع الأزهر وقرأ على الناس رسالة ألفها في الفقه الشيعي على المذهب الإسماعيلي تسمى الرسالة الوزيرية، تضمنت ما سمعه في ذلك من الخليفة المعز وولده العزيز. وكان يفد إلى سماعه الفقهاء والقضاة وأكابر رجال الدولة. وصار ابن كلس يعقد مجالسه العلمية تارة بالجامع الأزهر وطوراً بداره، يقرأ فيها مصنفاته على الناس.

وفي سنة ٣٧٨هـ ٩٩١م أشار الوزير يعقوب بن كلس على الخليفة العزيز بتحويل الأزهر إلى جامعة تدرس فيها العلوم الدينية والعقلية، فأصبح الأزهر مثابة علمية فاقت شهرته جميع المساجد الجامعة في مصر واستأذن ابن كلس الخليفة في أن يعين بالأزهر بعض الفقهاء للقراءة والدرس، على أن يعقدوا مجالسهم بهذا الجامع في كل جمعة من بعد الصلاة بعد العصر، فرحب العزيز بذلك ورتب لهؤلاء الفقهاء أرزاقاً شهرية ثابتة، وأنشأ لهم داراً للسكن بجوار الأزهر[٢].

ورغب الخلفاء الفاطميون في جعله من الأهمية وعظم الشأن بحيث يجتذب طلاب العلم من كافة أرجاء البلاد الإسلامية. ولكي يشجع الطلاب وطنيين وأجانب، كان يقدم إليهم المأكل والمسكن وكل ما يوفر عليهم وسائل المعيشة وأسباب الراحة من غير أجر[٣].

وظل الأزهر مركز الفقه الفاطمي إلى أن بني جامع الحاكم بأمر الله، فانتقل إليه الفقهاء لإلقاء دروسهم.

---

(١) متز: تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٢٣٠.

(*) يعقوب بن كلس هو يهودي من أهل بغداد، وزير الخليفة العزيز الفاطمي اشتهر بإدارته المالية. أسلم وأصبح حجة في العلوم الإسلامية.

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٥٣٦.

(٣) المرجع نفسه، ص ٤٢٧.

ب ـ المكتبات:

اهتم الفاطميون بإنشاء المكتبات وتزويدها بعدد من الكتب التي تتناول شتى فروع العلم، فألحقوا بالقصر الشرقي الكبير مكتبة فاقت كل المكتبات الإسلامية بما في خزائنها من كتب قيمة.

كانت مكتبة القصر تضم أربعين خزانة كتب في سائر العلوم، وتحتوي كل خزانة على عدة رفوف، والرفوف مقطعة بحواجز، وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على مائة ألف مجلد في الفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة والحديث والتاريخ وسير الملوك والفلك والكيمياء[١].

وقد وصف المؤرخ أبو شامة مكتبة القصر فقال: «لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التي كانت في القاهرة في القصر. ومن عجائبها أنه كان فيها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري، ويقال أنها كانت تشتمل على ستمائة ألف كتاب، وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة»[٢].

وقد سعى الفاطميون من جمع أكثر ما يمكن الحصول عليه من نسخ كتاب واحد، حتى لا يتاح لأية مكتبة أخرى اقتناء هذه الكتب.

وكان تجار الكتب يعرضون على موظفي مكتبة القصر أندر الكتب التي يعثرون عليها. ويذكر المقريزي أن رجلاً أحضر إلى العزيز بالله نسخة من تاريخ الطبري، كان قد اشتراها بمائة دينار، فأمر الخليفة خازن المكتبة أن يحصل على نسخ أخرى من هذا الكتاب، فأخرج من الخزائن ما يزيد عن عشرين نسخة، منها نسخة بخط الطبري نفسه، وذكر عنده أيضاً كتاب الجمهرة لابن دريد، فأحضر في الحال أكثر من مائة نسخة منه، كما كان بخزانة العزيز ما يزيد على

---

(١) المقريزي: خطط، ج ١ ص ٤٠٩.
(٢) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج ١، ص ٢٠٠.
وانظر أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٤٨٢.

ثلاثين نسخة من كتاب العين للخليل بن أحمد(١).

وكان من عادة الخليفة الفاطمي إذا زار مكتبة القصر الشرقي أن يأتي راكباً ثم يترجل ويأخذ مجلسه فوق دكة منصوبة، ويمثل بين يديه خازن المكتبة ويأتيه بمصاحف مكتوبة بأقلام مشاهير الخطاطين، ويعرض عليه ما يقترح شراءه من الكتب أو ما يريد الخليفة حمله لقراءته في مجلسه الخاص(٢).

فقدت مكتبة القصر الفاطمي عدداً غير قليل من الكتب القيمة التي كانت بها نتيجة المصائب والبلايا التي حلت بالدولة الفاطمية في عهد الخليفة المستنصر (٤٢٧هـ ـ ٤٨٧هـ) (١٠٣٧ ـ ١٠٩٧م) فاستولى الجند والأمراء على الكثير مما في خزانة الكتب(٣).

وعلى الرغم من ذلك استطاع الفاطميون أن يعيدوا إلى هذه المكتبة شيئاً من سابق عظمتها وروائها، إما بإعادة بعض كتبها التي ضاعت في هذه المحن أو بإضافة كثير من الكتب الجديدة حتى أصبح في قصر العاضد آخر الخلفاء الفاطميين مكتبة كبيرة(٤).

ج ـ دار العلم:

ومن مراكز الثقافة الفاطمية بمصر دار الحكمة التي أنشأها الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥هـ (١٠٠٨م) وأطلق عليها هذه التسمية رمزاً إلى الدعوة الشيعية التي كانت تسمى مجالسها بمجالس الحكمة. فالتحق بها عدداً من القراء والفقهاء والمنجمين والنحاة واللغويين والأطباء، وقد زود الحاكم هذه الدار بمكتبة عرفت باسم دار العلم، حوت الكثير من الكتب في سائر العلوم. وفي ذلك

---

(١) المقريزي: خطط، ج ١، ص ٤٠٨.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٠٩.

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٥٩.

(٤) زكي حسن: كنوز الفاطميين، ص ٢٩.

يقول المقريزي: «وحصل في هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التي أمر بحملها إليها من سائر العلوم والآداب ما لم يُر مثله مجتمعاً لأحد قط من الملوك، وأباح ذلك لسائر الناس على طبقاتهم، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ومنهم من يحضر للنسخ ومنهم من يحضر للتعلم، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر».

وقد اختلفت مناهج التعليم في دار الحكمة عن مناهج التعليم بالمساجد الفاطمية المعاصرة، إذ كانت تغلب عليها الصفة العلمية، بينما كانت تغلب على مناهج المساجد الصبغة الدينية. ومن أشهر اساتذة دار الحكمة ابن يونس المنجم، وأبو علي الحسن بن الهيثم، وعلي بن رضوان[(١)].

وقد استطاعت دار الحكمة بفضل هؤلاء الأساتذة وما كان لها من مناهج متنوعة جمعت بين العلوم النقلية أو الشرعية والعلوم العقلية أو الحكمية[(٢)] أن تجتذب كثيراً من أعلام المشرق، من أمثال الرحالة الفارسي المستنصر بالله الفاطمي.

ظلت دار العلم مفتوحة ينتفع الجمهور بما فيها من الكتب إلى سنة ٥١٦هـ حيث أمر الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي بإغلاقها بسبب ما وصل إليه من أن رجلين يعتنقان عقائد الطائفة المعروفة بالبديعية التي يدين أتباعها بمذاهب السنة الثلاثة وهي الشافعي والحنفي والمالكي يترددان على دار العلم. وأن كثيراً من الناس أصغوا إليهما واعتنقوا هذا المذهب لكن فترة إغلاق دار

(١) المقريزي: خطط، ج ١، ص ٤٥٨، وج ٢، ص ٣٤٢.

(٢) خطاب عطية: التعليم في مصر في العصر الفاطمي، ص ١٥٩.

● العلوم الشرعية وهي: علم التفسير، علم القراءات، علم الحديث، علم الفقه، علم الكلام، والنحو، واللغة والبيان والأدب.

● العلوم الحكمية وهي: الفلسفة، الهندسة، علم النجوم، الموسيقى، الطب، السحر، الكيمياء، الرياضيات، التاريخ، الجغرافيا.

العلم لم يدم طويلاً، فقد عادت إلى ما كانت عليه في عهد الخليفة الآمر[١].

د ـ قصور الخلفاء والوزراء:

كان من شدة ولع الخلفاء الفاطميين ووزرائهم بتشجيع الحياة الثقافية، أن أصبحت قصورهم من مراكز الحركة العلمية في مصر، ففتح الخليفة المعز لدين الله أبواب قصره للعلماء والطلاب، وأباح لهم جميعاً الاطلاع على الكتب المختلفة بمكتبة القصر، وحذا الخلفاء من بعده حذوه، ففي سنة ٤٠٣هـ ١٠١٣م عقد الحاكم بأمر الله في قصره مجلساً من مشاهير العلماء في الرياضة والمنطق والفقه والطب وغيرها من العلوم، فتناظروا في شتى المسائل. وعند انتهاء المجلس منح الخليفة لهؤلاء العلماء الخلع والجوائز[٢].

كما جعل الوزير ابن كلس قصره ملتقى القضاة والفقهاء وأساتذة القراءات والنحاة وعلماء الحديث وكبار رجال الدولة من أصحاب المواهب الممتازة، وكان يتقدم إليه الشعراء حين ينتهي الاجتماع فينشدونه مدائحهم.

أضف إلى ذلك كان يوجد في قصره عددٌ كبيرٌ من الموظفين يشتغل بعضهم بكتابة نسخ من القرآن، وبعضهم ينسخ شيئاً من كتب الحديث والفقه والأدب وبعض كتب العلوم حتى الطب، وكان هؤلاء النساخ يراجعونه ويكتبونه، ويضيفون إليه علامات الشكل والنقط.

وأجرى ابن كلس على القراء والأئمة في قصره الرواتب الخاصة، ووكل إليهم إقامة الصلاة في المسجد الذي بناه.

وكان الفقيه الحسين بن عبد الرحيم الملقب بالزلازلي، صاحب كتاب الأسجاع من رواد مجلس هذا الوزير[٣].

---

(١) المقريزي: خطط، ج ١، ص ٤٥٩.

(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٦١ ـ ٢٧٥.

(٣) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٤٢٦.

ثم قصر الوزير محمد بن جعفر الذي احتوى على مكتبة جذبت إليها رجال العلم والأدب ويذكر شاهد عيان: «أن الوزير أبا الفرج محمد بن جعفر المغربي نقل إلى مكتبته من خزائن القصر في المحرم سنة ٤٦١هـ ـ ١٠٧١م حمولة خمسة وعشرين حملاً مدخرة كتباً بلغت قيمتها أكثر من مائة ألف دينار»(١).

إن المجالس والمناظرات التي كانت تعقد في قصور الخلفاء والوزراء لم تكن تقل في قيمتها التعليمية عن الدروس التي تلقى بالجامع الأزهر أو بدار الحكمة.

ثانياً ـ العلوم التي اشتغل بها الفاطميون

أ ـ التفسير:

اتخذ الفاطميون التفسير وسيلة لنشر مبادئهم ولجئوا إلى التأويل غير المشروع، أي الذي لا يوافق العقائد الإسلامية. فنراهم يفسرون قوله تعالى (الشمس والقمر بحسبان)(٢) أن الشمس والقمر هما الحسن والحسين، وأن إبليس وآدم المشهوران في القرآن هما أبو بكر وعلي، إذ أمر أبو بكر بالسجود لعلي والطاعة له فأبى واستكبر(٣).

وهكذا دفعهم التعصب إلى ارتكاب مغالطات في التفسير جعلت جهودهم في هذا الميدان لا قيمة لها ولا معنى.

ب ـ اللغة والنحو

نبغ في العصر الفاطمي عدد كبير في اللغة والنحو كان أشهرهم أبو عبد الله بن جعفر التميمي القيرواني الذي طلب منه الخليفة العزيز تأليف كتابٍ «يجمع فيه الحروف التي ذكر النحويون أن الكلام كله اسم وفعل وحرف جاء

---

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٤٢٨.
(٢) القرآن: سورة الرحمن رقم ٥٥، آية ٥.
(٣) الغزالي: فضاح الباطنية (نشرة جولدتسيهر ـ ليدن سنة ١٩١٦) ص ١٣.

لمعنى، وأن يقصد في تأليفه إلى الحرف الذي جاء لمعنى، وأن يجري ما ألفه من ذلك على حروف المعجم»[١]. وقد تم وضع هذا الكتاب بما يزيد على ألف ورقة. ثم أبو الطاهر النحوي وكان يتولى ديوان الشام في عهد الخليفة الحاكم[٢].

ومن علماء هذا العصر أبو الفضل جعفر الذي أعجب به الخليفة الحاكم ولقبه «عالم العلماء»، وخلع عليه، وأقطعه إقطاعاً، وأوكل إليه تدريس اللغة والنحو في دار العلوم وكان مرجع الخليفة في كثير من مسائل الدولة[٣]. وأبو الحسن علي بن إبراهيم النحوي الذي كان عالماً باللغة والتفسير وضع عدة مؤلفات في اللغة والنحو كان أشهرها كتاب إعراب القرآن، ويقع في عشر مجلدات[٤].

ج ـ الأدب:

كانت الدعوة الفاطمية تقوم على مذهب يحتاج دعاته والقائمون به إلى نصيب من التعليم غير يسير. فاحتاجت هذه الدولة إلى قوة البنيان تضيفها إلى قوة الأجناد والأعوان، وقد تم لها ذلك قبل أن تطأ أقدام جيوشها أرض مصر. فكان لهم شعراء يتغنون بمفاخرهم وينظمون القصائد في مآثرهم، لما كانوا يغدقونه عليهم من العطايا الجزيلة والخلع والجوائز والأرزاق. ولقد دفعت الرغبة في الحصول على هذه المنح والهبات بالشعراء من أهل السنة إلى محاكاة الشعراء الشيعيين فاتصل بعضهم ببلاط الخلفاء الفاطميين مثل أبو القاسم محمد ابن هانىء[*] الذي أسف عليه الخليفة المعز عندما علم بوفاته وقال: «هذا

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٩.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ٥٩ ـ ٦٠ وصفحة ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

(٣) ابن حجر: رفع الإصر عن قضاة مصر (مخطوط) ورقة ٤٣.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٤٦٢.

(*) هو أبو القاسم بن هانىء الملقب بأبي الحسن من قبيلة أزد، ولد في إشبيلية في بلاد الأندلس=

الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك»[١].

ويظهر أن ابن هانىء أصبح شيعياً متحمساً لهذا المذهب استدراراً لكرم الفاطميين، لا حباً في عقائدهم واستمساكاً بها، حتى لقد ذهب به هذا التحمس إلى أن ينسب لحسامه من صفات التشيع ما نسبه لنفسه حين قال:

لي صارم وهو شيعي كحامله ... يكاد يسبق كراتي إلى البطل
إذا المعز معز الدين سلطه ... لم يرتقب بالمنايا مدة الأجل[٢]

ومن الشعراء الذين لمعوا في هذا العصر كان أبو حامد من أهل انطاكيا، وكان من مشهوري الشعراء وصفه الثعالبي بأنه «هو نادرة الزمان وجملة الإحسان.. هو أحد المداح المجيدين والشعراء المحسنين، وهو بالشام كابن حجاج بالعراق». من إحدى قصائده في مدح العزيز:

لَم يدَعْ للعزيز في سائر الأر ... ض عدواً إلا وأخمدَ نارَهْ
قد أقلَّتْ عن العزيز، عُداه ... بالعطايا وكَثَّرَتْ أنصارَه[٣]

إن تشجيع الفاطميين للأدب والشعر، دفع الكثير من الشعراء إلى هجرة أوطانهم والاستقرار في مصر طمعاً بسخاء الخلفاء الفاطميين ورجال بلاطهم.

يذكر لنا أحد المؤرخين أن الفقيه والأديب والشاعر عبد الوهاب بن نصر المالكي اضطر أن يترك بغداد إلى مصر، وفي يوم رحيله خرج كبار رجال القوم

= وكان أبوه من قرية من قرى المهدية شمالي إفريقية (تونس الآن) وقد انهمك أبو القاسم في الملذات واتهم بمذهب الفلسفة، فنقم عليه أهل الأندلس مما اضطره إلى الرحيل إلى أفريقية حيث التقى القائد جوهر ومدحه ثم اتصل بالخليفة المعز الذي أعجب به وبالغ في الإنعام عليه، ومات في ظروف غامضة في ٢٣ رجب سنة ٣٦٢هـ (٣٠ نيسان ٩٧٣م).

ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٤٣٧ ـ ٤٣٨. وانظر ياقوت: إرشاد، ج ٧، ص ١٢٦.

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٥.

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية. ص ٤٤١، وانظر ديوان ابن هانىء، ص ١٨٢.

(٣) الثعالبي: يتيمة الدهر، ج ١، ص ٢٧٨.

يودعونه فقال هذا الفقيه والشاعر الكبير معبراً عما كان يشعر به من ألم الفراق، إنه ما فارق بغداد عن كُرْهٍ لها، بل لأن الأرزاق فيها لم تساعفه. . ولو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداء وعشية، ما عدلت عن بلدكم لبلوغ أمنية»(١).

لا مجال للشك أن هجرة ابن نصر تؤكد أن الشعراء لم يلقوا أي تشجيع من الخلفاء العباسيين في بغداد فعاشوا في فقر وحرمان وليس أدل على ذلك من شعره الذي قال فيه:

بغداد دار لأهل المال طيبة ... وللمفاليس دار الضنك والضيق

أصبحت فيها مضاعا بين أظهرهم ... كأنني مصحف في بيت زنديق(٢)

أصبحت مصر في العصر الفاطمي ملاذ الشعراء يلجأون إليها رغبة في التمتع بتعضيد الخلفاء الفاطميين ووزرائهم وغيرهم من كبار رجال الدولة، وتحدثنا كتب مراجع الأدب أن مائة شاعر قاموا برثاء الوزير يعقوب بن كلس، وأن جميعهم أجيزوا بما شجعهم وتمادى لهم في الإنشاء والابتكار لذلك لا نعجب إذا سمعنا أن جملة الأقلام وحذاق النظم بدأوا يوجهون أنظارهم شطر مصر لينهلوا منها ما يروي الصدى ويبرِّد الغليل.

ولم تكن عناية الفاطميين للأدباء أقل من الشعراء فتركت لنا هذه الفترة زخماً من الكتب نذكر منها على سبيل المثال: «ديوان الشريف الرضي» المتوفي سنة ٤٠٦هـ ـ ١٠١٦م، والرسائل التي يطلق عليها «رسائل الحاكم بأمر الله والقائمين بأمر دعوته»، كتبها في سنة ٤٠٨هـ (١٠٠٨ ـ ١٠٠٩م) كثير من الدعاة تحت إشراف الخليفة الحاكم ٣٨٦ ـ ٤١١هـ (٩٩٩ ـ ١٠٢١م).

د ـ الفلسفة:

إن تعصب الفاطميين لمذهب شيعي له أسس ودعائم تخالف ما كان عليه

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣٨٢.

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية. ص ٤٤٧.

أهل السنة في مصر أدى إلى ظهور فريقين من الفلاسفة، يعمل أولهما على تأيدهم، ويفند الآخر آرائهم[١]. واستتبع ذلك نشاط علماء الدعوة الفاطمية في تأليف الكتب وكان لأبي حنيفة النعمان المغربي[*] وأبناءه وهم جميعاً من كبار رجال القضاء والأدب الفضل الأكبر في نشر الثقافة المذهبية التي تتصل بالدعوة الإسماعيلية.

وقد عاصر أبو حنيفة الفاطميين بالمغرب، وكان مالكي المذهب كسائر أفراد عائلته ثم تحول إلى المذهب الإسماعيلي وقدم إلى مصر هو وأبناؤه في ركب المعز. ويعد النعمان من أهم دعائم الدعوة الإسماعيلية، وله في الفقه الإسماعيلي عدة مؤلفات منها: «دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام». وقد استغل النعمان ميوله المذهبية في تأليف هذا الكتاب، حتى أننا نراه يضيف إلى قواعد الإسلام الخمس الولاية وهي حب أهل البيت، والطهارة[٢]. وكان دعاة الإسماعيلية يرجعون إلى كتاب دعائم الإسلام في أحكامهم، ونهج الوزير يعقوب بن كلس في كتابه «مصنف الوزير» منهج كتاب الدعائم، وأشاد بذكر هذا الكتاب حميد الدين الكرماني داعي الحاكم بأمر الله في فارس، في كتابه «راحة العقل» حتى جعله في المرتبة التي تلي القرآن والحديث. وكان المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي يقرأ كتاب الدعائم في مجالسه، وفي ذلك يقول: «وكان بناء المجالس التي تعقد بحضرته في ليالي الجمعات على أن يبتدىء بقراءة شيء من قوارع القرآن، ومن كتاب (دعائم الإسلام)»[٣].

ثم جعفر بن منصور بن حوشب الذي تمتع بمركز رفيع في الدولة الفاطمية في المغرب ثم مصر، وكان موضع تقدير الخلفاء الفاطميين ومحبّتهم

---

(١) أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج ١، ص ١٨٨.

(*) كان الإسماعيلية يسمونه أبو حنيفة النعمان «سيدنا القاضي النعمان» ليميزوا بينه وبين أبي حنيفة النعمان صاحب المذهب الحنفي المشهور.

(٢) H. Hamdani. (J.R.A.S), 1933, p. 369

(٣) المؤيد، السيرة المؤيدية، ص ٦٢.

ومن أشهر آثاره العلمية كتاب «تأويل الزكاة» ومنه نقف على غلو الإسماعيلية في تأويلهم، حتى لقد ذهب هذا الفقيه الإسماعيلي إلى تأليه الأئمة، مؤيدا في ذلك النظرية الإسماعيلية التي تقول: «من عرف إمام زمانه عرف ربه». كما ألف جعفر بن منصور كتاب «سرائد النطقاء» الذي يرد فيه على الموسوية الاثنا عشرية، فينقض آراءهم في وضوح ودقة. ويعتبر هذا الكتاب من أهم المراجع التي تصدت لبحث تاريخ فرق الشيعة، وقد اتخذته الطائفة الإسماعيلية أساساً للرد على مخاليفهم[١].

ومن فلاسفة هذا العصر حميد الدين احمد بن عبد الله الكرماني، وكان من دعاة الفاطميين في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله، ويلقب بحجة العراقيين. وقد ترك هذا العالم عدداً كبيراً من المؤلفات أشهرها كتاب «راحة العقل» الذي يدل على تبحر المؤلف في الفلسفة وإحاطته بشاردها وواردها. والفاحص لهذا الكتاب، يتبين بوضوح أن مؤلفه لم يهدف إلى دراسة المذهب الإسماعيلي فحسب، بل أنه عرض لكثير من المشكلات التي تدور عليها مباحث المتكلمين ومناهجهم، ومناهج الفلاسفة ومذاهبهم. ولهذا اعتبر الكرماني شيخ فلاسفة الإسماعيلية[٢].

وعلى الرغم من تعصب الفاطميين لمذهب الإسماعيلية وتشجيعهم فقهاءه فقد ظهر في عهدهم بعض الفقهاء الشافعية والمالكية والحنفية نخص بالذكر منهم أبا بكر محمد الثعالبي المالكي المتوفي سنة ٣٨٠هـ ـ ٩٩٣م وكانت حلقته بجامع عمرو بن العاص، تدور على سبعة عشر عموداً لكثرة من يحضرها[٣]. وكان فقهاء المذهب السني في مصر يستنكرون تعاليم الفاطميين ولكنهم لا يستطيعون الجهر بذلك.

---

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٤٨٥ ـ ٤٨٦.

(٢) الكرماني: راحة العقل. ص ١١ و١٧.

(٣) أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج ١، ص ١٩٧.

هـ ـ الطب :

اهتم الفاطميون بالطب وأغدقوا على الأطباء الأموال وأجزلوا لهم المنح، وقلدوهم المناصب العالية، وأصبحت لهم منزلة رفيعة بين رجال البلاط. وكان من مستلزمات الطبيب أن يكون ملماً بعلوم الفلسفة واللغات الأجنبية، وخاصة السريالية واليونانية، بجانب إلمامه بالطب.

ومن الأطباء الذين نبغوا في هذا العصر كان أبو الحسن علي بن رضوان وهو مصري المولد من الجيزة. وقد نشأ فقيراً معدماً، وأصبح بفضل جده واجتهاده رئيس الأطباء في البلاط الفاطمي. وتدل الكتب التي ألفها في الطب على سعة فكره واطلاعه، كما كان له كتبٌ في الفلسفة والمنطق وغيرهما من علوم الحكمة[١] وكان علي بن رضوان مجدداً في صناعته، فلم يعمد في مؤلفاته إلى نقل وشرح كتب من كان قبله من الأطباء، بل كانت له ناحية خصبة من التفكير والابتكار، وظل طيلة حياته في كفاح وعمل متصل إلى أن توفي حوالى سنة ٤٦٠هـ ـ ١٠٧٠م في خلافة المستنصر بالله الفاطمي[٢].

ثم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سعيد التميمي، نشأ في بيت المقدس، حيث درس الطب وتنقل في كثير من المدن في طلب هذا العلم، وانكب على دراسته حتى نبغ فيه، كما أتقن طريقة تركيب الأدوية ومن أشهر مؤلفاته كتاب «مخلص النفوس» وهو مختصر في معالجة عدد كبير من السموم القاتلة مثل سم الأفاعي والثعابين والعقارب[٣].

و ـ الرياضيات :

نبغ في العصر الفاطمي عدد كبير من الرياضيين من أمثال أبي علي محمد

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، جزءان، القاهرة ١٢٩٩ ـ ١٣٠٠هـ، ج ٢، ص ١٠٥.

(٢) ابن القفطي: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٤٤٣ ـ ٤٤٤.

(٣) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء...، ج ٢، ص ٧٥ ـ ٨٩.

ابن الحسن بن الهيثم، وأصله من البصرة، أتى مصر بدعوة من الحاكم بأمر الله لما بلغه أن له نظرية هامة في توزيع مياه النيل. امتاز ابن الهيثم بغزارة علمه وسعة اطلاعه فكان مصدر حركة فلسفية كبيرة وخاصة في الطبيعيات والرياضيات، وقد ألف نحو مائتي كتاب في الرياضيات والطبيعة والفلسفة ولم يزل مكباً على التأليف حتى توفي سنة ٤٣٠هـ ـ ١٠٤٠م[١].

ز ـ الفلك والنجوم:

اعتمد الفاطميون على الفلك والتنجيم في توجيه سياستهم، ويذكر بعض المؤرخين أنهم اختاروا ابن حوشب لرياسة دعوتهم في بلاد اليمن لأنهم عرفوا من طريق النجوم أنه سيكون له شأن في نشر هذه الدعوة في تلك البلاد[٢].

وذكر المقريزي «أن القائد جوهر لما أراد بناء القاهرة أحضر المنجمين وعرفهم أنه يريد عمارة بلد ظاهر ليقيم بها الجند، وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس بحيث لا يخرج البلد عن نسلهم أبداً. ويقال أن المريخ كان في الطالع عند ابتداء وضع الأساس وهو قاهر الفلك، فسموها القاهرة»[٣].

كذلك اهتم الخليفة الحاكم الفاطمي بعلم النجوم، فأنشأ مرصداً عند سفح جبل المقطم أطلق عليه «الرصد الحاكمي» وأوكل أمر إدارته إلى أبي الحسن علي بن يونس المنجم المصري المتوفي سنة ٣٩٩هـ ١٠٠٧م[٤].

لكن الحاكم بأمر الله ما لبث أن أصدر أمراً في سنة ٤٠٤هـ ـ ١٠١٢م نهى بموجبه دراسة النجوم والفلك، ونفى جميع المنجمين عن البلاد، إلا أن تدخل

---

(١) أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج ١، ص ٢٠٤.
وانظر ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج ٢، ص ٩٣ ـ ٩٨.
(٢) عمارة اليمن: تاريخ اليمن، لندن ١٨٩٢، ص ١٤٠.
(٣) المقريزي: خطط، ج ١، ص ٣٧٧.
(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣٧٥.

قاضي القضاة مالك بن سعيد الفارقي جعلت الحاكم يلغي عقوبة النفي بعد أن أعلنوا توبتهم[١].

ح ـ التاريخ:

كان لتشجيع الفاطميين للعلماء والكتاب أثره في ظهور طائفة كبيرة منهم في مصر، فاشتهر من المؤرخين في هذا العصر أبو الحسن علي بن محمد الشابشتي الذي عمل بخدمة الخليفة العزيز، فولاه خزانة كتبه واتخذه من جلسائه وندمائه، وتوفي في سنة ٣٨٨هـ ـ ١٠٠١م في أيام الحاكم بأمر الله. ومن أشهر مؤلفاته: كتاب «الديارات» أورد فيه أخبار طريفة عن أديرة العراق والجزيرة والشام ومصر، وما قيل في كل منها من الأشعار، وما جرى فيها من حوادث وأمور[٢].

كما نبغ من المؤرخين في هذا العصر الأمير المختار عز الملك محمد بن أبي القاسم المعروف بالمسيحي ولد بمصر سنة ٣٦٦هـ ـ ٩٧٩م وتوفي سنة ٤٢٠هـ ـ ١٠٣٠م وكان من جلساء الخليفة الحاكم بأمر الله وخاصته. وقد تولى في أيامه بعد المناصب الهامة، وشغف بكتابة التاريخ وألف فيه عدة كتب منها تاريخه الكبير المسمى «تاريخ مصر»، وقد نقل عن هذا الكتاب كل من المقريزي وأبي المحاسن[٣].

ومن أعلام المؤرخين أيضاً أبو عبد الله القضاعي الذي ولد بمصر في أواخر القرن الرابع الهجري، وتوفي بها سنة ٤٥٤هـ ـ ١٠٦٤م وكان من أقطاب الحديث والفقه الشافعي. وقد ولي القضاء وغيره من مهام الدولة في عهد

---

(١) يحيى بن سعد الإلأطاكي: التاريخ المجموع. . ، ص ٢٠٠، ٢٠٢ ـ ٢٠٦.
(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج، ص ٤٢٦.
(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٦٥٣ ـ ٦٥٤.
وانظر السيوطي: حسن المحاضرة، ص ٣١٩.

الخليفة المستنصر بالله الفاطمي. من أشهر مصنفاته في الفقه والتاريخ: كتاب «مناقب الإمام الشافعي»، وكتاب «تواريخ الخلفاء»، وكتاب «خطط مصر»، ويظهر أن هذا الكتاب كان عوناً للمقريزي على كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»(١).

ومن مؤرخي العصر الفاطمي أيضاً أبو عبد اللَّه محمد بن سعد القرطبي، وكان مولعاً بالتاريخ، رحل إلى اليمن وبلاد الهند، وصنف كتاب «تاريخ مصر» في عهد العاضد آخر الخلفاء الفاطميين(٢) وأبو القاسم علي بن منجب الصيرفي، الذي كان من أعيان زمانه، تدرج في بعض الوظائف حتى ولي ديوان الإنشاء للخليفة الآمر بأحكام الله. وظل فيه إلى سنة ٥٣٦هـ ١١٤٣م. ومن تصانيفه كتاب «قانون ديوان الرسائل» وكتاب «الإشارة إلى من نال الوزارة» وقد أمدنا هذا المصنف بمادة لا يستهان بها عن تاريخ الفاطميين. وتوفي ابن الصيرفي في عهد الخليفة الحافظ سنة٥٤٢هـ ـ ١١٤٩م(٣). ومن أشهر كتب الرحالة والجغرافيين في هذا العصر كتاب «سفر نامه» لناصر خسرو المتوفي سنة ٤٨١هـ ـ ١٠٩١م وهو كتاب له أهمية في تاريخ الفاطميين لأنه يمدنا بمعلومات صحيحة عن مصر ومبلغ رخائها ووفرة ثروتها في العصر الفاطمي. والحق يقال أن الخلفاء الفاطميين بتشجيعهم للحركة العلمية أوجدوا زخماً من الإنتاج الثقافي الواسع لا يزال محط تقدير وإجلال.

---

(١) أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج ١، ص ٢٠٤.

(٢) ابن سعيد: كتاب المغرب، ص ٨ ـ ٩.

(٣) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج ١٥، ص ٧٨.

الفصل الخامس

ظهور الدعوة الدرزية في العصر الفاطمي

أولاً: نشــأة الــدرزية

ظهر في العصر الفاطمي حركة يقودها بعض المتطرفين من دعاة الإسماعيلية تدعو إلى تأليه الخليفة الحاكم بأمر الله متأثرين بالفرس الذين كانوا يقدسون ملوكهم ويؤمنون بنظرية الحق الملكي المقدس؛ ومن هؤلاء الدعاة حمزة بن علي الزوزني، والحسن بن حيدرة الفرغاني المعروف بالأخرم. ومحمد بن اسماعيل انوشتكين البخاري الدرزي.

يعتبر حمزة بن علي المؤسس الحقيقي للمذهب الدرزي جاء إلى مصر سنة ٤٠٥هـ ١٠١٥م وانضم إلى دعاة الفرس الذين كانوا مرابطون في دار الحكمة التي أسسها الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥هـ ١٠٠٥م. وأخذ ينشر في الخفاء الدعوة إلى تأليه الحاكم ثم ما لبث أن جهر بها بعد أن وجد تشجيعاً من الخليفة الفاطمي نفسه الذي كان كثيراً ما يلتقي به وأصحابه في القرافة ويظهر عطفه عليهم وتودده إليهم ويسألهم عن عدد أنصارهم ومدى النجاح الذي وصلوا إليه[١].

وكان من أثر اهتمام الحاكم بهذه الحركة أن غلا حمزة بن علي في تلقيب

---

(١) يحيى بن سعيد الإنطاكي. . التاريخي المجموع ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

نفسه بألقاب متعددة مثل الإمام والدليل على عبادة الله، والداعي إلى توحيد، الله، والناطق بحق الله، والبرهان على الله. . . وإنه السبيل إلى معرفة مولانا (الحاكم) جل ذكره والطريق إلى توحيده، والحجة إلى عبادته(١). وقد وصف النويري الدور الذي قام به حمزة فقال: «إنه ظهر من دعاة الحاكم رجل يقال له حمزة بن اللباد الأعجمي الزوزني، ولازم الجلوس في المجسد الذي خارج باب النصر، وأظهر الدعاء إلى عبادة الحاكم، وإن الإله حل فيه. واجتمع إليه جماعة من غلاة الإسماعيلية، وتلقب بهادي المستجيبين، وكان الحاكم إذا ركب إلى تلك الجهة، خرج إليه حمزة من المجسد وانفرد به. . .»(٢).

وفي سنة ٤٠٨هـ ـ ١٠١٨م صنف حمزة بن علي كتاباً ذكر فيه أن روح الله سبحانه وتعالى حلت في آدم عليه السلام ثم انتقلت إلى علي بن أبي طالب، وإن روح علي انتقلت إلى العزيز ثم إلى ابنه الحاكم أي أن الحاكم قد أصبح في نظرهم إلهاً عن طريق الحلول(٣).

اتخذ حمزة بن علي عدداً من الخواص لقب بعضهم بسفير القدرة، وجعله رسولاً له. وكان يرسله لأخذ البيعة من الرؤساء على اعتقاده بألوهية الحاكم، ومن هؤلاء الأخرم الذي اشتهر بالجرأة والإقدام، وقد وصفه النويري فقال: «ظهر رجل يقال له حسن بن حيدرة الفرغاني الأخرم، يرى حلول الإله في الحاكم، ويدعو إلى ذلك، ويتكلم في إبطال النبوة. . . فاستدعاه الحاكم وخلع عليه خلعاً سنية، وحمله على فرس مسرجة. . . وركبه في موكبه في ثاني شهر رمضان، فبينما هو يسير في بعض الأيام، تقدم إليه رجل كرخي فألقاه عن فرسه ووالى الضرب عليه حتى قتله، وأمسك الكرخي، فأمر الحاكم بقتله، فقتله

---

(١) كتاب النقط والدوائر وهو من كتب الدرزية، وقد ذيل ببعض رسائلهم. . الرسالة المرسومة ببدء الزمان، الرسالة المرسومة بكشف الحقائق. . نشره سيبولد الألماني سنة ١٣١٩هـ ـ ١٩٠٢م.

(٢) النويري: نهاية الأرب. . مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٦ ورقة ٥٩.

(٣) يحيى بن سعيد الإنطاكي: التاريخ المجموع. . . ص ٢٢٠ ـ ٢٢١.

لوقته. ونهب الناس دار الأخرم بالقاهرة. وكان بين الخلع عليه وقتله ثمانية أيام»[1].

ويقو أبو المحاسن: أن الأخرم قتل بعد أن أثار الفوضى والاضطراب في جامع عمرو بن العاص. فقد ذهب على رأس خمسين رجلاً من أنصار حركة تأليه الحاكم بأمر الله، ودخلوا الجامع راكبين دوابهم، وسلموا إلى القاضي السني بن أبي العوام فتوى صدرت بإسم الحاكم الرحمان الرحيم، مما أثار ذلك حنق المصريين السنيين، فانقضوا عليه وعلى رجاله وفتكوا بهم، فتمكن الأخرم من الهرب، ولكنه قتل بعد قليل[2].

أثار قتل الأخرم إستياء الخليفة الحاكم بأمر الله فأصدر أمراً حرم بموجبه «ألا يركب معه أحد إلا الركابية فقط، ولا يدخل إلى قصره من رؤساء دولته سوى أحد عشر رجلاً أسماهم، وأن يدخل أيضاً الكتاب والقراءون، والأطباء والمؤذنون وخدام القصر، من غير أن يختلف بهم غيرهم من الناس»[3].

بعد قتل الأخرم ظهر محمد بن اسماعيل الدرزي في سنة ٤٠٩هـ ـ ١٠١٩م وكان هذا الداعي قد وصل إلى مصر في سنة ٤٠٨هـ ـ ١٠١٨م حيث رحب به الحاكم وأجزل له العطاء. وقد سلك الدرزي في سبيل تأييد دعوته (ألوهية الحاكم) مسالك شتى، فألف الكتب في ذلك، واستعان بنفوذ الخليفة الحاكم ويقول أبو المحاسن في ذلك: «وقربه وفوض الأمور إليه، وبلغ منه أعلى المراتب، بحيث أن الوزراء أو القواد والعلماء كانوا يقفون على بابه ولا ينقضي لهم شغل إلا على يديه، وكان قصد الحاكم الانقياد إلى الدرزي المذكور فيطيعونه»[4].

---

(١) النويري: نهاية الأرب، مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٦ ورقة ٥٩.

(٢) أبو المحاسن النجوم الزاهرة... ج ٤ ص ١٨٢ ـ ١٨٣.

(٣) المصدر نفسه، ج ٤ ص ١٨٣.

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة... ج ٤ ص ١٨٤.

حذا الدرزي حذو حمزة بن علي في نقل رياسة الدعوى إليه، فكتب إلى ختكين داعي دعاة الإسماعيلية يطلب إليه الانضواء تحت لوائه كما كتب إلى عبد الرحيم بن الياس الذي كان يمثل عقيدة الحاكم التوحيدية وإلى العديد من رجال البلاط والموظفين يدعوهم إلى ذعوته. إلا أن ختكين قاوم هذه الحركة واشترك مع بعض السنين في القضاء عليها وشكا إلى الحاكم جرأة الدرزي وأنصاره وغلوهم، لكن الخليفة الفاطمي لم يأبه لذلك لأنه كان يناصر هذه الدعوى ويعطف عليها لأنها تتفق مع ميوله، بدليل أنه اتخذ جواسيس من النساء يندسن في دور بعض الناس، وكان من واجبهن اكتشاف ما يحدث فيها، ثم تقديم تقاريرهن إليه في اليوم التالي فإذا أصبح الخليفة استدعى أهل هذه الدور للمثول بحضرته وأخبرهم ما حدث في دورهم، كما اتخذ جواسيس عهد إليهم أن يقدموا تقارير مسهبة عن كل ما يحث في الطرقاع، حتى أصبح بعض الناس يعتقدون أنه يعلم بعلم الغيب(١).

ولم يكتف الحاكم بذلك بل سرعان ما ادعى تجسم الإله في شخصه ـ وإن لم يصرح علناً بذلك ـ فقد كان يوافق على آراء أنصاره الذين نسبوا إليه الصفات التي لا يتصف بها إلا الله؛ لهذا اعتقد الناس أن بيده الحياة والموت(٢). ولهذا كان إذا بدا للناس في الطرقات، خروا له سجداً وقبلوا الأرض(٣)؛ ومن أبى ذلك كان نصيبه الموت(٤).

وإذا كانت هذه العقيدة قد ازداد تغلغل نفوذها بين المصريين طمعاً في التقرب من الخليفة الحاكم بأمر الله إلا أنها ما لبثت أن بدأت تنحصر بعد أن أخذ

---

(١) ابن زولاق: فضائل مصر، المكتبة الأهلية بباريس، مخطوط رقم ١٨١٧، ورقة ٥٣، ٥٤، ٥٦.

(٢) المصدر نفسه ورقة ٥٦.

(٣) القطاعي: عيون المعارف وفنون أخبار الخلايف، المكتبة الأهلية بباريس، مخطوط رقم ١٤٩١ ورقة ١٢٧.

(٤) ابن زولاق: فضائل مصر. . . المكتبة الأهلية بباريس، مخطوط رقم ١٨١٧، ورقة ٥٦.

الدرزي في قراءة كتابه الذي صنفه في عقائد المذهب الدرزي في الجامع الأزهر، مما أثار سخط المصريين السنيين والمعتدلين من الشيعة، وكادوا يقتلونه لولا أنه هرب إلى بلاد الشام، وأقام بوادي التيم في سفح جبل الشيخ (قضاء حاصبيا وقضاء راشيا الوادي ـ حالياً ـ)، وأخذ ينشر دعوته على أهالي هذه المناطق، حيث استطاع أن يستميل إليه كثيراً من الأنصار الذين أصبحوا يعرفون باسم الدرزية. ولا يزال هذا المذهب منتشراً في جبال لبنان وحوران.

ثانياً: خصائص الدرزية

تمتاز الدرزية بمجموعة من الخصائص تستند على الأسس التي وضعها حمزة بن علي وغيره من دعاة الدرزية. من أهمها:

أ ـ اتخاذ تقويم جديد لتأريخ الحوادث يبدأ من سنة ٤٠٨هـ ـ ١٠١٣م وهي السنة التي ظهرت فيها دعوة تأليه الحاكم بأمر الله على يد حمزة بن علي وأنصاره. ويعبرون عن ذلك بكشف المكنون أي ظهور التوحيد.

ب ـ إغلاق باب الاستجابة الخارجية، بمعنى أن هذه الاستجابة تغلق أبوابها في وجه كل من لا ينتمي إليها سابقاً. ويبررون ذلك بقولهم أن الدعوى قد أبطلت وأغلقت الأبواب، فمن لم يؤمن بقي كذلك إلى الأبد، ومن آمن فقد آمن بلا ردة[1].

واستناداً إلى هذه الخصائص تنقسم الدرزية إلى طائفتين الأولى: طائفة الروحانيين، وهي الطبقة المثقفة التي تلم بأصول المذهب الدرزي وتنقسم إلى ثلاث فئات:

أ ـ الرؤساء: وهم الذين بيدهم مفاتيح أسرار الدرزية.

ب ـ العقلاء: ومنهم الأسرار الداخلية التي تتعلق بالتنظيم الداخلي للمذهب.

---

(١) حمزة بن علي الدرزي: التاليد في مذهب التوحيد، نشرة ميخائيل شارويم ص ٢٣.

ج ـ الأجاويد: ومعهم الأسرار الخارجية التي تختص بعلاقة مذهبهم بغيرهم من المذاهب.

الثانية: طائفة الجثمانيين وتنقسم إلى فئتين:

أ ـ الأمراء: وبيدهم شؤون الحرب والزعامة الوطنية.

ب ـ العامة أو الجهال: وهؤلاء لا يعرفون من أصول المذهب إلا اسمه فقط وحظر على أبناء هذه الطائفة بعض الأمور منها:

أ ـ عدم الدخول في مجالس طائفة الروحانيين، بأي حال من الأحوال ومهما ارتفعت مكانتهم العلمية.

ب ـ عدم السماح لهم بالانتظام في طائفة الروحانيين إلا بعد اجتياز اختبار طويل وصعب يظهر فيه الفرد على أتم الاستعداد لتلقي أصول المذهب الدرزي والتأكد من أنه سوف يصبح عضواً نافعاً متفقهاً في عقائده بل بعد أن يؤخذ عليه عهداً يتبرأ فيه من جميع الأديان والمذاهب، ويتعهد بالدفاع عن هذه الطائفة ويحافظ على أسرارها[(١)].

وقد وضع حمزة بن علي صيغة هذا العهد الذي أسماه «ميثاق ولي الزمان» وجاء فيه: «توكلت على مولنا الحاكم الأحد، الفرد الصمد، المنزه عن الأزواج والعدد، أقر فلان بن فلان إقراراً أوجبه على نفسه، وأشهد به، على روحه في صحة من عقله وبدنه وجواز أمره، طائعاً غير مكره ولا مجبر أنه قد تبرأ من جميع المذاهب والمقالات والأديان والاعتقادات كلها على أصناف اختلافتها، وأنه لا يعرف غير طاعة مولانا الحاكم جل ذكره، والطاعة في العبادة، وأنه لا يشرك في عبادته أحد مضى أو حضر أو ينتظر، وأنه قد سلم روحه وجسمه وماله وولده وجميع ما يملك لمولانا الحاكم جل ذكره، ورضي بجميع أحكامه له وعليه، غير معترض ولا منكر لشيء من أفعاله، ساءه ذلك أم سره. ومتى رجع

(١) Hitti, The origins of the druze people and religion, colombia, 1928 P. 43

عن دين مولانا الحاكم جل ذكره، الذي كتبه على نفسه وأشهد به على روحه، وأشار به على غيره، أو خالف شيئاً من أوامره، كان بريئاً من الباري المعبود، وحرم الإفادة من جميع الحدود(*). واستحق العقوبة من الباري العلي جل ذكره...

ومن أقر أنه ليس في السماء إله معبود، ولا في الأرض إمام موجود إلا مولانا الحاكم جل ذكره كان من الموحدين الفائزين. وكتب في شهر كذا وكذا، ومن سنة عبد مولانا جل ذكره ومملوكه حمزة بن أحمد، هادي المستجيبين المنتقم من المشركين والمرتدين بسيف مولانا الحاكم جل ذكره وشدة سلطانه وحده(١).

بالإضافة إلى ميثاق حمزة بن علي كانت رسائل الحاكم بأمر الله بمثابة وثيقة أخرى لها أهمية عظيمة يتجلى منها للقارىء ما إدعاه الحاكم من صفات الألوهية، وقد بنيت هذه الرسائل على آراء فلسفية مصدرها عقائد الباطنية والمعتزلة، لأن الفلسفة، وهي أساس الشريعة عند الفاطميين، قد حلت في عهد الحاكم بأمر الله محل القرآن والسنة(٢).

إن دراسة هذه الرسائل ومقارنتها مع مؤلفات حمزة بن علي وغيره من دعاة الدرزية الأقدمين تكشف لنا الكثير من غوامض هذا المذهب ومنها نتبين أنهم من غلاة الإسماعيلية، وأن مذهبهم لم يخرج عن المذهب الإسماعيلي في جوهره.

(*) إن كلمة «حدود» في اصطلاحات الدروز الدينية تشير ـ بطريق المجاز لما جاء في القرآن ـ إلى الحدود التي لها السلطة الدينية حسب أصول هذا المذهب. وعلى ذلك، فإن «أقمة الحدود» معناها الشرائع التي أوجدها الأئمة في طائفة الدروز وهذا ما ورد عن دي ساسي

(١) - De sacy chrestomathie Arabe. T//, P. 199, 242

(٢) - Ibid. P. 52.

ملحق

الوثائق والصور

أثبتنا هذه الوثائق والصور لأهميتها التاريخية
تسهيلاً للقارىء دون الرجوع إلى مصادرها الأصلية

وثيقة رقـم (١)

هذا نص العهد الذي قطعه القائد الفاطمي جوهر الصقلي على نفسه للمصريين. وهو يرسم لنا صورة واضحة للسياسة التي عول الفاطميون على الأخذ بها من الوجهة السياسية والدينية في مصر خاصة والشرق عامة. شعبان سنة ٣٥٨هـ/ ٩٧١م

«بسم الله الرحمن الرحيم! هذا كتاب من جوهر الكاتب عبد أمير المؤمنين المعز لدين الله، صلوات الله عليه، لجماعة أهل مصر الساكنين بها (من أهلها)، ومن غيرهم، أنه قد ورد من سألتموه الترسل والاجتماع معى: وهم أبو جعفر مسلم الشريف أطال الله بقاءه، وأبو إسماعيل الرسى أيده الله، وأبو الطيب الهاشمي أيده الله، وأبو جعفر بن نصر أعزه الله، والقاضي أعزه الله، وذكروا عنكم أنكم التمستم كتاباً يشتمل على أمانكم في أنفسكم وأموالكم وبلادكم وجميع أحوالكم؛ فعرفتم ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه، وحسن نظره لكم. فلتحمدوا الله على ما أولادكم وتشكروه على ما حماكم، وتدأبوا فيما يلزمكم، وتسارعوا إلى طاعته العاصمة لكم العايدة بالسعادة عليكم وبالسلامة لكم، وهو أنه صلوات الله عليه لم يكن إخراجه للعساكر المنصورة والجيوش المظفرة، إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم(١)؛ إذ قد تخطفتكم الأيدى واستطال عليكم المستذل، وأطعمته نفسه

(١) لعل القائد الفاطمي يقصد بإشارته هذه إلى الغارات التي شنتها جيوش الإمبراطورية البزنطية. واستولت على كيليكيا وقيرص. وكأنوا على وشك التقدم نحو بلاد الجزيرة وقلب الشام وتهديد مصر.

بالاقتداد على بلدكم في هذه السنة، والتغلب عليه وأسر من فيه والاحتواء على نعمكم وأموالكم حسب ما فعله في غيركم من أهل بلدان الشرق؛ وتأكد عزمه واشتد كلبه، فعاجله مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صوات الله عليه بإخراج العساكرالمنصورة، وبادره بإنفاذ الجيوش المظفرة دونكم، ومجاهدته عنكم وعن كافة السملمين ببلدان الشرق الذين عمهم الحزى وشملتهم الذلة، واكتنفتهم المصايب وتتابعت الرزايا، واتصل عندهم الخوف وكثرت استغاثتهم، وعظم ضجيجهم وعلا صراخهم؛ فلم يغثهم إلا من أرفضه أمرهم ومضه حالهم وأبكى عينه ما نالهم، وأسهرها ما حل بهم، وهو مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه، فرجا بفضل الله عليه وإحسانه لديه، وما عوده وأرجاه عليه، استنقاذ من أصبح منهم في ذل مقيم وعذاب أليم؛ وأن يؤمن من استولى عليه المهل ويفرخ ورع من لم يزل في خوف ووجل. وآثر إقامة الحج الذي تعطل وأهمل العباد فروضه وحقوقه لخوف المستولى عليهم؛ وإذ لا يؤمنون على أنفسهم ولا على أحوالهم؛ وإذ قد أوقع بهم مرة بعد أخرى، فسفكت دماؤهم وابتزّت أموالهم، مع اعتماد ما جرت به عادته من صلاح الطرقات وقطع عبث العابثين فيها، ليطرق الناس آمنين ويسيروا مطمئنين ويتحفوا بالأطعمة والأقوات، إذا كان قد انتهى إليه صلوات الله عليه انقطاع طرقاتها لخوف مارتها، إذ لا زاجر للمعتدين ولا دافع للظالمين؛ ثم تجويد السكة وصرفها إلى العيار الذي عليه السكة الميمونة المنصورية المباركة، وقطع الغش منها، إذ كانت هذه الثلاث خصال هي التي لا يتسع لمن ينظر في أمور المسلمين إلا إصلاحها واستفراغ الوسع فيما يلزمه منها، وما أوعز به سيدنا ومولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه إلى عبده من نشر العدل وبسط الحق، وحسم الظلم وقطع العدوان، ونفى الأذى ورفع المؤن والقيام في الحق، وإعانة المظلوم مع الشفقة والإِحسان، وجميل النظر وكرم الصحبة، ولطف العشرة واقتفاء الأحوال، وحياطة أهل البلد في ليلهم ونهارهم وحين تصرفهم في أوان ابتغاء معاشهم، حتى لا تجري أمورهم إلا على مالم شعثهم وأقام أودهم، وجمع قلوبهم وألف

كلمتهم على طاعة (وليه) مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه، وما أمره به مولاه من إسقاط الرسوم الجائرة التي لا يرتضى صلوات الله عليه بإثباتها عليكم. وأن أجيركم في المواريث على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وأضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم لبيت المال من غير وصية من المتوفي بها، فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال، وأن أتقدم في رم مساجدكم وتزيينها بالفرش والايقاد، وأن أعطى مؤذنها وقومتها ومن بؤم الناس فيها أرزاقهم، وأدرها عليهم ولا أقطعها عنهم ولا أدفعها إلا من بيت المال، لا بإحالة على من يقبض منهم؛ وغير ما ذكره مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه مما ضمنه كتابه هذا، من ترسل عنكم أيدهم الله وصانكم أجمعين بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه، من أنكم ذكرتم وجوهاً التمستم ذكرها في كتاب أمانكم، فذكرتها إجابة لكم وتطميناً لأنفسكم؛ فلم يكن في ذكرها معنى ولا في نشرها فائدة، إذ كان الإسلام سنة واحدة وشريعة متبعة، وهي إقامتكم على مذهبكم، وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض في العلم والاجتماع عليه في جوامعكم ومساجدكم، وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين بعدهم، وفقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم؛ وأن يجري الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطرة وقيام لياليه، والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله في كتابه ونصه نبيه صلى الله عليه في سنته؛ وأجرى أهل الذمة على ما كانوا عليه. ولكم علي أمان الله التام العام الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام في أنفسكم وأموالكم، وأهليكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم، وقليلكم وكثيركم، وعلى أنه لا يعّرض عليكم معرّض ولا يتجنى عليكم متجن ولا يتعقب عليكم متعقب، وعلى أنكم تصانون وتحفظون وتحرسون، ويذب عنكم ويمنع منكم؛ فلا يعترض إلى أذاكم ولا يسارع أحد في الاعتداء عليكم ولا في الاستطالة على قويكم فضلاً عن ضعيفكم؛ وعلى ألا أزال مجتهداً فيما يعمكم صلاحه ويشملكم نفعه، ويصل إليكم خيره وتتعرفون بركته، وتغتبطون معه بطاعة مولانا

وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه. ولكم عليّ الوفاء بما الّزمته وأعطيتكم إياه، عهد الله وغليظ ميثاقه وذمته وذمة أنبيائه ورسله وذمة الأئمة موالينا أمراء المؤمنين قدس الله أرواحهم، وذمة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله علي، فتصرحون بها وتعلنون بالانصراف إليها، وتخرجون إليّ وتسلمون عليّ، وتكونون بين يدى إلى أن أعبر الجسر وأنزل في المناخ المبارك، وتحفظون وتحافظون من بعد على الطاعة وتثابرون عليها وتسارعون إلى فروضها، ولا تخذلون ولياً لمولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه، وتلزمون ما أمرتم به. وفقكم الله وأرشدكم أجمعين»[1].

(١) المقريزي: انعاظ الحنفا. . . ص٦٧ ـ ٧٠.

وثيقة رقم (٢)

المنشور الذي أصدره الخليفة الفائز الفاطمي إلى رجاله في شبه جزيرة سيناء يأمرهم فيه أن يشملوا الرهبان بالرعاية والملاحظة والمعونة والموافدة والمبالغة في اعزاز جانبهم وتسهيل مطالبهم وتحقيق رغباتهم وإبعاد الحيف عنهم

بسم الله الرحمن الرحيم منشور مقدم بكتبة فتى مولانا.

(الحمد لله على نعمه) وسيدنا الإمام الفائز بنصر الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه المنتظرين.

السيد الأجل الملك الصالح ناصر الأئمة كاشف الغمة، أمير الجيوش سيف الإسلام غياث الأنام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين أبو الغارات طلائع الفايزي وتضمينه:

إنه لما كان من شيمنا إزالة المحدثات وتعفية آثارها والمنع من الاستمرار عليها وتأكيد أفكارها، بدعائه من يحتوي عليه نطاق مملكتنا من أهل الذمة واعمّادهم بما نسبع عليه ملابس الحنو والرحمة، ليتساوى في عدلنا الصغير والكبير، ونشملهم من حسن مطرنا ما يسهل عليهم من المطالب كل. مستصعب عسير. وأنهى إلى حضرتنا استضرار اسطوانة أسقف طورسينا بما يقصده به الولاة من الإجحاف، ويعتمدونه من الحيف و الاعتساف ويلتمسونه من جهته من رسم أحدثوه وهو عشر دنانير. . .؟. . . وإن ذلك قد قضى له ولمن معه من الرهبان بالإضرار، وأجحف به وبهم التمادى عليه والإضرار، وأنكرنا ذلك على معتمديه، وذممناه من قصد قاصديه، وخرج أمرنا بإرداع هذا المنشور، الأمر

بإزالة هذا الرسم وتعفيته والمنع من التماسه من هذا الأسقف، والحذر من تناوله من جهته، واعتماده بالرعاية والملاحظة والمعونة والمرافدة، والمبالغة في إعزاز جانبه وتسهيل مطالبه.

والتحذير من تكليفه أو أحد من رهبانه مغرماً أو خسارة، وإجرائه على الأوامر المرضية والأوضاع المختارة.

فمن قرأه أو قرىء عليه من كافة الأمرا الولاة بالحصون الطورية أدام الله...؟ فليعمل بالمثل فيه وليتناى ما يوجبه حكمه ويقتضيه، وليحذر من تجافيه وتعديه و....؟[1].

إمضاءات

رجـال الديـن

(١) مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية سنة ١٩٥٦. المجلد الخامس ص١١٩ ـ ١٢١. نقلاً عن وثائق دبير سانت كاترين.

وثيقة رقم (٣)

نص خطبة منبرية مما كان يمدح به
أئمة السماجد الخليفة الفاطمي

«. . . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ، اصطفاه واختاره لهداية الخلق وإقامة الحق. . . حتى قامت حجج الله وآياته وتمت بالتبليغ كلماته؛ صلى الله عليه وعل أوّل مستجيب إليه عليّ أمير المؤمنين وسيد الوصين، أساس الفضل والرحمة، وعماد العلم والحكمة، وأصل الشجرة الكرام البررة الثابتة في الأرومة المقدسة الطاهرة، وعلى خلفائه الأغصان البواسق [من تلك الشجرة]، وعلى ما خلص منها وزكا من الثمرة. . اللهم وصلّ على وليك الأزهر وصديقك الأكبر، عليّ بن أبي طالب أبي الخلفاء الراشدين المهدين. اللهم وصل على السبطين الطاهرين الحسن والحسين، وعلى الأئمة الأبرار، والصفوة الأخيار، من أقام منهم وظهر، ومن خاف فاستتر. اللهم صل على الامام المهدي بك، والذي بلّغ بأمرك، وأظهر حجتك، ونهض بالعدل في بلادك، هادياً لعبادك. اللهم وصل على القائم بأمرك، والمنصور بنصرك، اللذين بذلاً نفوسهما في رضائك، وجاهداً أعداءك. اللهم وصل على المعز لدينك، المجاهد في سبيلك، المظهر للآيات الخفية، والحجج الجلية. اللهم وصل على العزيز لدينك، الذي مهدت به البلاد، وهديت به العباد.

«اللهم اجعل نوامى صلواتك، وزواكى بركاتك، على سيدنا ومولانا إمام

الزمان، وحصن الإيمان، وصاحب الدعوة العلوية والملة النبوية، عبدك ووليك النمصور أبي على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين، كما صليت على آبائه الراشدين، وأكرمت أجداده المهدين. اللهم وفقنا لطاعته، واجمعنا على كلمته ودعوته، واحشرنا في حزبه وزمرته. اللهم وأعنه على ما وليته، واحفظه فيما استرعيته، وبارك له فيما آتيته، وانصر جيوشه، وأعل أعلامه في مشارق الأرض ومغاربها، إنك على كل شيء قدير»[1].

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة. . . ج٤ ص٢٢٤ـ ٢٢٧.

وثيقة رقم (٤)

صورة سجل تقليد أبي قاسم الجرجرائي الوزارة. وهو يبين لنا الشروط التي يجب أن تتوفر في من يتم أختياره لمنصب الوزير. وهذا نصه

«أما بعد... وإن أحق من عول عليه في الوزارة وأسند إليه أمر السفارة، ونصب لحفظ الأموال وتميزها وسياسة الأعمال وتدبيرها وإيالة طوائف الرجال كبيرها وصغيرها، من كان خفيظاً لما يستحفظ من الأمور، قويماً بمصالح الجمهور، عليماً بمجاري السياسة والتدبير. ولذلك قال يوسف الصديق عليه السلام: اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم. ولو استغنى أحد من رعاة العباد عن وزير وظهير يكاتبه عن أمره ويظاهره، لكان كليم الله موسى ﷺ، وهو القوى الأمين عنه مستغنياً، ولم يكن له من الله جل جلاله طالباً مستدعياً. وقد قال: (ربِّ اشرح لي صدري ويسر لى أمري واحلل عُقدة من لساني يفقهوا قولي، وجعل لي وزيراً من أهل هارون أخي أشدُد به أزْري وأشركه في أمري كي نسبّحك كثيراً ونذكرك كثيراً[١]. ولما كنت بالأمانة والكفاية علماً، وعند أهل المعرفة والدراية مقدماً، وكان الكتاب على اختلاف طبقاتّهم وتفاوت درجاتهم يسلمون إليك في الكتابة، ويقتدون بك في الإصابة، ويشهدون لك بالتقدم في العناء، ويهتدون بحلمك اهتداء السَّفر بالنجم في الليلة الظلماء. ولا يتناكرون الانحطاط عن درجتك في الفضل لتفاوتها في الارتفاع، ولا يردُ ذلك

(١) سورة طه: ٢٠ ـ آيات ٢٥ ... ٣٤.

راد من الناس أجمعين إلا خصمه وقوع الإجماع. هذا مع المعروف من استقلالك بالسياسة، واستكمالك لأدوات الرئاسة، وتدبيرك أمور المملكة، وما ألف برشد وساطتك من سمو اليمن والبركة ـ رأى أمير المؤمنين، وبالله توفيقه، أن يستكفيك أمر وزارته وينزلك أعلى منازل الاصطفاء بخاص أثرته، ويرفعك على جميع الأكفاء بتام تكرمته، وينوه باسمك تنويها لم يكن لأحد قبلك من الظُّهراء في دولته، فسماك بالوزير لمؤازرتك له على حمل الأعباء، ووكد هذا الاسم بالأجل، لأنك أجل الوزراء، وعزز ذلك بصفى أمير المؤمنين وخالصته، إذ كنتَ أعز الخلصاء والأصفياء، وشرفك بالتسمية تسميقاً بك في العلياء، ودعا لك بأن يمتعه الله بك ويؤيدك ويعضدك دعاء يجيبه فيك رب السماء. فأنت الوزير الأجل صفى أمير المؤمنين وخالصته المحبو بالمن الجسيم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. وأمر أمير المؤمنين بأن تدعى بهذه الأسماء وتخاطب وتكتب بها عن نفسك وتكاتب. ورسم ذكر ذلك فيما يجري من المحاورات وإثباته في ضروب المكاتبات، ليثبت ثبوت الاستقرار، ويبقى رسمه على مر الليالي والنهار. فاحمد الله تبارك وتعالى على تميز أمير المؤمنين لك بتشريفه واختصاصه، وإحلاله إياك أعلى محال خواصه. واجر على سننك الحميد في خدمته ومذهبك الرشيد في مناصحته، إذ كان قد فوض إليك أمر وزارته، وجعلك الوسيط بينه وبين أوليائه وأنصار دعوته وولاة أعمال ممكته وكتاب دواوينه وسائر عبيده ورعيته شرقاً وغرباً وقرباً وبعداً، وأمضى توقيع من تنصبه للتوقيع عن أمير المؤمنين في الإخراج والإنفاق والإيجاب والإطلاق، وناط بك أزمة الحل والعقد والإبرام والقبض والبسط والإثبات والحط والتصريف والصرف، تفويضاً إلى أمانتك التي لا يقدح فيها معاب، وسكونا إلى ثقتك التي لا يلم بها ارتياب، وعلماً بأنك تورد وتصدر عن علم وحزم تفوق فيهما كل مقاوم، ولا تأخذ في المناصحة لأمير المؤمنين ولاحتياط له على لومة لائم، وجميع ما يوصي به غيرك ليكون له تذكرة وعليه حجة، فهو مستغنى عنه معك لأنك تغنى بفرط معرفتك عن التعريف، ولا تحتاج مع وقوفك على

الصواب، وعلمك به إلى توقيف. غير أن أمير المؤمنين يؤكد عليك الأمر بحسن النظر لرجال دولته دانيهم وقاصيهم، بارك الله فهم، وأن يتوفر على ما يعود بصلاح أحوالهم وانفساح آمالهم وانشراح صدورهم وانتظام أمورهم، إذ كانوا كتائب الإسلام ومعاقل الأنام وأنصار أمير المؤمنين المحفوفين بالإحسان والإنعام، حتى تحسن أحوالهم بجميل نظرك ويزول سوء الأثر فيهم بحسن أثرك. وكذلك الرعايا بالحضرة وأعمال الدولة، فأمرهم من المعنى به والمسؤول عنه. وأمير المؤمنين يأمرك بأن تستشف خبرة الولاية فيهم. فمن ألفيته من الرعية مظلوماً، أوعزت بنصفته، ومن صادفته من الولاة ظلوماً تقدمت بصرفه وحسم مضرته ومعرته»[1].

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص٨٠ ـ ٨٤.

وثيقة رقم (٥)

نص الكتاب الذي أرسله الخليفة الفاطمي المعز لدين الله في أواخر سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٥م إلى الحسن بن أحمد القرمطي يهدده فيه ويتوعده ويعرض عليه في نهايته أن يختار لنفسه إحدى ثلاث خصال، وإلا أصبح الحكم بينهما للسيف وحده:

«ونحن عارضون ثلاث خصال، والرابعة أردى لك وأشقى لبالك وما أحسبك تحصل إلا عليها، فاختر: إما قُدمت نفسك لجعفر بن فلاح وأتباعك بأنفس المستشهدين معه بدمشق والرملة من رجاله ورجال سعادة بن حيان، ورد جميع ما كان لهم من رجال وكراع ومتاع إلى آخر حبة من عقال ناقة وخطام بعير وهي أسهل ما يرد عليك؛ وإما أن تردهم أحياء في صورهم وأعيانهم وأموالهم وأحوالهم، ولا سبيل لك إلى ذلك ولا اقتدار؛ وإما سرت بمن معك بغير ذمام ولا أمان، فأحكم فيك وفيهم بما حكمت، وأجريكم على (إحدى) ثلاث: إما قصاص، وإما منّ بعد، وإما فداء، فعسى أن يكون تمحيصاً لذنوبك وإقالة لعثرتك. وإن أبيت إلا فعل اللعين، فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين. أخرج منمها فما يكون لك أن تتكبر فيها وقيل اخسئوا فيها ولا تكلمون، فما أنت إلا كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، فلا سماء تُظللك ولا أرض تقلك ولا ليل يجنك ولا نهار يكنك ولا علم يسترك ولا فئة تنصرك. قد تقطعت بكم الأسباب، وأعجزكم الذهاب، فأنتم كما قال الله عز وجل مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. فلا ملجأ لكم إلى الله يومئذ، ولا منجى منه... فلا تجد في السماء مصعداً، ولا في الأرض

مقعداً، ولا في الأرض ولا في البحر منهجاً، ولا في الجبال مسلكاً، ولا إلى الهواء سلماً، ولا إلى مخلوق ملتجأ. حينئذ يفارقك أصحابك، ويتخلى عنك أحبابك ويخذلك أترابك، فتبقى وحيداً فريداً، وخائفاً طريداً، وهائماً شريداً، قد ألجمك الفرق، وكظمك القلق، وأسلمتك ذنوبك، وازدراك خزيك (كلا لا وزر إلى ربك يومئذ المستقر، ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر)».

وقد رد الحسن القرمطي على هذا الكتاب بهذه الكلمات القصيرة التي تدل على عدم مبالاته بتهديد المعز ووعيده، وعلى مضاء عزيمته وشدة رغبته في محاربة الفاطمين فقال: «وصل كتابك، الذي قل تحصيله وكثر تفصيله. ونحن سائرون إليك على إثره والسلام»[1].

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا ص١٣٤ ـ ١٤٣.

جامع عمرو بن العاص رقم «١»



إن جامع عمرو بن العاص هو أقدم المساجد التي بنيت في مصر. وأطلق عليه اسم المسجد العتيق وتاج الجوامع والمسجد الجامع. وقد بني سنة ٢١هـ، بعد أن فتح عمرو بن العاص مصر وأسس الفسطاط العاصمة الإسلامية.

أقيمت فيه أول خطبة للخليفة الفاطمي المعز لدين الله في التاسع عشر من شعبان سنة ٣٥٨هـ/ ٩٧٠م. بعد استيلاء القائد جوهر الصقلي على مدينة الفسطاط بأيام قليلة.

وقد خطب في هذا اليوم إمام الجامع هبة الله بن أحمد خليفة حيث قال: «اللهم صل على عبدك ووليك، ثمرة النبوة وسبيل العزة الهادية المهدية، عبد الله الإمام معد أبي تميم المعز لدين الله أمير المؤمنين. كما صليت على آبائه الطاهرين وأسلافه الأئمة الراشدين. اللهم ارفع درجته، وأعل كلمته. وأوضح

حجته، واجمع الأمة في طاعته والقلوب على موالاته. واجعل الرشاد في موافقته، وورثه مشارف الأرض ومغاربها، وأحمده وبادىء الأمور وعواقبها، ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (سورة الأنبياء ٢١: آية ١٠٥) فقد امتعض لدينك. ولما انتهك من حرمتك، ودرس من الجهاد في سبيلك، وانقطع عن الحج إلى بيتك وزيارة قبر رسولك ﷺ، فأعد للجهاد عدته وأخذ لكل خطب أهميته، فسير الجيوش لنصرتك. وأنفق الأموال في طاعتك، وبذل المجهود في رضاك، فارتدع الجاهل وقصر المتطاول، وظهر الحق وزهق الباطل فانصر اللهم جيوشه التي سيرها، وسراياه التي ندبها لقتال المشركين وجهاد الملحدين والذب عن المسلمين، وعمارة الثغور والحرم. وإزالة الظلم وبسط العدل في الأمم. اللهم اجعل راياته عالية. مشهورة وعساكره عالية منصورة: وأصلح به وعلى يديه؛ واجعل لنا منك واقية عليه»[1] إن ذكر اسم الخليفة الفاطمي في خطبة الجمعة بدل اسم الخليفة العباسي أمراً هاماً في تاريخ الخلافة الفاطمية في مصر.

(١) المقريزي: انعاظ الحنفا.. ص٧٥ ـ ٧٦.

جامع ابن طولون رقم «٢»



من الأمور الهامة التي إمتاز بها جامع ابن طولون في العصر الفاطمي الزيادات التي طرأت على الصلاة. ففي خطبة يوم الجمعة الثامن عشر من ربيع الثاني سنة ٣٥٩هـ/ ٩٧٢م في هذا الجامع أدخل المؤذنون على الأذان ولأول مرة عبارة «حي على خير العمل». وهي من العبارات التي يتصف بها الأذان عند الشيعة.

ومن ثم زيدت هذه العبارة في الأذان في مساجد العسكر، ومنها انتقلت إلى الجامع العتيق في جمادى الأولى من السنة نفسها[١]. ومن أعجب ما حدث في خطبة الجمعة المذكورة أعلاه أن الشيخ عبد السميح افتتح خطبته دون أن يجهر بالبسملة[٢]. وأشار بذكر أهل البيت وعدد مآثرهم، كما دعا للقائد جوهر. لكن هذا الأخير لم يستصغ ذكر اسمه في الصلاة. وقال «إن مولانا المعز لم يأمر بشيء من ذلك»[٣].

وبعد انتهاء الخطبة قرأ الشيخ عبد السميح سورة الفاتحة ثم سورة الجمعة وسورة المنافقين[٤] ثم بدأ بالدعاء (القنوت) بعد الركعة الثانية ولماهم بالسجود. فاته أن يركع، فاعترض علي بن الوليد قاض العسكر الفاطمي وصاح به: «بطلت الصلاة، أعد ظهراً أربعا»[٥].

(١) المقريزي اتعاظ الحنفا . . . ص ٧٥ و٧٦ و. ٧٧

(٢) ان الحنابلة والحنفية لا يجهروا بالبسملة لأنهم لا يعتبرونها جزءاً من كل سورة من القرآن. أما الشافعية والمالكية والشيعة فكانوا على العكس يجهرون بها.

(٣) المقريزي خطط. . .ج٢ ص. ٢٧٠

(٤) القرآن سور ٦٢ وسرة ٦٣.

(٥) المقريزي: خطط. . . ج٢ ص٢٧٠ وص٢٧٣.

مميزات المساجد الفاطمية:

ارتبط العصر الفاطمي بإستخدام عدة ظواهر معمارية منها استخدام الحجر المنحوت لأول مرة في واجهات المساجد بدلاً من الطوب وتزيين هذه الواجهات بالذخائر المتنوعة المحفورة على الحجر، وكانت القباب في ذلك العصر صغيرة وبسيطة.

والجدير بالذكر ان مساجد العصر الفاطمي في مصر ترتبط بإبن طولون في استعمال الأكتاف وتارة بسيدي عقبة في استعمال المجاز المرتفع.

جامع الأزهر رقم «٣»



وضع القائد الفاطمي جوهر الصقلي أساس الجامع الأزهر في يوم السبت الرابع عشر من رمضان سنة ٣٥٩هـ/ ٩٧١م. وتم بناؤه على سنتين تقريباً، وأقيمت فيه الصلاة لأول مرة في السابع من رمضان ٣٦١هـ/ ٩٧٣م.

يتألف الأزهر من قسمين: واحد مسقوف معد للصلاة يسمى مقصورة،

وآخر غير مسقوف يسمى صحناً، مرصوق بالحجر، يقيمون فيه الصلاة عند ازدحام القسم الداخلي.

وفي سنة ١١٦٧هـ/ ١٧٥٦م. بنى الأمير عبد الرحمن كتخدا مقصورة ثانية، فأصبح للجامع بذلك مقصورتان متلاصقتان وفي كل منهما نوافذ لدخول النور والهواء.

وقد أنشأ جوهر بالمقصورة القديمة محراباً يسمى الآن القبلة القديمة. ثم أضيفت إلى الجامع تسعة محاريب لم يبق منها حتى الآن سوى ستة أشهرها إثنان: واحد بالمقصورة القديمة وآخر بالمقصورة الجديدة، ولكل منهما إمام يخالف صاحبه في المذهب الفقهي وقد زينت حيطان الجامع بالآيات القرآنية المنقوشة بالخط الكوفي الجميل وقد أعجب الحاكم بمنبر الأزهر الجميل المصنوع من الخشب المخروط فنقله إلى الجامع الذي شيده.

وأنشىء بالأزهر عند تأسيسه منارة، ثم أقيمت به فيما بعد خمس منارات يؤذن عليها في أوقات الصلوات الخمس، وفي ليالي رمضان والمواسم.

وكانوا يعرفون أوقات الصلاة بواسطة مزولة لا تزال قائمة إلى اليوم على جدران الأزهر. وكانت مساجد القاهرة تتبع في الأذان أصوات المؤذنين في الأزهر.

بني الأزهر كغيرة من المساجد لإقامة الشعائر الدينية، ثم ما لبث أن أصبح جامعة لتدريس مختلف العلوم والفنون يقصدها الطلاب من كافة أرجاء البلاد الإسلامية.

وقد زاد في بناء هذا الجامع كثير من الأمراء والخلفاء والسلاطين وأنشأوا فيه مساكن للطلاب، كما حبسوا عليه كثيراً من الأوقاف وأهدوا الهبات الجليلة.

وكان الخليفة العزيز بالله الفاطمي أول من بنى بجوار الأزهر داراً لجماعة من الفقهاء عدتهم خمسة وثلاثون، كانوا يجلسون فيه بعد صلاة الجمعة ويقرؤن

القرآن إلى صلاة العصر. وقد أجرى عليهم هذا الخليفة الأرزاق وفي عهد الأيوبيين حل الدمار بهذا الجامع عندما حاول هؤلاء الحكام إزالة آثار الفاطميين الشيعيين، فأبطل صلاح الدين الخطبة في الأزهر، كما انتزع كثيراً من الأوقاف التي وقفها عليه الحاكم الفاطمي.

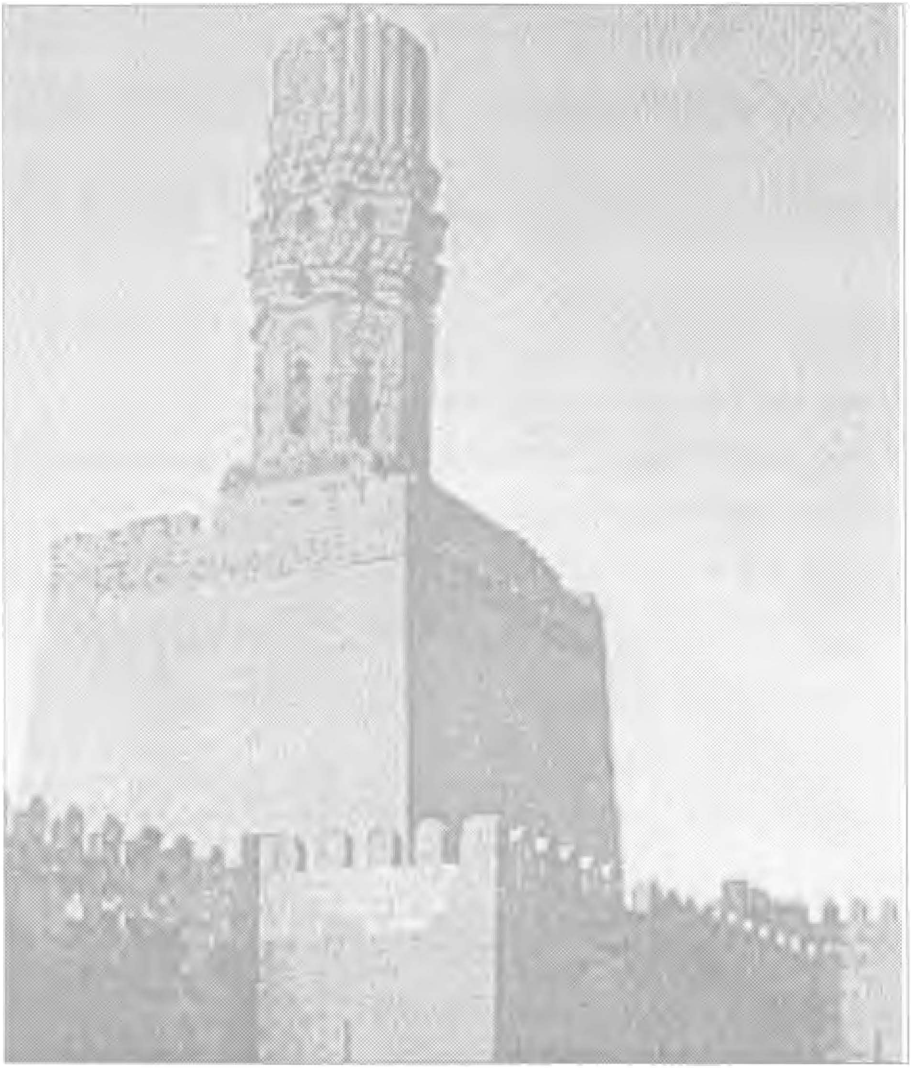
ظلت صلاة الجمعة معطلة في الجامع الأزهر نحواً من قرن، إلى أن أمر الملك الظاهر بيرس بإقامة الخطبة من جديد، وقدم إليه الهبات واتخذه معهداً للعلم، وذلك سنة ٦٦٥هـ ١٢٦٩م.

وقد حذا بعض الأمراء حذو الملك الظاهر، حتى غدا الأزهر مسجداً وداراً للعلم كما كان أيام الفاطميين. فأزهر وأينع. وفي سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٣م. دمر هذا المسجد من جراء الزلزال الذي حدث بمصر في ذلك العهد. فتولى الأمير سلار عمارته، وجدد ما تصدع من بنيانه، ومن ثم بنيت حوله المدارس التي ألحقت به فيما بعد، ولا تزال تابعة له إلى اليوم(١).

---

(١) المغريزي: خطط... ج ص٢٧٣ و٢٧٥ و٢٧٦.

جامع الحاكم بأمر الله رقم «٤»



أسس هذا الجامع الخليفة الفاطمي العزيز بالله في شهر رمضان سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٣م. وكان يقع بادىء الأمر خارج باب الفتوح الأول الذي أنشأه جوهر، ولكنه مالبث أن أصبح داخل أسوار القاهرة بعد أن وسع بدر الجمالي هذه المدينة. ويذكر المقريزي أن الخليفة العزيز صلى الجمعة وخطب في هذا المسجد في الرابع عشر من رمضان سنة ٣٨هـ/ ٩٩٤م. وذلك قبل أن يتم

بناؤه[١]. وتوفي العزيز فأمر إبنه وخليفته الحاكم بأمر الله بإتمام بناء هذا الجامع سنة ٣٩٣هـ/ ١٠٠٦م، فتم ذلك في سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٣م.

ولما تم بناء هذا المسجد، انتقلت إليه الخطبة وقراءة القرآن بعد أن كانت مقصورة على الجامع الأزهر، فكان يطلق عليه جامع الخطبة.

وقد كلف العمل بهذا الجامع أربعين ألف دينار، وتم تجهيز من الحصر والقناديل والسلاسل بمبلغ قدره خمسة الآف دينار.

وفي يوم الجمعة السادس عشر من رمضان سمنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٣م أذن فيه المؤذن أذان الصبح لأول مرة، وصلى فيه الحاكم صلاة الجمعة، وهي أول صلاة أقيمت فيه بعد الفراغ من بنائه. وفي سنة ٤٠٤هـ/ ١٠١٤م حبس الحاكم عليه الأوقاف مع ما وقفه على المساجد الأخرى. فخصه بالشيء الكثير.

ثم زاد الخليفة المستنصر بالله أقساماً في هذا المسجد، كما زاد فيه أمير الجيوش بدر الجمالي.

وفي سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٣ تخرب هذا المسجد من جراء الزلزال الذي حدث بمصر في ١٣ ذي القعدة من هذه السنة فسقطت مآذنه وتهدمت سقوفه وجدرانه[٢].

وفي سنة ٧٠٣هـ/ ١٤٠٣م أعاد الأمير ركن الدين بيرس الجاشنكير بناء هذا الجامع إلى ما كان عليه. ووقف عليه أوقافاً كثيرة، وعين فيه فقهاء، لتعليم الفقه على المذاهب الأربعة والحديث والنحو والقراءات السبع، وجعل فيه من يقوم بتلقين القرآن الكريم.

وطائفة من القراء يتناوبون قراءة القرآن، ومعلماً يعلم أولاد المسلمين. وجعل فيه خزانة كتب جليلة[٣].

---

(١) المقريزي: خطط... ج ص٢٧٧.

(٢) المصدر نفسه ج ص٢٧٧ ـ ٢٧٨.

(٣) المصدر نفسه ج ص٢٧٨ ـ ٢٨٢.

جامع الجيوش على سفح جبل المقطن رقم «٥»



بنى هذا الجامع أمير الجيوش بدر الجمالي(*) على سفح جبل المقطحم في سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٨م. ولعل أبدع ما في هذا الجامع مئذنته ذات القاعدة الثماينة. والتي تنتهي في الأعلى على شكل مبخرة، ويعتقد أن هذا الشكل

(*) كان بدر الجمالي مملوكاً أرمنياً للأمير جمال الدولة بن عمار. ثم أخذ يترقى في المناصب لما أظهره من كفاية خلال الحروب التي قاومت في بلاد الشام حتى ولى إمارة دمشق من قبل الخليفة المستنصر سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٦م. وأخذ يحارب الأتراك في تلك البلاد ولم يلبث أن أصبح من أقوى قوادها، ثم تقلد نيابة عكا سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٦م .

وبلغ من تقدير الخليفة المستنصر له حين شرع في العمل على توطيد الأمن واصلاح حال البلاد بعد أن شارفت على الانهيار أن خلع عليه بعقد من الأحجار الكريمة وقلده وزارة السيف والقلم، كما زاد في القابه السيد لأجل أمير الجيوش كافل قضاة المسلمين وداعي دعاة المؤمنين بنى العديد من المنشآت أهمها جامع الجيوشي في القاهرة وجامع العطارين في الإسكندرية .

مأخوذ من الفن الأرمني حيث كانت معظم كنائس أرمينيا تبنى على هذه الصورة.

ومن المحتمل أن بعض البنائين الذين شاركوا في بناء هذا المسجد كانوا من الأرمن. حيث كان بدر الجمالي يعتبرهم من خواصه المقربين ويرافقهم بطريق خاص بهم[1].

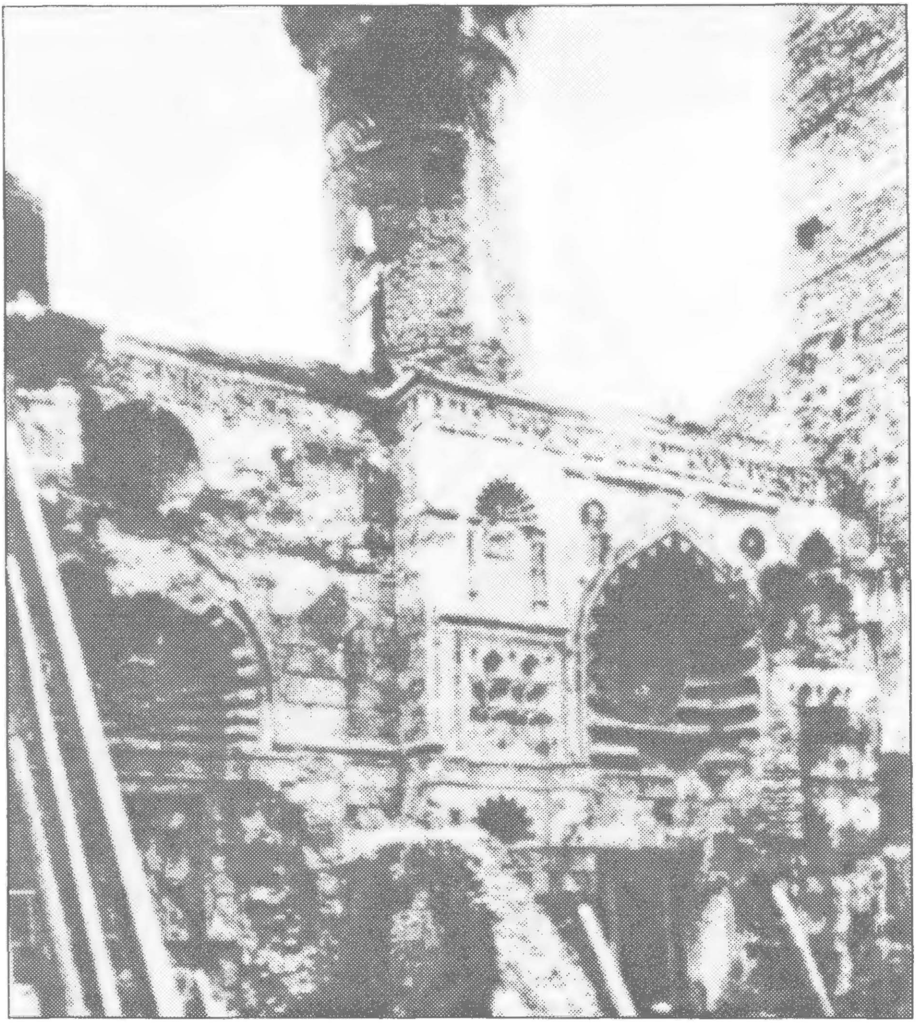
وقد أصبحت هذه المئذنة نموذجاً يحتذى به في جميع مساجد القاهرة.

وفي سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٣م دمر هذا السمجد مع ما دمر من المساجد من جراء الزلزال الذي حدث بمصر في تلك السنة ولم يبق منه إلا المئذنة. وبقي على حاله من الخراب والدمار حتى سنة ١٩٩٥م عندما أولته وزارة الآثار المصرية عناية خاصة وأعادت ترميمه إلى ما كان عليه.

---

(١) المغريزي: خطط . . .ج ص٣٨١ و٣٨٢ stanley lame - poole, A history of Egyptin the middle age p150

جامع الأقمر رقم «٦»



بنى هذا الجامع الخليفة الآمر بالله أمام قصره سنة ٥١٩هـ/ ١١٢٦م.

وأوقف عليه عدة أوقاف للإنفاق عليه. كما رتب له المؤذنين والخطباء وقد جدده الأمير يلبغا بن عبد الله السالمي أحد مماليك الظاهر بيرس في سنة ٧٩٩هـ/ ١٤٠٠م. ولعل أجمل ما في هذا المسجد واجهته الغربية الغنية بأنواع الزحزقة.

صورة باب زويلة مع المئذنتين رقم (٧)



إن باب زويلة هو إحدى بوابات سور القاهرة التي لم يبق منها الا باب النصر والفتوح شمالاً(*)، قام بتشييدها القائد الفاطمي بدر الدين الجمالي في

(*) أمر أمير الجيوش بدر الجمالي ببناء زويلة ونقل باب النصر الذي بناه جوهر إلى المكان الذي به الآن، كما بنى باب الفتوح في مكان آخر، وهذه الأبواب الثلاثة من عمل إخوة ثلاثة أصلهم من مدينة الرها.

(٤٦٥ هـ/ ١٠٧٥م) أثر تهالك الأسوار المبنية من الطين اللين حول العاصمة المصرية التي بناها القائد الفاطمي جوهر الصقلي بعد أن ضم مصر إلى الدولة الفاطمية في سنة ٣٥٨هـ/ ٩٧١م.

سمي الباب باسم زويلة نسبة إلى قبيلة زويلة المغربية التي سكنت بالقرب من المكان إثر الفتح الفاطمي لمصر ويبلغ عرض بناء البوابة ما يقارب ٢٦ متراً وعمقها ٥٢ متراً وإرتفاعها ٣٤ متراً.

ومن الطريف أن باب زويلة أُحيط بهالة من القداسة عند عامة الناس فأصبح مزاراً يلتمسون به قضاء حاجاتهم. حيث جرى الإعتقاد في المنطقة بأن المتولي الذي تحمل البوابة اسمه هو من الأولياء وتسكن روحه المصراع الشرقي للباب وقد ظهرت صورته مرات عديدة.

ومن أهم القطع الأثرية التي مازالت موجودة في البوابة القارب الخشبي الملون المعلق في الأعلى وكان يُعتقد بأنه قارب الخير والبركة الذي ينطلق منه المتولي بلا انقطاع ويفيض بخيره على كل من يعبر البوابة الخشبية الضخمة.

ولعل ما امتاز به باب زويلة أنه كان المكان المخصص لتعليق جثث المجرمين بعد قتلهم. ومن أشهر من عُلقت جثته على هذه البوابة السلطان طومان باي آخر سلاطين المماليك في يوم الإثنين الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة ٩٢٣هـ الثالث عشر من نيسان سنة ١٥١٧م. حيث ظلت جثته معلقة ثلاثة أيام(١)

وفي سنة ٧٠٢هـ/ ١٤٦١م. تصدع باب زويلة بسبب الزلزال الذي حدث في مصر في تلك السنة. وفي سنة ٨١٨هـ/ ١٤٦١م. بنى المؤيد شيخ مسجداً في المنطقة القريبة من الباب مما أدى إلى إغلاق أحد المدخلين التاريخيين المتجاوين أحدهم للخروج والآخر للدخول وكان الخليفة المعز لدين الله أول

---

(١)ابن أياس: بدائع الزهور... ج.٥ ص١٧٢ ـ ١٧٤.

الخلفاء الفاطميين الذي دخل من المدخل الأيمن في هذه البوابة عند مجيئه إلى القاهرة عاصمة ملكه الجديدة في رمضان سنة ٣٦٢هـ أيار ٩٧٥ ميلادي.[١]

بقي باب زويلة على حالة من التهميش حتى وقت قريب عندما اهتمت به وزارة الأوقاف المصرية فأولكلت أمره إلى فريق عمل مصري ـ اميركي لإعادة ترميمه حيث تم ذلك وأُعيد افتتاح باب زويلة في الخامس عشر من شهر أيلول سنة ٢٠٠٣م.

---

(١)إبن خلكان: وفيات الأعيان... ج.٤ ص١٣٤.

جامع الظافر (وثيقة رقم (٨)



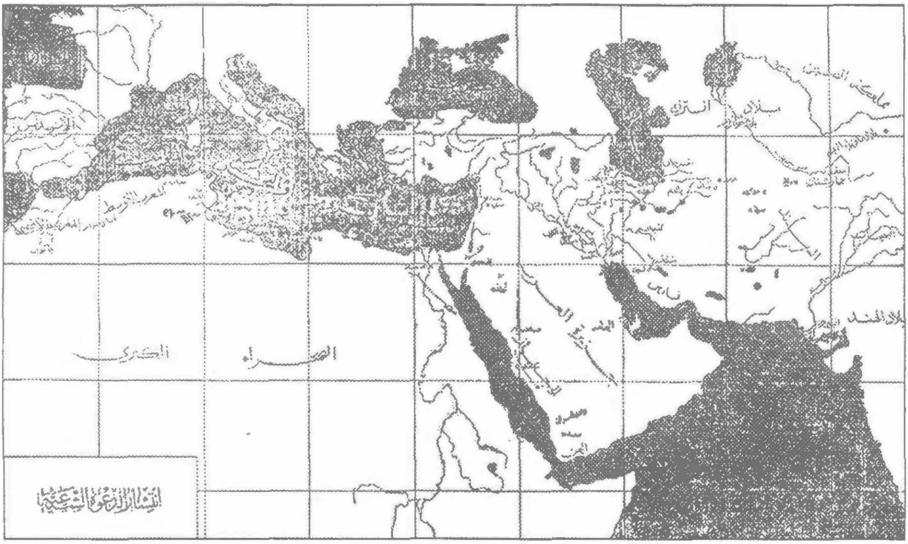
يقع بحي الغورية بمدينة القاهرة ويعرف بإسم جامع الفاكهين وكان يعرف بإسم الجامع الأفخر. بناه الظاهر بالله أبو منصور إسماعيل بن الحافظ لدين الله سنة ٥٤٣هـ / ١١٥٠م.

وفي سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٣م. تهدم قسم كبير من هذا الجامع من جراء الزلزال الذي حدث بمصر في تلك السنة. وفي سنة ٨٤٤هـ/ ١٤٤٢م أمر السلطان الظاهر جقمق بإعادة بناء جدران المسجد وأروقته المتهدمة.

وفي سنة ١١٤٨هـ/ ١٧٣٧م تهدم الجامع وأعاد بناؤه الأمير أحمد كتخدا. ولذلك لم يتبقى من عمارة المسجد الفاطمي إلا بعض المداميك الحجرية التي تعلو الباب الغربي والمصاريع الخشبية للبابان البري والغربي.[١]

(١) أرشيف الآثار المصرية.

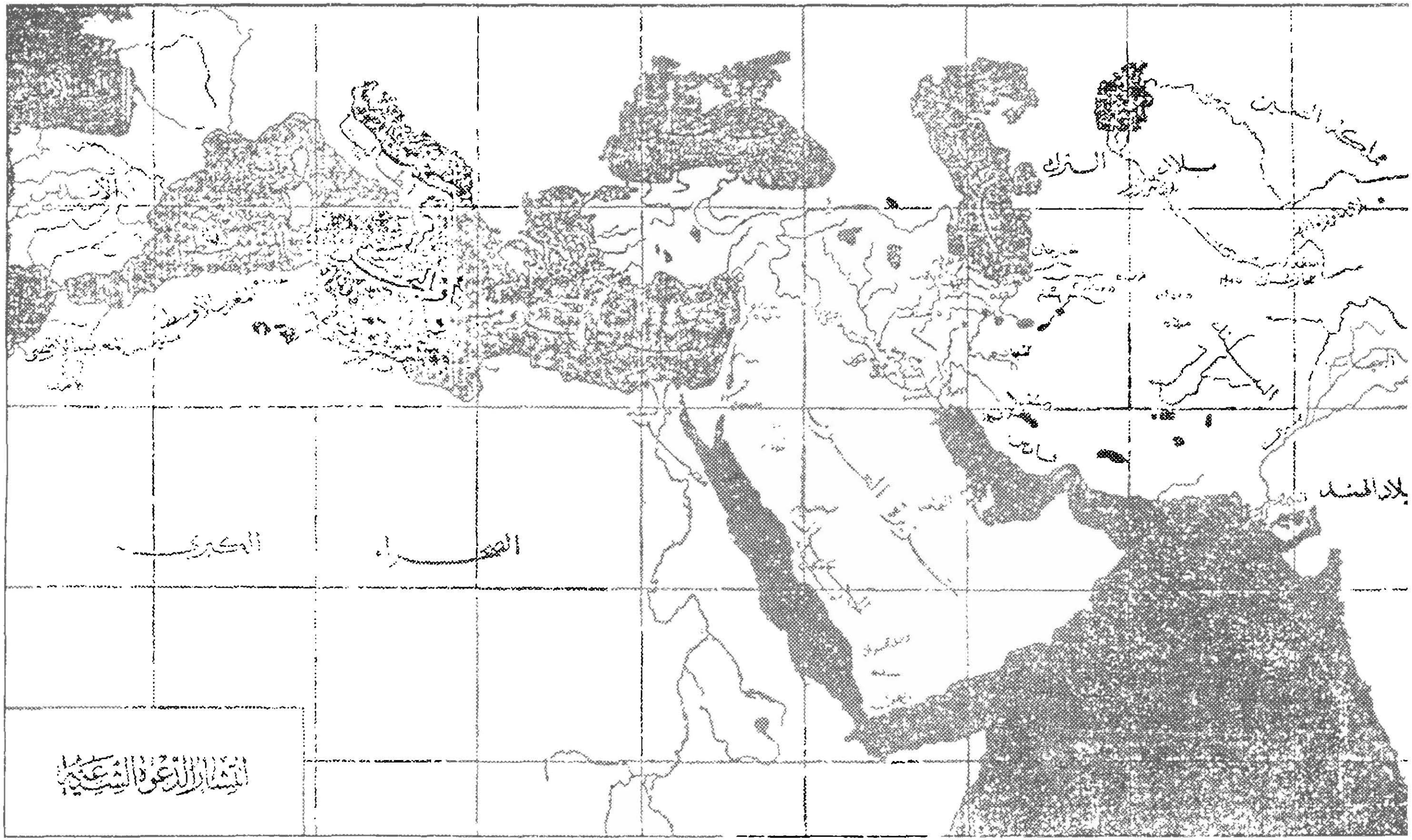
خريطة انتشار الدعوة الشيعية



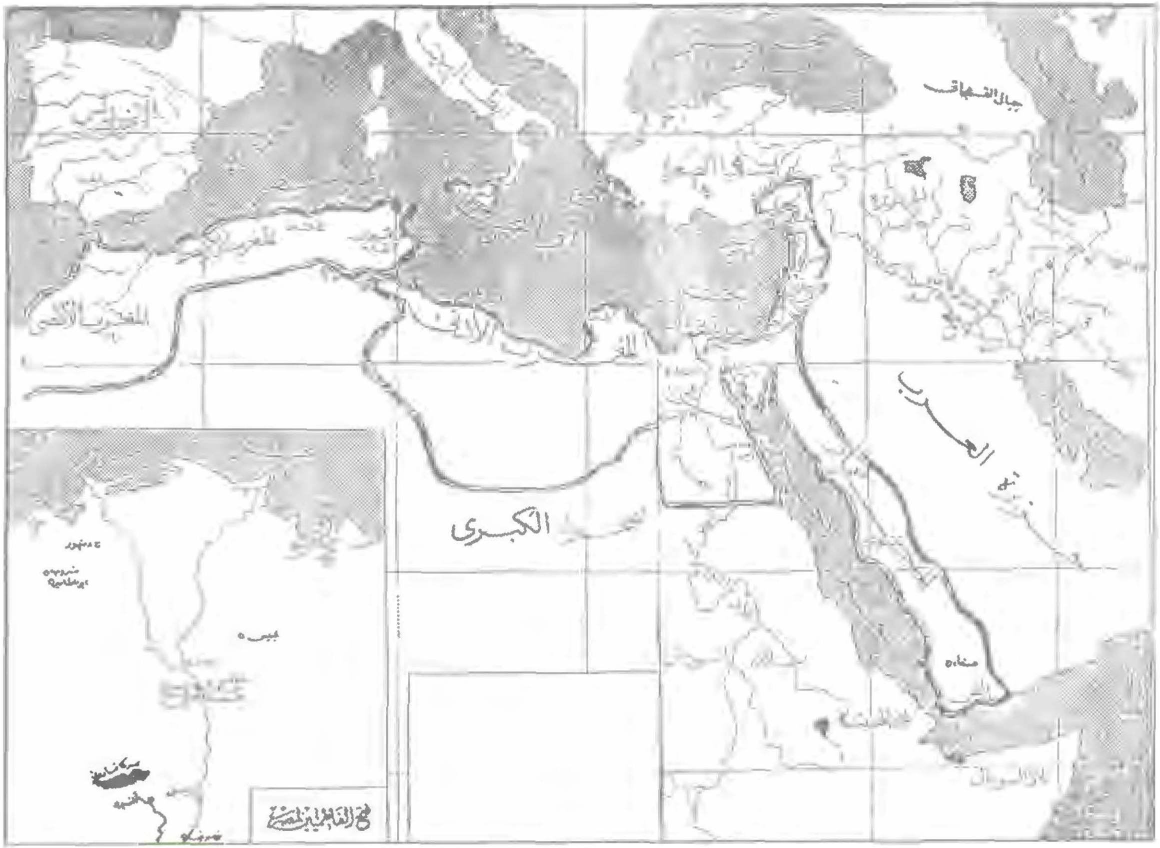
وفيها بيان المناطق التي انتشر فيها الدعاة الذين كان لهم أثر كبير في تاريخ الإسماعلية مثل ابن حوشب، وابن فضل اليمني اللذين قامت الدعوة الإسلامية في بلاد اليمن بفضل جهودهما. وأبى عبد الله الشيعي المحتسب الذي يرجع إليه الفضل في نشر الدعوة الإسماعيلية، وتأسيس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب.

أما في المناطق الشرقية فيعود الفضل إلى محمد بن إسماعيل الذي فر إلى الرى، ومنها إلى دماوند حيث استقر بقرية سميت محمد أباد نسبة إليه. وسار أنباؤه على منواله، فأختفوا في خرسان، وفي إقليم قندهار، وفي السند. حيث استطاع دعاتهم نشر الإسماعيلية في تلك الأصقاع.

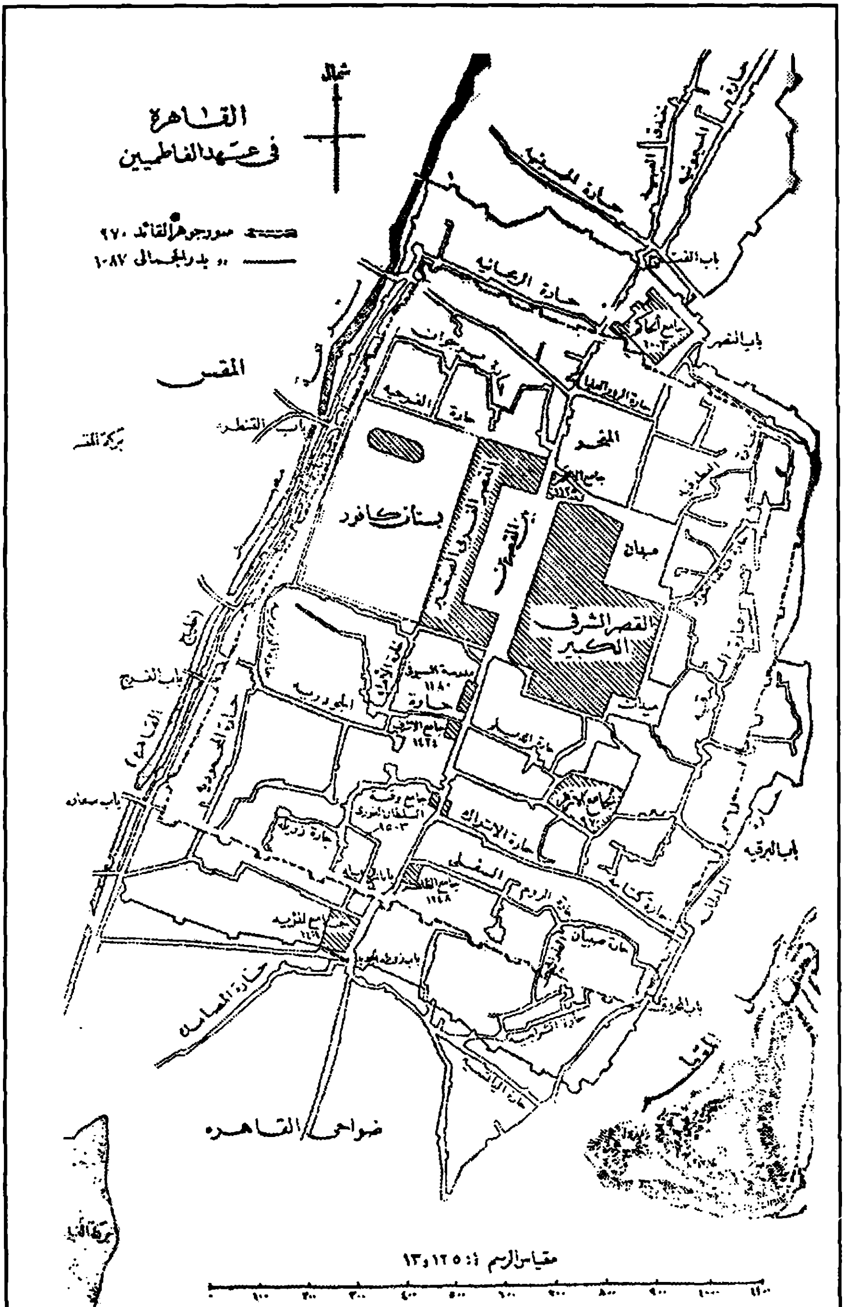
خريطه بلاد المغرب لنوصيح الفتح الفاطمي



خريطة الدولة الفاطمية في أقصى اتساعها



وفيها بيان المواقع والبلاد التي احتلتها الدولة الفاطمية في البر والبحر.


القاهرة
في عهد الفاطميين
شمال
سور جوهر القائد ٩٧٠
" بدر الجمالي ١٠٨٧
المقس
بستان كافور
القصر الشرقي الكبير
ضواحي القاهرة
مقياس الرسم ١: ١٢٥٠٠

مصادر الكتاب

وقد رتبت أسماء المؤلفين حسب أحرف الهجاء مع ذكر تاريخ وفاة المؤلفين الأقدمين.

١ ـ ابن الأثير: (ت٦٣٠هـ/ ١٢٣٤م) علي بن أحمد بن أبي الكرم:

ـ **الكامل في التاريخ**، ١٢ جزءاً ـ القاهرة ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٦م.

٢ ـ أحمد أمين:

ـ **ظهر الإسلام** (الجزء الأول ـ القاهرة ١٩٤٥م).

٣ ـ الإدريس (ت٦٤٩هـ/ ١٢٥٣م) محمد بن عبد العزيز الشريف الغاوي:

ـ **نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان**. وهو في مختصر الإدريسي «نزهة العشاق» (روما ١٥٩٢)

٤ ـ الأدفوى: (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٩م) كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن علي الأدفوي الشافعي:

ـ **الطالع السعيد الجامع لأسماء نخباء مصر**. د. ت.

٥ ـ أسامة بن منقد: (ت٥٨٤هـ/ ١٩٩١م) أبو المظفر بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر الملقب بمؤيد الدولة نجم الدين:

ـ **كتاب الاعتبار أو «حياة أسامة»** باريس ١٨٩٣.

٦ ـ الأشعري: (ت٣٢٤هـ/ ٩٣٤م) أبو الحسن علي بن إسماعيل:

ـ **مقالات الإسلاميين واختلاف المصليين**. جزء ـ إسلامبول ١٩٢٠.

٧ ـ الأصفهاني: (ت٣٥٦ هـ/ ٩٦٩م) أبو الفرج:
ـ **كتاب الأغاني** ٢١ جزءان ـ القاهرة ١٢٨٥هـ ١٨٧م.
٨ ـ أين أبي أصيبعة: (ت٦٦٧هـ/ ١٢٧١م) أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة موفق الدين:
ـ **كتاب عيون الأنبياء في أخبار الأطباء**، جزءان ـ القاهرة (١٢٩٩ ـ ١٣٠٠هـ) (١٨٨٢ ـ ١٨٨٣م).
٩ ـ أوتيخا: (ت٣٢٨هـ/ ٩٤١م) سعيد بن البطريق:
ـ **التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق** ـ بيروت ١٩٠٩.
١٠ ـ ابن إياس: (ت٩٣٠هـ/ ١٥٢٥م) أبو البركات محمد بن أحمد:
ـ **كتاب تاريخ مصر المعروف «ببدائع الزهور في وقائع الدهور»** ٣ أجزاء بولاق ـ (١٣١١ ـ ١٣١٢هـ) (١٨٩٤ ـ ١٨٩٥م).
١١ ـ البراوي: الدكتور راشد:
ـ **حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين** ـ القاهرة ١٩٤٨.
١٢ ـ أوليرى: دي ليسي:
ـ O.Leary. (delacy). Ashort history of fatimid khalifate (london 1923)
١٣ ـ البغدادي: (ت٤٢٩هـ/ ١٠٣٩م) أبو منصور عبد القاهر بن طاهر:
ـ **الفرق بين الفرق**، مطبعة المعارف، القاهرة ١٣٢٨هـ/ ١٩١١م.
١٤ ـ البغدادي: ت(٤٦٣هـ/ ١٠٧٣م) الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب:
ـ **تاريخ بغداد أو مدينة السلام**، ١٤ جزءاً القاهرة ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٢م.
١٥ ـ البغدادي: (ت٤٦٣هـ/ ١٠٧٣م)عبد اللطيف موفق الدين عبد اللطيف البغدادي:
ـ **الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعانية بأرض مصر** Relation de l'Egypte translated with historical notes by de sacy paris 1810.
١٦ ـ البكري: (ت٤٨٧هـ/ ١٠٩٧م) أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز:
ـ **كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، باريس ١٩١١.
١٧ ـ البلاذري: (ت٢٧٩هـ/ ٨٩٥م) أحمد بن يحي بن جابر:

- **فتوح البلدان** ـ القاهرة ١٣١٥هـ/١٨٩٨م): نشر الجزء الأول منه الدكتور صلاح الدين المجند ـ مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٥٦.

١٨ ـ اليلوى: (القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي) أبو محمد عبد الله:

- **سيرة أحمد بن طولون**، نشره محمد كرد علي ـ دمشق ١٣٥٨هـ/ ١٩٤١م.

١٩ ـ البيروني: (ت٤٤٠هـ/ ١٠٥٠م) أبو الريحان محمد بن أحمد:

- **الآثار الباقية من القرون الخالية**، طبعة إدوارد سخاو ـ لندن ١٨٧٩.

- **تاريخ البريد في مصر**، وضع بمناسبة انعقاد مؤتمر البريد العالمي العامر في القاهرة ـ بولاق ١٩٣٤.

٢٠ ـ التنوخي: (ت٣٨٤ت/ ٩٩٧م) أبو علي المحسن بن علي بن محمد بن أبي الفهم:

- **نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة** ـ القاهرة (١٩١٨ ـ ١٩٢١) ترجمة إلى الإنكليزية مرجوليت D- s. Margolioth ـ لندن ١٩٢٢.

٢١ ـ ابن تيمية: (ت٤٢٩هـ/ ١٠٣٩م) تقي الدين الحراني:

- **الحسبة في الإسلام** ـ القاهرة (١٨هـ/ ١٩٠١م).

٢٢ ـ الثعالي: (ت٤٢٩هـ/ ١٠٣٩م) أبو منصور عبد الملك:

- **يتيمة الدهر**، ٤ أجزاء ـ دمشق ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٧م.

٢٣ ـ الجاحظ: (ت٢٥٥هـ/ ٨٦٨م) أبو عثمان عمرو بن بحر البصري:

- **كتاب التبصير بالتجارة**. نشره حسن حسني عبد الوهاب ـ القاهرة ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٧م.

٢٤ ـ ابن جبر: (ت٦١٤هـ/ ١٢١٨م) أبو الحسن محمد أحمد الكناتي:

- **رحلة ابن جير**، ليدن ١٨٥٢.

٢٥ ـ ابن الجوزي: (ت٥٩٧هـ/ ١٢٠٤م) أبو الفرج عبد الرحمن المنتظم:

- **رسالة من القرامطة**، نشرها جوزيف دي سوفوجي. د. ت.

٢٦ ـ ابن الجوزي: (ت٦٥٤هـ/ ١٢٩٨م) أبو المظفر بن قيزوغلي سبط بن الجوزي:

- **مرآة الزمان**، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ٥٥١.

٢٧ ـ ابن حزم: (ت٤٥٦هـ/١٠٦٦م) أبو محمد علي بن أحمد:

ـ **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والإجتماعي**، ٣ أجزاء ـ القاهرة ١٩٦٤.

٢٨ ـ حتي: فيليب:

Hitti philip history of syria, london, 1951,

٢٩ ـ حسن إبراهيم حسن:

ـ **الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسة والدينية بوجه خاص** ـ القاهرة ١٩٣٢م.

ـ **تاريخ الدولة الفاطمية** ـ القاهرة ١٩٥٩م.

٣٠ ـ حسن إبراهيم حسن وطه مشرف:

ـ **عبيد الله المهدي إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب** ـ القاهرة ١٩٤٧م.

ـ **المعز لدين الله إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في مصر** ـ القاهرة ١٩٤٨م.

٣١ ـ حسن حبشي:

ـ **الحرب الصليبية الأولى** ـ القاهرة ١٩٤٧م.

ـ **نور الدين والصليبين** ـ القاهرة ١٩٤٨م.

٣٢ ـ حسن سليمان محمود: الدكتور ـ:

ـ **الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن** (٢٦٨ ـ ٦٢٦هـ) (٨٨٤ ـ ١٢٢٣م) بالاشتراك مع الدكتور حسن الهمداني ـ القاهرة ١٩٥٥ .

ـ **الملكة أروى سيدة ملوك اليمن** ـ القاهرة ١٩٥٥.

٣٣ ـ ابن حوشب: (منصور اليمن)

ـ **رسالة الرشد والهداية**، نشر الدكتور محمد كامل حسين ١٩٤٨.

٣٤ ـ ابن حوقل: (ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٣م) أبو القاسم محمد البغدادي الموصلى:

ـ **كتاب المسالك والمماك والمفاوز والمهالك**، نشره دعى غويه المجموعة الجغرافية العربية ـ ليدن ١٨٧٣.

٣٥ ـ ابن حرداذية: أبو القاسم عبيد الله بن الله:
ـ **كتاب المسالك والممالك**، ويذليه نبذ من كتاب الخراج وضعة الكتاب لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي، نشره دى غويه ـ لندن ١٨٨٩.

٣٦ ـ ابن خلدون (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م) عبد الرحمن بن محمد:
ـ **مقدمة ابن خلدون** ـ بيروت ١٩٠٠م.
ـ **العبر وديوان المبتدأ والخبر**. ١٧ جزءاً ـ بولاق ١٢٨٤هـ/ ١٨٧٠م.

٣٧ ـ ابن خلكان: (ت٦٨١هـ/ ١٢٨٥م) شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر الشافعي:
ـ **وفيات الأعيان**، جزءان ـ بولاق ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٩م.

٣٨ ـ الخوارزمي: (ت٣٨٣هـ/ ٩٩٦م) أبو بكر محمد بن العباس:
ـ **رسائل الخوارزمي** ـ القسطنطينية ١٢٩٧هـ/ ١٨٨٣م.

٣٩ ـ الخوارزمي: أبو عبد الله محمد بن أحمد يوسف الكاتب:
ـ **كتاب مفاتيح العلوم**، كتبه سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٩م ـ القاهرة ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٧م.

٤٠ ـ الخياط المعتزلي: (٣٠٠هـ/ ٩١٣م) أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان:
ـ **كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد**، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٣٤هـ/ ١٩١٧م.

٤١ ـ ابن الداية: (٣٣٠هـ/ ٩٤٣م) أبو جعفر أحمد بن يوسف:
ـ **سيرة أحمد بن طولون**، نشرفولرز K.Vollers ـ برلين ١٨٩٤.

٤٢ ـ دحلان: (ت١٣٠٤هـ/ ١٨٨٧م) أحمد زين دحلان المكي:
ـ **خلاصة الكلام في أمراء البيت الحرام**. د. ت.

٤٣ ـ ابن دقماق: (٨٠٩هـ/ ١٤٠٧م) إبراهيم بن محمد المصري:
ـ **الإنتصار لواسطة عقد الأمصار. الجزءان الرابع والخامس القاهرة ١٣٠٩هـ/ ١٨٩٢م.**

٤٤ ـ ابن أبي دينار: (ت١١١٠هـ/ ١٦٩٩م) محمد بن أبي القاسم بن عمر

القيرواني:

- **كتاب المونس في أخبار إفريقية وتونس** ـ تونس ١٢٨٦هـ/ ١٨٧٢م.

٤٥ ـ الدينوري: (ت٨٨٢هـ/ ٨٩٥هـ) (١٨٤٠م ـ ١٤٨٧م) أبو حنيفة أحمد بن داود.

٤٦ ـ الذهبي: (ت٧٤٨هـ/١٣٤٩م) الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد:

- **تاريخ الإسلام**، مخطوط في دار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ٤٢ تاريخ.

٤٧ ـ الرازي: فخر الدين:

- **رسائل الحاكم بأمر الله**، كتبها العديد من دعاة الفاطمين في سنة ٤٠٨هـ/ ١٠١٨م. مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة تحت رقم ٢٠ (مذهب الشيعية).

٤٨ ـ راشد البراوي:

- **حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين** ـ القاهرة ١٩٤٨م.

٤٩ـ الرضى: (ت٤٠٦هـ/١٠١٦م) الشريف أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى .بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

- **ديوان الشريف الرضى ـ بيروت ١٣٠٧هـ/ ١٨٩٠م.**

٥٠ ـ زكي محمد حسن:

- **كنوز الفاطميين** ـ القاهرة ١٩٣٧.

٥١ ـ ابن زولاق: (ت٨٣٦هـ/ ١٠٠٠م) أبو محمد الحسن بن إبراهيم:

- **كتاب فضائل مصر وأخبارها وخواصها**. مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٢٠٦٩.

٥٢ ـ زيدان: جرجي:

- **تاريخ التمدن الاسلامي**. ٥ أجزاء ـ القاهرة. ١٩٠٢ ـ ١٩٠٦.

٥٣ ـ سرور: الدكتور محمد جمال الدين:

- **النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق في القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة**، دار الفكر العربي ـ القاهرة ١٩٥٧.

٥٤ ـ السخاوي (ت٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م) أبو الحسن نور الدين علي:
ـ **تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات.** القاهرة ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٩م.

٥٥ ـ ابن سعد: (ت٢٣٠هـ/ ٨٤٦م) محمد بن سعد كاتب الواقدي:
ـ **كتاب الطبقات الكبير**، ١٨ جزءاً ـ لندن ١٣٢٢هـ/ ٩٠٥م.

٥٦ ـ ابن سعيد: (ت٦٧٣هـ/ ١٢٧٧م) علي بن موسى المغربي:
ـ **كتاب المغرب في حلى المغرب والمشرق في حل المشرق** ـ لندن (١٨٩٨ ـ ١٨٩٩م) نشر الجزء الأول منه المتعلق بمصر زكي محمد حسن، وشوقي ضيف، وسيدة إسماعيل كاشف القاهرة ١٩٥٣.

٥٧ ـ السفطي الأندلس:
ـ **أدب الحسبة، نشره** Levi, provencal and colin باريس ١٩٣١.

٥٨ ـ السلاوي: أحمد بن خالد الناصري:
ـ **الاستقصاء لاخبار دول المغرب الأقصى**، ٤ أجزاء ـ القاهرة (١٣١٠ ـ ١٣١٢هـ) (١٨٩٣ ـ ١٨٩٥م).

٥٩ ـ السمعاني: (ت٥٦٢هـ/ ١١٦٩م) القاضي أو سعيد عبد الكريم:
ـ **كتاب الأنساب** ـ لندن ١٩١٢.

٦٠ ـ سيدة إسماعيل كاشف:
ـ **مصر في فجر الإسلام ـ القاهرة ١٩٤٧.**
مصر في عصر الإخشيديين ـ القاهرة ١٩٥٠.

٦١ ـ السيوطي: (ت٩١١هـ/ ١٥٠٦م) عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين:
ـ **تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة** ـ القاهرة ١٣٥١هـ/ ١٩٣٤م.
ـ **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة**جزءان ـ القاهرة ١٣٢١هـ/ ١٩٠٤م.

٦٢ ـ الشابشتي: (ت٣٨٨هـ/ ١٠٠١م) أبو الحسن علي بن محمد:
ـ كتاب الديارات ـ برلين ١١٠٠.

٦٣ ـ أبو شامة: (ت٦٦٥هـ/١٢٦٨م) عبد الرحمن بن إسماعيل ابن إبراهيم بن عثمان شهاب الدين الملقب بأبي شامة:
- **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين**.

٦٤ ـ أبو شجاع: (ت٤٨٨هـ/١٠٩٨م) محمد بن الحسين بن عبد الله ابن إبراهيم الوزير الدين أبو شجاع الروذراوري:
- **ذيل كتاب تجارب الأمم**. طبعة H.F.Amedroz

٦٥ ـ ابن شداد: (ت٦٣٢هـ/١٢٣٦م) القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف ابن رافع بن تميم:
- **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**.

٦٦ ـ الشهرستاني: (ت٥٤٨هـ/ ١١٥٥م) أبو الفتح محمد بن عبد الكريم:
- الملل والنحل. ٥ أجزاء ـ القاهرة ١٣١٦هـ/ ١٩٠٠م.

٦٧ ـ الشيال: الدكتور جمال الدين:
- **مصر والشام بين دولتين**، دار الفكر العربي ـ القاهرة ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٩م.

٦٨ ـ ابن طباطا: (ت٧٠٩هـ/ ١٣١٠م) محمد بن علي بن طباطا المعروف بابن الطقطاق:
- **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية** القاهرة ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٨.

٦٩ ـ الطبري: (ت٣١٠هـ/ ٩٢٣م) أبو جعفر محمد بن جرير:
- **تاريخ الأمم والملوك** ٨ أجزاء ـ القاهرة ـ ١٣٥٨هـ/ ١٨٤١م.

٧٠ ـ طه شرف: **دولة النزارية أجداد أغاخان** ـ القاهرة ١٩٥٠.

٧١ ـ الطوسي: (ت٤٦٠هـ/ ١٠٧٠م) محمد بن الحسن:
- **فهرست كتب الشيعة** ـ كلكتا ١٨٥٥م.

٧٢ ـ ابن عبد الحكم: (ت٢٧٦هـ/ ٨٩٢م) أبو القاسم عبد الرحمن القرش المصري:
- **كتاب فتوح مصر وأخبارها** نشره هنري ماسيه Henrri massé وطبعة المعهد الفرنسي للعاديات الشرقية. القاهرة ١٩١٤.

٧٣ ـ عبد الحميد يونس (الدكتور) وعثمان توفيق:
ـ **الأزهر** ـ دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٤٦،
٧٤ ـ ابن عبد ربه: (ت٣٤٩هـ/ ٩٦٢م) شهاب الدين أحمد:
ـ **العقد الفريد**. ٣ أجزاء ـ بولاق ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٩م.
٧٥ـ ابن عذارى: أبو عبد الله محمد المراكشي:
ـ **البيان المغرب في أخبار المغرب**، ٣ أجزاء، نشر دوزي، باريس ١٩٣٠م.
٧٦ ـ أبو العرب تميم: محمد بن تميم التميمي:
ـ **طبقات علماء تونس ـ الحزائب ١٩١٤**.
٧٧ ـ عريب بن سعد: (ت٣٦٦هـ/ ٩٧٩م).
ـ **صلة تاريخ الطبري** القاهرة ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥م.
٧٨ ـ ابن عساكر: (ت٥٧١هـ/ ١١٧٨م) الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن:
ـ **التاريخ الكبير**، ٥ أجزاء دمشق (١٣٢٩ ـ ١٣٣٢هـ) (١٩١٢ ـ ١٩١٥م).
٧٩ ـ علي إبراهيم حسن:
ـ **تاريخ جوهر الصقلي ـ القاهرة ١٩٢٣**.
ـ **تاريخ مصر في العصور الوسطى**. القاهرة ١٩٥٣.
٨٠ ـ علي مبارك باشا:
ـ **الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة** ٢٠ جزءاً بولاق ١٣٠٦م.
٨١ ـ عمارة اليمني: (ت٥٦٩هـ/ ١١٧٦م) أبو محمد عمارة بن أبي الحسن علي بن زيدان بن أحمد الحكي اليمني الملقب بنجم الدين:
ـ **تاريخ اليمن**، نشر (Henri casselskay) لندن ١٨٩٢.
٨٢ـ ابن العميد: (ت٦٧٢هـ/ ١٢٧٦م) الشيخ المكين جرجس ابن العميد:
ـ **تاريخ المسلمين** (لندن ١٦٢٥م).
٨٣ ـ العيني: (ت٨٥٥هـ/ ١٤٥٣م) بدر الدين محمد بن أحمد بن موسى:
ـ **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**، مخطوط بدار الكتب المصرية (صورة) رقم ١٥٨٤ تاريخ.

٨٤ ـ الغزالي: (ت٥٠٥هـ/ ١١١٢) الإمام أبو حامد:
ـ **المنقذ من الضلال، أو الملل والنحل** (دمشق ١٣٥٣/ ١٩٣٦م).
ـ **فضائح الباطنية، أو المستطهري**، نشره جوار تسيهر (لندن ١٦١٦).
٨٥ ـ أبو الفدا: (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣٣م) إسماعيل بن علي عماد الدني صاحب حماة:
ـ **المختصر في أخبار اليسر**، ٤ أجزاء ـ القسطنطنية ١٢٨٦هـ/ ١٨٧٢م.
ـ ويت: جاستون:

Wiet, G - Histoire de la mation Egtptienne 7 vols paris 1931 - 1940.

٨٦ ـ ابن قتيبة: (ت٢٨٦هـ/ ٨٩٢م) أبو محمد عبد الله بن مسلم:
ـ **الإمامة والسياسة**، جزءان ـ القاهرة ١٣٢٢هـ/ ١٩٠٥م.
٨٧ ـ القضاعي: (ت٤٥٤هـ/ ١٠٦٤م) القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة بن خضر الشافعي المذهب:
ـ **عيون المعارف وفنون أخبار الخلايف**، مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ١٧٧٩ تاريخ.
٨٨ ـ ابن القفطي: (ت٦٤٦هـ/ ١٢٦٠م) جمال الدين علي بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الوهاب:
ـ **إخبار العلماء بأخبار الحكماء** القاهرة ١٣٢٦هـ/ ١٩١٧م).
٨٩ ـ ابن القلانسي: (ت٥٥٥هـ/ ١١٦٢م) أبو يعلي حمزة:
ـ **تاريخ ابن القلانسي المسمى ذيل تاريخ دمشق** وصحوب بشذرات من تواريخ ابن الفارق وسيط بن الجوزي والذهبي، بيروت ١٩٠٨.
٩٠ ـ القلقشندي: (ت٨٢٣هـ/ ١٤٢١م) أبو العباس أحمد:
ـ **صبح الأعش في صناعة الإنشاء** ١٤ جزءاً ـ القاهرة ١٩١٣ ـ ١٩١٧م.
٩١ ـ كاشف: الدكتورة سيدة إسماعيل:
ـ **مصر في فجر الإسلام**، دار الفكر العربي ـ القاهرة ١٩٥٠.
٩٢ ـ الكتبي: (ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٥م) محمد بن شاكر بن أحمد الحلبي:
ـ **فوات الوفيات**، جزءان القاهرة ١٩٥١م.

٩٣ ـ الكرماني: (ت٤٠٨هـ/١٠١٨م) الداعي أحمد حميد الدين:

ـ **الرسالة الواعظة في نفي دعوى الوهبة الكاكم بأمر الله** ـ (كلية الآداب ـ القاهرة ـ المجلد الرابع عشر ـ الجزء الأول ـ أيار ١٩٥٢).

٩٤ ـ الكرملي: أنستاس ماري:

ـ **النفوذ العربية وعلم النمياث ـ القاهرة ١٩٣٩م.**

٩٥ ـ الكندي: (ت٣٥٠هـ/٩٥٧م) أبو عمر محمد بن يوسف:

ـ **كتاب الولاة وكتاب القضاة ـ لندن ١٩٠٨م.**

٩٦ ـ ماجد: الدكتور عبد المنعم:

ـ **نظم الفاطميين ورسومهم في مصر: جزءان ـ القاهرة ١٩٥٣م.**

٩٧ ـ المالكي: أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله:

ـ **رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهارهم وعبادهم ونساكهم وسير من أخبارهم**، نشره الدكتور حسين تونس القاهرة (١٩٥١).

٩٨ ـ الماوردي: (ت٤٥٠هـ/ ١٠٦٠م) أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري:

ـ **الأحكام السلطانية**. القاهرة ١٢٩٨هـ/ ١٨٨٤م.

ـ **أدب الوزير المعروف بقوانين الوزارة وسياسة الملك** ـ القاهرة ١٣٤٨هـ/ ١٩٣١م.

٩٩ ـ المتنبي (ت ٣٥٤هـ/ ٩٦٧م) أبو الطيب أحمد بن الحسين الكوفي:

ـ **ديوان المتنبي**، نشره عبد الرحمن البرقوق ـ القاهرة (١٣٢٨هـ ـ ١٩١١م).

٩٩ ـ لينبول: ستانلي:

Lane - poole: stamley. -Ahistory of Egypt in the middle ages, london 1901, - Saladin anl the fall of the kingdon of yerusalem, london, 1893

١٠١ـ متز: آدام: Metz

الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، Adam die renaissacre des islams نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة، جزءان ـ القاهرة ١٩٤٠ ـ ١٩٤١م.

١٠٢ـ أبو المحاسن: (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٧٢م) جمال الدين يوسف بن تغري بردي:
ـ **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، دار الكتب المصرية ١٩٢٨ ـ ١٥٩٢.
١٠٣ـ المراكشي: (ت٦٦٩هـ/ ١٢٧٣م) محي الدين أبو محمد عبد الواحد بن علي التميمي:
ـ **كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب**. ترجمه وشرحه١ ـ فاينان القاهرة ١٩٢٩م. (E. Fagnan).
١٠٤ـ المسعودي: (ت٣٤٦هـ/ ٩٥٧م) أبو الحسن علي بن الحسين بن علي:
ـ **مروج الذهب ومعدن الجوهر** جزءان القاهرة ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٦م.
١٠٥ـ مسكويه (ت٤٢١هـ/ ١٠٣١م) أبو علي أحمد بن محمد:
ـ **كتاب تجارب الأمم**، جزءان طبعة هـ/ ف. إمدروز H.F.Amedroz وترجمة الأستاذ مرجوليت prof.D.S.Margoliouth أكسفورد ١٩٢١م.
١٠٦ـ مسلم: (ت٢٦١هـ/ ٨٧٧م) أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري:
ـ **الجامع الصحيح**، ١٨ جزءاً في ٤ مجلدات ـ القاهرة ١٣٢٩هـ/ ١٩١٢م.
١٠٧ـ مشرفية الدكتور عطية:
ـ **نظام الحكم بمصر في عهد الفاطميين**، دار الفكر العربي ـ القاهرة. ١٣٦٧هـ/ ١٩٥٠م.
ـ **القضاء في مصر من الفتح العربي إلى الفتح الفاطمي**، القاهرة ١٩٤٥.
١٠٨ـ المقدسي: (ت٢٨٧هـ/ ١٠٠٠م) شمس الدين أبو عبد الله محمد الشافعي المقدسي المعروف بالبشاري:
ـ **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، طبعة دي غوية، لندن ١٨٧٧.
١٠٩ـ المقريزي: (ت٨٤٥هـ/ ١٤٤٣م) تقي الدين أحمد بن علي:
ـ **المواعظ والإعتبار يذكر الخطط والآثار**، جزءان بولاق ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٦م.
ـ **تعاظ الحنفا بأخيار الأئمة الخلفاء**. نشره الدكتور جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٤٨ (دار الفكر العربي).
١١٠ـ أين مماتي: (ت٦٠٦هـ/ ١٢١٠م) القاضي الوزير شرف الدين أبو المكارم الأسعد.
ـ **كتاب قوانين الدواوين**، نشره الدكتور عزيز سوريال ـ القاهرة ١٩٤٣م.

١١١ـ ابن منجب الصيرفي: (ت٥٤٢هـ/ ١١٤٩م) أمين الدين تاج الرياسة أبو القاسم علي.
ـ **الإشارة إلى من نال الوزارة** ـ القاهرة ١٩٢٤م.
١١٢ـ المؤيد في الدين: (ت٤٧٠هـ/ ١٠٨٠م) هبة الله الشيرازي:
ـ **السيرة المؤيدية**، مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٦٠٥٦.
ـ **ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة**، نشره الدكتور محمد كامل حسين. القاهرة ١٩٤٩.
١١٣ـ ابن ميسر: (ت٦٧٧هـ/ ١٢٨١م) محمد بن علي بن يوسف بن جلب:
ـ **تاريخ مصر**. طبعة هنري ماسيه Henri Massé القاهرة ١٩٤٩.
ـ **نخب تاريخية جامعة لأخبار المغرب الأقصى**. نشرها بروفنسال باريس ١٩٤٨.
١١٤ـ ناصر خسرو: (ت٤٨١هـ/ ١٠٩١م):
ـ **سفرنامة**: relation du voyage de nasir khosrau, en Syrie en Falestine, en Egypte, Arabie et perse paris, 1881.
١١٥ـ ابن النديم: (ت٣٨٣هـ/ ٩٩٦م):
ـ **كتاب الفهرست**، القاهرة ١٣٤٨هـ/ ١٩٣١م.
١١٦ـ النعمان: (ت٢٦٣هـ/ ٨٧٩م) أبو حنيفة المغربي:
ـ **المجالس والمسايرات**. ثلاثة أجزاء، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٦٠٦٠.
١١٧ـ النوبختي: (ت٢٠٢هـ/ ٨١٨م) أبو محمد الحسن بن موسى:
ـ **كتاب فرق الشيعة**، استانبول ١٩٣١م.
١١٨ـ النويري: (ت٧٣٢هـ/ ١٣٣٣م) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب:
ـ **نهاية الأرب في فنون الأدب**، مخطوط بدا الكتب المصرية رقم ٥٤٩ في عدة مجلدات.
١١٩ـ ابن هانئ: (ت٣٦٢هـ/ ٩٧٥م) أبو القاسم المكنى بأبي الحسن محمد:
ـ **ديوان ابن هانئ**، بيروت ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٩م.
١٢٠ـ هلال الصابي: (ت٤٤٨هـ/ ١٠٥٨م) أبو الحسن بن المحسن بن أبي إسحاق إبراهيم الكاتب:

- **تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء**، طبعة هـ. ف. أمدروز H.F. Amedroz.

١٢١ـ هيد، و Hed, W.

- Histoire du commerce du lerant au moyen age, 2 vols. Leipzig, 1925.

١٢٢ـ الهمداني: الدكتور حسين والدكتور حسن سليمان محمود:

- **الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن**. القاهرة ١٩٥٥ م.

١٢٣ـ ابن واصل: (ت ٦٩٧هـ/ ١٣٠١م) جمال الدين محمد ابن سالم بن واصل:

- **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، نشر جمال الدين الشيال ١٩٥٤ ـ ١٩٥٧م.

١٢٤ـ ياقوت: (ت٦٢٦هـ/ ١٢٣٠م) شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي.
معجم البلدان. ١٠ أجزاء. القاهرة ١٩٠٦م.

معجم الأدباء، ٢٠ جزءاً ـ طبعة أحمد فريد رفاعي ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨.

١٢٥ـ يحي بن سعيد الأنطاكي: (ت٤٥٨هـ/ ١٠٦٨م):

- **صلة كتاب أوتيخا المسمى «تاريخ المجموع على التحقيق والتصديق**. جزءان ـ بيروت ١٩٠٩م.

١٢٦ـ اليعقوبي: (ت٢٨٢هـ/ ٨٩٨م) أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح:

- **تاريخ اليعقوبي**، جزءان، طبعة النجف ـ العراق ١٣٥٨هـ/ ١٩٣١م.

تاريخ البلدان، طبعة دي غوية ـ لندن ١٨٩٢م.

١٢٧ـ اليماني: محمد بن محمد:

- **سيرة الحاجة جعفر بن لي وخروج المهدي من سليمة وقصولة إلى سجلماسة**. نشراء بغانوف في مجلة كلية الآداب، جامع ة القاهرة كانون الأول ١٩٣٦.

١٢٨ـ **السجلات المستنصرية** سجلات وتوقيعات وكتب لمولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين إلى دعاة اليمن وغيرهم، نشر وتحقيق عبد المنعم ماجد، سنة ١٩٥٤م.

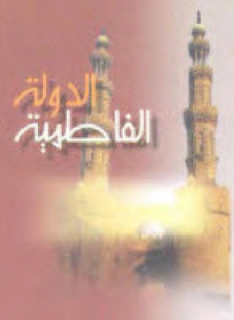
١٢٩ـ **مجموعة الوثائق الفاطمية** جمعها وحققها جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٨م.

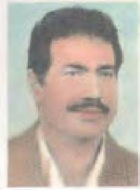
فهرس الكتاب

الباب الثاني

النظم والحضارة في العصر الفاطمي

ملحق الوثائق والصور





عرب حسين دعكور من مواليد شبعا - قضاء حاصبيا
حائز على الشهادات التالية:
- إجازة في التاريخ من الجامعة اللبنانية.
- إجازة في العلوم الإجتماعية من الجامعة اللبنانية.
- ماجستير في التاريخ من الجامعة اللبنانية.
- كفاءة في التاريخ من الجامعة اللبنانية «كلية التربية».
- جدارة في العلوم الإجتماعية من الجامعة اللبنانية.
- دكتوراه اختصاص في التاريخ من جامعة القديس يوسف بيروت.
- دكتوراه دولة في التاريخ من جامعة القديس يوسف بيروت.

مارس التعليم في كافة مراحله:
- الأساسية والمتوسطة بعد حصوله على شهادة دار المعلمين الإبتدائية.
- الثانوية بعد حصوله على شهادة دار المعلمين العليا.
- أستاذ في الجامعة اللبنانية - كلية الآداب قسم التاريخ.

من مؤلفاته :
- الصراع الدولي في لبنان أثناء الحكم المصري.
- الصراع الدولي في مصر أثناء حكم السلطان.
- المملوكي قانصوه الغوري.
- النفحات القومية في ثورة أحمد عرابي باشا.
- المفهوم التربوي عند ابن خلدون.
- المعلم في التاريخ الإسلامي.
- التاريخ الريفي والمديني.
- إلى جانب العديد من الأبحاث.
- الصراع الإقتصادي بين الشرق والغرب في القرن ١٦
- الوصية في الإسلام
- الوقف في الإسلام
- الصراع السياسي في الإسلام

دار المواسم للطباعة والنشر والتوزيع
هاتف: 236 890 (3 00961) - تلفاكس: 933 734 (009617)
ص.ب: 5866 / 13 بيروت - لبنان
بريد إلكتروني: mawassem@hotmail.com